

نحو لآل زرع السمك

بومر الغنم

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

الجزء الثاني

www.mlazna.com-RAYAHEEN

(٢٣)

خطوات في الطريق الخاص

أحضرت سيدة العشاء للشلة .

وكان طلعت قد ففز من الشرقة لشراء بطيخة بعد أن جمع ثمنها من كل واحد فرشا ..

وجلس الرفاق يأكلون الملوخية والأرز في استمتاع شديد .. وكأنيهم يأكلون كما تقول أم عباس لسيدة : « في آخر زادهم » .

وبعد العشاء لم ينتظروا حتى تحضر سيدة سكية لكسر البطيخة .

بل أمسكها طلعت بكفتها يديه ثم ضربها على حافة سور الشرقة فقلعها نصفين ثم أطبق بكفه على قلبها وأخذ في التهامه .

وأمسك الشيخ حلمي بنصف البطيخة بعد أن انتزع منها القلب قائلا :
طلعت :

— متوحش .. تحتاج إلى وقت طويل لكي تتعلم طريقة آدمسين في
الطعام ..

ورد عليه طلعت ببساطة وهو ياتهم قلب البطيخة قائلا :

— اتلهي ..

وانتهت الشلة من الطعام وأكل طلعت قلب البطيخة ثم فرد ذراعيه وضرب
على صدره متسائلا :

— يا ناس ما زلت جعانا ..

وقال له الشيخ حلمي :

— كلني بقي !

— لا أحب لحم الجمور ..
 وهز الشيخ حلمى رأسه متأقفاً ، وقال فى لهجة لزدراء :
 — بخاطبى السفيه بكل قبح ..
 — هذا هو ما تأخذ منك يا شيخ هباب .. نحن نريد طعاما وليس شعرا !
 نابلون قال الجيوش تمشى على بطونها يا شيخ حلمى .. ولا تمشى على الشعر ..
 والتفت طلعت إلى حمدي مساللا :
 — ماذا عندكم فى المطبخ يا حمدي ؟
 — لاشئ غير الملوغية والأرز ..
 — متأكد ؟
 — اذهب وابحث بنفسك .
 ولم يتردد طلعت رغم ملاحقة الشيخ حلمى له باللوم والتفريع ومحاولة ردهه بقوله :
 — يا جدد احتشئ .. ألا يحصل أن تصادف أحدا فى المطبخ ؟
 ورد طلعت :
 — المحرم كلهم عرجوا ! .. ولا يوجد غير البت سيدة ..
 ورد صلاح :
 — ألا تحضر سيدة حريم ؟
 — سيدة منا علينا ..
 ثم خرج من الحجرة ضاحكا :
 — بت يا سيدة .. عندكم إيه فى المطبخ ؟
 وقبل أن تحجب سيدة التعمع المطبخ ، وأخذت فى البحث فى الخلل والأطباق حتى
 عثر على بيضة فى الحمية فأخذها وأسرع إلى الشرفة قائلا :
 — وجدتها !
 ثم أمسك بالبيضة ساللا حمدي :

— مسلوقة ولا نية ؟
 وهز حمدي رأسه قائلا :
 — أظنها مسلوقة .
 وهزها طلعت بجوار أذنيه قائلا :
 — يبدو فعلا أنها مسلوقة .. ما رأيكم فيمن يتلها مرة واحدة ؟
 ورد صلاح : وإيه يعنى .. أنا أستطيع ..
 — وإيه يعنى .. أنا أستطيع ..
 وعاد طلعت بيز البيضة قائلا :
 — إذن ما رأيكم فيمن يكسرها بضربة واحدة فى رأسه !
 وأمسك صلاح بالبيضة وتقرى بها رأسه ثم سلمها إلى طلعت قائلا :
 — لا يا عم .. لست مستغنيا عن رأسى من أجل بيضة ؟
 وتناول طلعت البيضة وهو يقول :
 — أنا مستعد .. مين براهن ؟ قرش صاغ بقرش صاغ ..
 وقال صلاح ..
 — أنا أراهن ..
 ورفع طلعت البيضة وقربها من جبينه وعاد يسأل حمدي :
 — ترلن ؟ ..
 ورد حمدي :
 — أنا لم أعرب كسر البيضة فى رأسى حتى أراهنك ..
 وتدخل الشيخ حلمى قائلا :
 — يا جدد دع البيضة وإلا كسرت رأسك !
 ولكن طلعت تقر البيضة فى رأسه فطقت ؟
 ولم تكن البيضة مسلوقة والمخدر البياض والصفار على حاجبي طلعت وأنفه !
 وصرخ طلعت :
 — يا ولاد الصرم .. دى نية .. كده تعملوها فيه ؟ ..

وهتف الشيخ حلمى :

— أنت الذى علمتها فى نفسك يا غبى .. من قال لك اكسرها ؟
ومد طلعت لسانه ليتلقى البيض السائل ، ومد يده فى نفس الوقت لصالح
قائلا :

— هات الصاغ يا بأف ..

ولم ينتظر صلاح بل قفز من الشرقه .. وقفز طلعت وراءه ..
ثم قفز حمدى والشيخ حلمى وراءهما .. وانطلق الأربعة ليمشوا إلى ساحل
روض الفرج .

واستمر تجمع الشلة .. كل يوم عند أحد الرفاق .. يقضون السهرة فى
مناقشات سياسية وجدل ومزاح وأكل وخروج للشمس على ساحل روض
الفرج .. ومشاهدة فرقة الكسار وفوزى منب من خارج السور ، واستجار
مركب للتجديف .. حتى بدأت الدروس على حد قولهم « تكبس » وحل
موسم الامتحانات ، وأخذت الشلة تهمل فى الاستذكار .. وكانت سيدة
خلال تلك الشهور تحاول أن تجد الطريق إلى حياتها الخاصة .. إلى منطقة نفوذها
بحوار صندوق الكازويزة .

و ذات عصر كانت العمة تزورهم هى وابنتها الصغيرة كوثر ..

وسألت سيدة الأم فى تردد واستحياء :

— هل أستطيع أن ألبس الغوايش ؟

وربتت الأم على كتفها فى رفق ، وأخرجت الغوايش من الدولاب وسلمتها
إليها قائلة :

— عدى بالك منهم .. ما تزوحيش هنا والا هنا ..

وردت سيدة :

— سأتمشى مع ست كوثر لآخر الشارع .. سأشترى لها مصاصة !

— لا تتأخرى ..

وأخرجت سيدة وقد ارتدت الغوايش وهى تمسك بكوثر فى يدها وانجهت إلى
عبد الحميد البقال واشترت المصاصة لكوثر وفى طريق عودتها لم تعد من أقصر
الطرق بل دارت دورة ساقها إلى صندوق الكازويزة . وبدأ كأن مرورها بعلام
بجرد مرور غابر فى الطريق ولم يكديرها علام حتى وثب من مكانه واندفع إليها
قائلا :

— أتركك يا سيدة .. لماذا لا تأنين ؟

وردت سيدة فى غير اكتراث :

— ولماذا آتى ؟

— هل حرمم الكازويزة ؟

— لا تلزمنا !

— والضيوف ؟

— يشربون القهوة ..

— ألا تحاجون إلى تلج ؟

— والقلل القناوى ما هنا ؟

— ببنى استنهم عن علام ؟

— الله الغنى ..

واستمرت سيدة فى سيرها ، ولكن علام أمسك كمهسا محاولا أن
يستوقفها ..

— طيب صبرك .. تنكلم ..

وتوقفت سيدة قائلة فى غمد :

— ماذا تريد ؟

— قلت لك تنكلم .. ناعده ونعطى ..

— وقتت .. قل ماذا تريد ؟

— أولا ميروك الغوايش .. حاككوا من إيدك حه ..!

— الله يبارك فيك ..

— متى اشتروهم لك ؟

— منذ مدة ..

— حلوين !! .. ذهب !!

— ٢٤ قيراط ..

— صرت ست .. يا سيدة !

— ماذا كنت تظنى ؟

— تعال القعدى ..

— لماذا ؟

— لكي نتكلم ..

— فيم ؟

— في الموضوع الذى كلمتك عنه .. تعال .

— ليس وقته !

— لماذا ؟

— البنت معى ..

— اذهبي إلى البيت ثم عودي ..

— ليس اليوم ..

— متى إذن ؟

— غدا ..

— الساعة كم ؟

— فى مثل هذا الوقت .. أكون قد شعبت البيت ..

وفى اليوم التالى استطاعت سيدة أن تدبر سببا لخروجها .. فرغ الصابون

وخرجت لشراء قطعتين من البقال . وعند عودتها مرت بعلام .

وكانت الزبارة .. عن صمد .. ويومعد سابق .

وبدا علام يعد للقاءها .

كان جلبابه المخطط نظيفاً والليدة قد لغت حولها الالسة بعناية ..

وتوقفت سيدة أمام الصندوق ..

وألقى عسى يسأل علام :

— أعطنى بئكة تلج ..

وصرفه علام فى ملل قائلاً :

— بالله يا ولد .. لا يوجد تلج !

وجذب سيدة من ذراعها قائلاً :

— تعال يا سيدة اجلسى .

— لا أستطيع .

— لماذا ؟

— أى أحد يمكن أن يرانا ..

— وماذا فى ذلك ؟

— ماذا يقولون عنى ؟

— من هم ؟

— أى حد يمر ..

— ليقبل ما يقول ..

— وعندما تفتضح فى الحى ؟ ..

— ملعون أبوههم !

— ولكنهم سيلتقون أبونا نحن ..

— ولا يهلك !

— كيف .. وماذا تقول سيدى وسيدى حمدى ؟

— وهل ييمونك ؟

— طبعاً .. إلى أخاف أن أسهم ..

— ولماذا تسمينهم ؟

— لأنى .. لأنى ..

وترددت سيدة برهة ثم قالت :

— لأنهم يحبروننى أحد أفراد العائلة ..

وضحك علام ساخرا :

— هل نياتك يا سيدة .. أنت عندهم .. مجرد خادمة ؟

— ليس بالنسبة هؤلاء الناس .. إنهم أناس طيبون ..

— كلهم أساد .. وكلهم ولاد كلب !

— اخرس !

— غرست يا سيدة .. لا داعى للاتعمال .. المهم تعال تتكلم فيما هو أهم .

— قلت لك لا أستطيع أن أجلس ..

— إذن تعال تمشى ..

— أين ؟

وفكر علام برهة .. ثم قال :

— هل الساحل :

— وعندما يرانا أحد ؟

— يرانا أحد ؟ .. من هذا الذى يمكن أن يرانا فى الساحل ؟

— أى إنسان !

— لينطلق !

— نحن الذين سنطلق .. بعد أن تحدث فضيحة بمجلاجل !

— فضيحة لماذا ؟

— لأنهم سيقولون سيدة مرافقة علام .. هل مرضيك هذا ؟

— ولكننا .. مستزوج !

— إذن ننظر حتى نتزوج .. إذا كنا مستزوج ..

— ولكن المسألة تحتاج إلى أخذ وعطا يا سيدة .. لا بد أن تجلس سويا ..

المسألة لا تتم هكذا بحيث لرق .. هيا بنا !

— إلى أين ؟

— إلى الساحل ..

— الآن ؟

— ولم لا ؟

— لأن المقروض أن خرجت لمشوار عند البقال .. ولا أستطيع أن أتأخر ..

وبدا الضيق على وجه علام ثم أشار إليها بيده فى بأس :

— طيب انتينا ..

— هل غضبت ؟

— ولماذا أغضب .. ليس فيك فائدة :

وقبل أن تواصل سيدة سيرها التفتت إليه قائلة :

— اسمع يا علام .. المسألة تحتاج إلى تدبير .. غدا سأخبر سيدتى أنى أريد

الذهاب إلى السيدة .. وعندما تسمح لى سأخبرك .. ثم أمر عليك لنذهب إلى

حيث نشاء .

وبدا الارتياح على وجه علام وقال متسائلا :

— ومنى ستأخذين الإذن ؟

— اصبر على حتى أدبرها .. لا بد أن أختار يوما تكون فيه السيدة خارجة فى

مشوار .. ولا يكون عندنا غسيل أو تنظيف !

ومرة أخرى بدا الضيق على وجه علام وقال فى بأس :

— موت يا حمار لعامة ما يهلك العليق !

وضحكت سيدة وهى تصرف قائلة :

— قل للحمار يصبر .. كل شيء بأوانه !

— صبرنا كثير يا سيدة .

— الذى يصير ينزل يا علام .. عليك بغافية .

— الله بعافيتكى .. لا تنجى على .

وعادت سيدة إلى البيت . وبفسها إحساس بالشوة ..

مغامرة توشكين أن تخوض غمارها يا سيدة ..

حقيقة أن علام ليس هو المخلوق المثالي للمغامرة .. ولكن من أمامها سوك ..

إذا لم يكن علام .. مرضيا .. فإن المغامرة في حد ذاتها محتمة .

وبقى عليك أن تدبرى وسيلة الخروج ..

ولم يغل الانتظار .. بعد بضعة أيام .. كانت السيدة تتأهب للذهاب إلى الروضة لزيارة أقارب المرحوم مع سحبة والعمة .. وكانت سيدة قد انتهت من الغسيل والتنفيض .

وأقبلت على الأم تسألها في رجاء :

— هل أستطيع أن أذهب اليوم إلى السيدة ؟

— لماذا ؟

— لزور أم عطوة في الماوردي .. لقد مضت مدة طويلة لم أذهب إليها ..

وواجب على الإنسان أن يود معارفه القدامى .

وهزت السيدة رأسها :

— برضه واجب يا سيدة .. هل معك أجرة الترام ؟

— معى قرشان .

ومدت السيدة يدها إلى كيس النقود وأخرجت قطعة من ذات القرشين

قائلة :

— اخذى هذين القرشين فقد تحتاجين إلى شيء بالإضافة إلى ما معك .

— كتر خورك يا ستى .

ما أسهل الكذب يا سيدة ..

لقد خرجت الكذبة .. من شفتيك .. في عتبي البساطة . وبغير أى تأنيب

ضمير ..

ولماذا تأنيب الضمير .. هل هناك سبيل سواه إلى ما تريدته ؟

ولو أنك قلت لها .. سأذهب للقاء علام وأخشى معه عند الساحل فماذا يمكن أن يكون ردها ؟

هل تقول لك « برضه واجب يا سيدة » ؟

إن الخروج للقاء علام .. في نظر سيدة .. أمر واجب .. وإلا فكيف يمكن أن تأخذ معه وتعطى .. من أجل الزواج ..

ولكنه واجب في نظرها .. وغير واجب في نظر الغير .

إذن لتتص من أجل الذهاب سببا يمكن أن يجعل ذهابها واجبا في نظر الغير كما هو واجب في نظرها .

ولكن القرشين اللذين أخذتهما .. هل أخذهما واجب أيضا ؟

إنها تستطيع أن ترفض أخذهما .. ولكن من الأفضل أن تقيهما معها .. وإذا كان القرش الأبيض يفتح في اليوم الأسود .. فالقرشان الأبيضان بلا جدال أكثر نفعا .

وأعدت سيدة القرشين .. وارتدت ثيابها .. وانطلقت إلى علام .

وأنى علام ما يده من عمليات بيع .. ثم سألتها :

— هه .. ما هي أخبارك ؟

— أعذت إجازة ؟

— متى ؟

— الآن .

وبسرعة أغلق علام صندوق الكازوزة قائلا :

— هيا بنا .

وكان الوقت قبيل العصر .. والشتاء قد أدير وبشائر الصيف قد أقبلت بسماء صافية تغوب نف السحاب البيضاء في صفحتها الزرقاء ونسمات بحرية لطيفة

تعمل نسمة باردة لا تلبث أن يدها دفء الشمس وسارت سيدة وقد بدا عليها الارتباك بجوار علام ، في شارع يكتمر بمخاض سور طوسون حتى شارع أبو الفرج .

وكان الطريق خاليا إلا من قتيات يلعن الحجلة وبعض نسوة افترشن عتبات الدور في البيوت الواطئة قرب شارع أبو الفرج .

ووصل الاثنان إلى دوران روض الفرج عند المدرسة الإطالية وانتهت سيدة إلى شارع كوبانية المياه قاتلة في حذر :

— الشارع هنا أقل زحاما .

وعبر علام عربة البطاطا الواقعة على ناصية الشارع وسألها :

— على مهلك .. حتى أشتري بطاطا .

وتوقف أمام العربة .. وسارت سيدة متمهلة في الطريق الذي بدا خاليا إلا من بائع قصب يرفع عقيرته بالصياح :

— سليم يا قصب .

ولحق علام بسيدة وهو يحمل البطاطا بين كفيه وناولها قطعة قاتلا :

— أئذ بطاطا .. نأكلها من الواد عوض ..

وعبر الأرض القسيحة المترية .. إلى الجانب الآخر من الطريق .. واستمرافي سيرهما حتى بلغا النيل .. وبدت شون الغلال والدكاكين المملأ بلبائس العسل الأسود .. وأشجار الباتسانس الجرداء تتشابك على شاطئ النيل ..

وقال علام :

— ما رأيك يا سيدة .. نأخذ قلوكة ؟

وترددت سيدة برهة وهي تنظر إلى مياه النيل في خووف وقالت هامة :

— أعاف .

— تخافين مم ؟

— من الغرق .

— لا تكوني عبيطة .. لقد تعودنا دائما أن نأخذ قلوكة للترهة .. حتى جزيرة الوراق .

وهزت سيدة رأسها في قلق قاتلة :

— أنا لم أنزل إلى البحر من قبل .

— لا تخافي .. ستكون ترهة بمتعة .

وبدت القوارب الصغيرة مشدودة بالحبال إلى الشاطئ .. تتأرجح على صفحة المياه .. وعلى حافة الشاطئ جلس مراكبي عجوز بلوح بيده مسائلا :

— عايزين مركب ؟

وعاد علام يستحث سيدة :

— ماذا قلت يا سيدة ؟

— قلت لك أعاف .

ورد علام في ضيق :

— إذن تجلس هنا على الشاطئ .

ولم يكن الشاطئ خاليا ..

كان عمال الشون يروحون ويجهون .. وعربة ترمس قد كدس الترمس في وسطها ووضع الفول المقل على صينية في مقدمتها .. ورصت الفول على حافتها والتكأ بالتمتع على بعدها .. وأخذ ينظر إليهما نظرات فاحصة وهو ينادي مغنيا :

— طلعت اجبيه ترمس لقيته لوز .

ثم يردف بلهجة غزل وهو يتفحص جسد سيدة :

— يا لوز بلشتا يا حلو يا لوز .

وعلى مقربة منه جلس بائع سميط بخوار قفصه المستدير الذي علق الكحك على الأصابع الخشبية البارزة من حافته ..

وأحس علام بخرج من العيون المتطلعة إليه .. وخشى من ألفاظ السخرية التي يمكن أن تناله في وقته هذه والتي تعود هو أن يطلقها كلما رأى رجلا يسير مع

المرأة بطريقة مريبة مثل « سيب العجبة يا خروف » .
وجذب سيدة من ذراعها قائلاً :

— هيا بنا نسو ..

واصل الاثنان سيرهما على الشاطئ حتى بلغا المقاهى المواجهة لمسارح روض
الفرج .. كازينو ليلاس .. وكازينو مونت كارلو .. وكانت أعمال
الإعداد واللباس على قدم وساق ..

وكانت مشاعر الحيرة والقلق والخوف تغلب على نفس سيدة .. لم تكن
تعرف ماذا تريد .. ولا ماذا تقول ..

بل ولا كانت تعرف لماذا أتت إلى هنا مع علام ..

إذا كان يريد أن يتزوجها فلماذا لا يفعل ..

لماذا كل هذه المقدمات ..

قد يكون هذا هو ما يفعله العشاق .. ولكنهما ليسا بعاشقين ..

.. وهى من أجل هذا لا تجد له طعاماً ولا تحس منه جوعاً ..

إنها لا تريد شيئاً ..

ولا تشعر برغبة فى أى شيء ..

أكلت قطعة من البطاطا وسدت نفسها ..

فيما مضى كان الطعام .. يشكل لديها رغبة .. تحس بجوع فى التفكير فيها
والحصول عليها ..

ولكنه الآن لا يشكل عندها أى إحساس أو متعة .. حتى السيط والجينة ..
والبيض التى كانت إحدى أمنياتها .. قد عبرتها دون أن تشعر برغبة فيها ..

والنيل والثمة الحلوة .. وكل ما حولها من مناظر جميلة .. لا تصل إلى
نفسها صافية .. بل يشوبها القلق والحيرة ..

وأحست برغبة فى أن تحسب ذراعها من يده ثم تنطلق عائدة إلى البيت ..

ومع ذلك .. لم تملك إلا أن تسو ..

هذا هو طريقك الخاص يا سيدة ولا يجب أن تنكصى عنه .. وما دام علام
يرى أن هذا هو السبيل إليه فلتخوضيه معه ..

وتلقت علام حوله فلم يجد أحداً فقد يده حول خصرها وضمها إليه ..

وأفلتت سيدة نفسها من ذراعه قائلة فى جزع :

— ما هذا الذى تفعله ؟

ومن جديد مد علام ذراعه وجذبها إليه قائلاً :

— اعقل يا سيدة .. ودعى لعب العيال هذا ..

— ماذا تريد ؟

— أريد أن أضعك .. وأهلك ..

— هكذا فى الطريق ..

— وماذا فى ذلك ..

— والناس ؟ ..

— ليس هناك من يرانا ..

والتفتت سيدة حولها فى حذر .. فأبصرت أحد عمال الكازينو وهو يشير إلى
زميل له ..

وجزعت سيدة ونبرت علام قائلة :

— ابعد نفسك .. الرجل هناك قد رآنا ..

والتفت علام حوله فأبصر الرجل يصيح به ساعراً :

— حييك يا أغنيا .. هل ترى لنا قرونا ؟

وضغط علام على ضروسه فى غيظ ثم جذب سيدة من يدها عائداً وهو
يقول :

— قلت لك نأخذ فلوكة .. فلم يصحيك ..

وانجبه بها فى حزم إلى المراكبى .. وهو يردف قائلاً :

— سنأخذ فلوكة .. لا تخشى شيئاً .. ليست هذه أول مرة أستاذج فيها

مركبا .

وسارت سيدة معه مستسلمة .

وتوقف علام أمام المراكبي قائلا :

— بكم الساعة يا ريس ..

ونفض الرجل العجوز من مكانه هابطا من المنحدر إلى أسفل :

— لا يوجد فرق بيننا .. تفضلا .

وعاد علام يسأل ملحا :

— معنى بكلم ؟

— بثلاثة فروش .

— كل مرة تأخذها .. بقرشين .

— هذه مراكب جديدة .. و ..

— قلت لك بقرشين .

وأخذ الرجل في وضع المعبر الخشبي على حافة أحد القوارب ومد علام يده في

جيبه وأخرج الحافظة وأعطى الرجل قرشين قائلا :

— الجاديف مربوطة جيدا .

— لا تخف .. تفضل .

وتقدم علام بخطو فوق المعبر متأرجحا حتى هبط في القارب .

ومد يده يتناول يد سيدة ليساعدها على العبور .

ووقفت سيدة مترددة وصاح علام يستحثها قائلا :

— يا فقه يا سيدة .

وقالت سيدة :

— أخاف أقع ..

— هاتي إيدك ولا تخشي شيئا .

ووضعت سيدة قدمها على المعبر الخشبي وغطت أول خطواتها فاهتز المعبر

تحت قدمها وأطبقت بكفها على كتف المراكبي العجوز وأمسك علام يدها

بجذبها نحو القارب .

وعبرت سيدة بضع الخطوات الموصلة إلى القارب ثم هبطت على أرضه وهو

يتأرجح ويهتز وقلبا يدق في عصف .

وصاح علام ضاحكا :

— خلاص .. انتهينا ..

ثم جلس على مقعده وأمسك يدي الجاديفين قائلا لها :

— اجلسي أنت عندك .. وامسكي بالدفة .

وردت سيدة خائفة :

— لا أعرف .

— أمسكي باليد الخشبية .. وعندما أقول لك يمين ادفعيها إلى اليمين وعندما

أقول لك شمال ادفعيها إلى الشمال .. هي حسية برما ؟

وجلست سيدة في مؤخرة المركب وقد أمسكت في يدها بالدفة .

وبدا علام يضرب صفحة الماء بالجاديفين ..

وشق القارب طريقه على النيل في هدوء .

ورويدا رويدا تلبد الجرع من نفس سيدة .. وبدأت تحس بالارتياح

والطمأنينة .

لماذا كل هذا الخوف يا سيدة .. إنها رحلة جميلة .. ستكتشفين بها طريقك

الخاص ..

(٢٤)

نزهة في قارب

انزلني القارب على صفحة النيل وعلام بهرب الماء بمعدني . وسيدة ممسكة
بمخبة الدعة في ايمان وحذر .

وأحد القارب يتباهد براكبيه على الشاطئ وعلى عيون أرقاء الشظعة وهبت
نسمة رقيقة تعادلت برودتها مع دفء أشعة الشمس المنحدرة نحو الحروب
ووسط السكون السائد إلا من صريرات اهداف يتناثر منه الرداء بين صبرة
وأخرى . لم نجد سيدة هناك ما يعث على الحروف الذي شد أعصاب
مهمتعين يا سيدة

هذه برهة في النيل ما كنت تحسب بها في حياتك من قبل
وهي فوق هذا .. حصوات في الطريق الخاص . بين معلقة مودك ناعمين
هيا بحريتك ونغارسين هيا سياتك .
والرجل الذي أمامك . والذي لم تشغله حركة القارب عن فحص جسدك
وتوحياته وتحسسها بنظراته كما تحسس البطيخة قبل الشراء .. يمسك بيده
مفتاح المستقبل .. يتمتع لك بابه .. ويدع به إليك .
هذا الرجل . يسر بك إلى بيتك الخاص . يبدى إليك فيه السلطان
والرعايا ..

ولكن ما الذي يمسحه ؟

لماذا لم يفعل حتى الآن

وما سب كل هذا التسكع

نأذ . لا يتزوجها ويتنى

لماذا قارب .. ونيل ..

لأنه يحبك يا سيدة .. ألم يقل لك هذا ؟

وهو يفعل كما يفعل العشاق .. يصحبك في برهة .. ويمدرك ويماجبك
هكذا يفعل العشاق ..

ولم يذن جعلت النزوهات المحسوبة .. والقوارب في النيل
لا بأس عليك يا سيدة . تجربة يجب أن تجربها . وأن تستمتعي بها قدر ما
استطعت ..

واسترخت بعدها فوق الدعة فاعترف القارب بمنة مهتف بها علام :
— شحال يا سيدة ..

واضطربت سيدة . وذهبت الدعة إلى الجنب أكثر معاد يصبح بها
— لا يا سيدة .. الناحية الأخرى

وحذبت سيدة الدعة إلى اليسار فاعتدل القارب وصاح بها علام .
— أنجل .. هيكلا .. الآن أصبحت مراكبية .

وعاد علام يضرب الماء بمعدنيه .

وما الأخيرة يا سيدة .. إلى متى سيظل سائرا ؟

وبدا الشاطئ الآخر يقرب بأشجاره ومدامحه المتناثرة على جزيرة الوراق .
وقالت سيدة متسائلة .

— إلى أين ستذهب ؟

— إلى الوراق .

— وماذا فعل هناك ؟

— تشتري قطة من العيط

— هل أتيتا إلى هنا لتشتري قطة . وهي ملء عربات البد عبد الدوران ؟ ..

— قطة العيط لما طعم آخر .

وقبل أن يبلغ القارب الشاطئ . ترك علام انحدافين ونهس متجهيا إلى

سيدة . وأخذ القارب يتأرجح تحت وقع أقدام علام . وتلك الحروف سيدة مهتت .

— اتقد يا علام حتى لا ينقلب القارب .

— لا تخاف ..

ووصل إليها علام وجلس بجوارها . وأحاط حصرها بدراعه ببساطة وصمها إليه . وامتت سيدة من دراعه بحركة مقاومة لا إرادية فاهتز القارب وصاحت جرة :

— يا مصيبي .

وعاد علام يقترب منها قائلاً .

— احقل يا سيدة .. وإلا انقلب بنا المركب ..

— اعقل أنت .

— اهبطي إني وأنصتي إلي .

وهدأت سيدة بجواره وأنصت إليه قائلة :

— ماذا تريد ؟

— نريد أن نجلس سوياً كأحباء .

وردت مستسلمة وهي تركز إلى صدره :

— ها نحن جالساً كأحباء .

ومن جديد عاد يلف دراعه حولها . ولكن كنه ارتفعت هذه المرة حتى أبطقت على صدرها ..

وبعنف جديد نفسها من قبضته واهتز القارب هزة شديدة .. فصاح علام .

— إيه يا بت ده . اتجنسي ؟

وتحدثت عليه سيدة :

— جن لى لمحبطك . اوعى تقرب إيدك مرة ثانية

ويده علام كأنما يدل مريداً من الجهد لتتسكك بأهداب الصبر وقال كأنه يحدث طلعة صغيرة :

— لماذا تدعيني عليك يا سيدة .. أنا أحبك ؟

— لا يهم .

— وسأ تزوجك

— متى ؟

— لما يأتى ربحا . ويتغير الحال .

— إني عاتظر حتى يأتى ربحا . ويتغير الحال .. وتزوج .

ونظر إليها علام في غيظ وصبره يكاد ينفد :

— ألن تتركيني أحضلك ؟

وبإصرار أجابت سيدة :

— لا

— لماذا أتيا إلى هنا إذن ؟

— أسأل نفسك .

وزفر علام زفرة ضيق ثم عاد إلى مكانه من المجدلين وواصل السير إلى شاطئ الرواق الذي لم تكن المسافة إليه بعيدة .

وأحست سيدة بأنها أغصبت علام ..

ماذا تفعلين يا سيدة .. هذا عصب وانصرف .. وأعلق في وجهه صاب الطريق إلى الحرية والسعادة .. ومنطقة النفوذ ؟

إن عليها ألا تنصبه ..

وفي الوقت صعب عليها ألا تنصبه . ما يكفه . وما لا يحوجه إلى اجتياز باب الزواج .

لقد سبق أن سمحت عباس . ما أراد . بقرش

كان وقد اكثرت .. ولم تكن تعرف أن ما تنصحه مقابل له شيء ذو قيمة

وقفة بجوار الجدار في غرفة المراح وثوب يرفع .. وجسد عباس على صدرها يضع دقائق .. وينتهي الأمر .
ولكن الحال .. يختلف الآن جد الاختلاف
لن تقبل ثما .. لأقل من الزواج ..
ولكنه عرض الزواج ..
ومن يضمن لها السداد ؟
من يضمن لها ألا يكون العرض مجرد تغيير وجر وجل ؟
يجب أن تكون حذرة ..
إن ما لديها لم يكن له قيمة في حد ذاته .. لقد سبق أن سمته لعباس .. وكان
يمكن أن تنحه للمكوي .. عندما احتاجت إلى بصقة فروش مه .
ولكنه الآن .. بما يمكن أن يقدمه .. يبدو شيئا هلهة ..
ولن يفر بها علام .. ولا عشرة كعلام ..
وعاد علام ينظر إليها .. وهو يصرب الماء بمحاذية مصيبة وقسوة . وبدت
نظرته .. ليست مجرد تحسيس .. وإنما اعتصار لتعويجات جسدها ..
وبادلتها سيدة نظرات تحد ..
لن تأخذ ما تريد يا علام . إلا إذا دفعت الثمن مقدما .
ليس قبل الزواج يا علام .. هذا الشيء الذي تشيئ إليه .
يبنى وينك يا علام .. ورقة المأفون .
اندفعها .. وعذ ما تريد .. أما قبل هذا فلا .
ورسا القارب على الشاطئ وألقى علام بالهاتف جانبا .
ثم نهض من مكانه واقترب تجاه سيدة ووقف أمامها ونظرته تلهم جسدها
وقال متسائلا :
— تنزل ؟
— إلى أين ؟

— تأكل قه وغبار من الشيط ..
— وماذا يقول صاحبه ؟
— تعطى له قرشا .. وتأخذ ما تريد .
وهبت سيدة . تنمسن موقع أقدامها في القارب فائلة :
— كيف سأخرج ؟
— انتظري حتى أخرج أنا وأجذب القارب إلى الشاطئ جيدا ثم أتناول
يدك .
وقر علام إلى الأرض ثم جذب القارب حتى استقر جيدا على الشاطئ
الطيني المنبسط ثم هتف فائلا :
— هيا .
ونظرت سيدة إلى عبي علام . وكانت نظرات الرغبة تشتعل فيها .
وترددت سيدة برهة .
هل يستطيع أن ينال ما يريد .. برضاها ؟
وأين أستانها وكفهاها ؟
إنها ستمرقه .. لو حاول أن يأخذ شيئا برحمتها ..
وملأها إحساس بالتحدي والخصومة .. ولكنها ما لبثت أن هدأت منها .
لماذا الخصومة يا سيدة ..
إنك تستطعين أن تروضيه ..
إذا كان قد عرض عليك الزواج . فليس من مصلحتك أن تصديه
لا تعطيه .. ما يريد .. ولكن أعطيه بعضه .
فليس ما يريد .. هو كل شيء .
ثم إنك لا تعرفين ما يريد ..
وماذا يمكن أن يريد .. سوى ما يريد الرجال ؟
على أية حال .. اصبري عليه . وإذا كان لا بد لك من أن

تخطفني بما يحرم عليه أن يطرق باب الزواج . فإن عليك أيها . أن تخفيه .. ما يشوقه لأن يطرق الباب .

أجل يا سيدي . كوني امرأة . لا تصديه . فيمر .. ولا تخفيه فيستكفي . واعتلت سيدي حافة القارب ثم مدت إليه يدها وولت على الأرض ولم يضع علام الفرصة .. فلقاها بين ذراعيه .. وعصها إليه بشدة ..

وأحست سيدي بأنفاسه تسلم وجهها .. واستسلمت برهة لشهيقه تنحسنا وجهها ورقبتها وأحست بأحدى يديه تغلت حصار ظهرها وتند لتجس ساقها . فتخلصت منه بدفعة عنيفة في صدره كادت تلقيه على ظهره واندهشت تملو على الشاطيء .

وأفاق علام من مفاجأة الدعة . بعد أن أحس أنها استرخت على صدره واستسلمت ليديه .

وصاح بها في غيظ :

— يا بنت الكلاب .. والله ما أنا عاتقتك .

ثم انطلق يجري وراءها وسط الحقل .

وحدة برز من وراء الأشراس المحصره رجل يرتدى السروال الطويل والصدري ويملك بفأس في يده مهندا صائحا :

— عندك صك له .

وتجهل علام وهو يلتقط أنفاسه وصاح وهو يحاول أن يتالك رمام نفسه :

— السلام عليكم يا حاج .

— وعليكم السلام .

— وحياء أبوك .. كنا عابزين شوية خيار .

وأجاب الرجل في هزيمة كأنما يعرف أنها مجرد حجة من علام للعث في الحقل .

— الخيار لم يطرح .

— عندك قناه :

— بهما .

ومهمم علام ببعض كلمات غير معهومة . وكانت سيدي قد توقفت فالحق بها قاتلا والعلاح يرقبهما في تحد :

— أتصيحك هذه العصايلح ؟

— قل لعصك

— ألعصك تدعيني في صدري ؟

— تستحق ما جرى لك .

— لماذا ؟

— لأنك لم تتأدب .

— وماذا فعلت ؟

— أنت تعرف ماذا فعلت ..

وأمسك يدها وضغط عليها منفرأ .

وقالت سيدي في تحد صارم :

— ائلم يا علام .

— وماذا ستفعلين إن لم أئلم ؟

— سأفزع عليك الحلق .

— لا يوجد هنا حلق .

— وهذا الذي يقف أمامك ؟

— لا يعني

— لا يعني ؟

— أجل لا يعني

— هل تريد أن أريك يعنيك أو لا يعنيك . أنت تعرف الفلاحين وغونهم .

لن يتردد إن استجذب به من أن يصربك بهأسه

— إذن فأنت مهذب؟

— أنا أتصحبك بأن تفعل .

— وإن لم أفعل ؟

— ستجد من يفعلك .

— إذن أصبر على حتى تعود .. سترى ماذا تستطيعين أن تفعل في

الركب .

— سأعرفه بث .

— ماد تفعلين كل هذا .. ماذا تفعلين بعصك ؟

— لا شيء . ولكن ليس كل الصبر الذي يؤكل لحمه

— وماذا لا تفعلين هذا بكل الدين يعزفون في الطريق . ملكك وغيره

— كنه كلام .. ولكن لا يحسن أحد أن يمد يدي يده . وإلا قطعها .

— وصفت علام على صروحه في شيط وقال سائرا :

— لماذا تفعلين إذن أنا حصر ما إلى هنا ؟

— وردت سينة يساعة :

— لكني بشم الهو .

— وهر علام رأسه ومهمهم في سحق فائلا :

— هيا بنا قبل أن ننشئ الساعة .

— هيا .

— ونجى الإنسان إلى الزورق . وما لبث أن قرر علام إلى دحله وتناول يدها ثم

جرها إليه

— ولم يحاول علام أن يقدم على محاولة أخرى بل أمسك بالهدايع وأخذ يصرب

الماء بعصبة وقد تجههم وجهه .

— وبعد لحظات قالت سيدة :

— أعصبت ؟

— ولماذا أعصبت ؟

— لأنني لم أطاوعك فيما تريد .

— أنت حرة تفعلين ما تشائين

— وصحبت سيدة لحظة .. وتخللها إحساس بأن الطير يوشك أن يهلك . وأن

جرعة الصيد قد تجاوزت المطلوب منها فقالت في صوت رقيق

— قل يا علام .. ماذا أعصبتك ؟

— ولم يجب علام .

— صادت تساعيل .

— هل أعصبتك أن أحاطط عن عيسى ؟

— ورد علام عليها بعد أن زال تطليب وجهه تأثر لمحتها الرقيقة .

— ولكني لست غريبا .

— من تكون لي ؟

— وتردد علام برهة قبل أن يجيب :

— أنا .. أنا . نحن أصحاب .

— ومن أجل هذا تبيع لك أنت تفعل ما تريد .. هل لك أخت ؟

— أجل .

— هل تقبل أن يعمل بها أي رجل ما تريد أن تفعل لي ؟

— ونحس علام أنها قادتة إلى فخ يدها وحاول أن يتخلص منه قائلا :

— ولكني لست مجرد أي رجل .

— إذن من تكون ؟

— أنا . أنا قلت لك إنني أر يد أن أتزوجك

— ولماذا لا تفعل ؟

— قلت لما يأتون رسا .

— وحتى يأتون رسا . ماذا تريدني أن أكون ؟

— يكون أصحاب .

— وتقبل روحك أن تفعل هذا الذي تريد منها . هل يمكن أن ترصده زوجة بعد أن تفعل ما تفعل ؟

وأحسن علام أن مضى الكلام وسيلة غير مجدية لما يريد . وهر رأسه في الأمر قائلا :

— انتهينا .. أنت وما تريدن .

وتركت سيدة مكانها وانتقلت إليه وجلست بجواره .. وقالت في لهجة رقيقة :

— عندما تزوج يا علام .. ويصبح لمايت .. ستفعل كل ما تريد .

ونظر إليها علام نظره الملتببة وازدرد ريقه .

وعاودت سيدة الحديث الرقيق قائلة :

— ألم نقل أنك تريد أن تتزوجني ؟

وأجاب علام :

— أجل قلت .

— وماذا يمنع ؟

— الظروف .

— أية ظروف ؟

— الزواج ليس سهلا . المسألة لا تؤخذ هكذا عسلا .

— لماذا ؟

— أب أعيش مع أمي وأختي وأخي مصور العرائش في المالية وروجه . وعيش عيش كالمسردس في شقة في النبعة ولا أعرف كيف يسع البيت لروجه ..

أدخلها عليهم .. بعد كل هذا .

ولم ترتح سيدة إلى الصورة التي رسمها علام بسرعة ليت مستقبلها وقالت ببساطة :

— ولماذا لا تعيش في بيت وحدنا ؟

— هل تظنين أن فتح بيت سهل ؟ ثم إلى مسعول عن البيت مع أعمى منصور ولا أستطيع بسهولة التحل عنه، وأنت تعرفين إيراد مسعول الكازورة في الشتاء . ولم تكن الصورة مشرقة ..

ولكنها مع ذلك . دفعت بالفكرة الموهومة . إلى إسكان التعميد . وكل شيء يبدو في بدايته ناقصا غير واضح للعالم . ولكن المهم أن يوجد .. وهذا الحديث دفع بالوهم إلى حيز الواقع

قد يكون الطريق متعبا .. وملها بالعرائش . ولكن يجب أن تسلكه .

وقالت سيدة وهي تزداد اقترابا من علام ووضعت كفيها على ذراعه :

— كله بيون يا علام . أنت من ياحية وأنا من ياحية .. والحياة تتبدل .

ولم تقل سيدة ماذا يمكن أن تبدل . ولكنها دون وعي .. كانت تستند إلى المصوغات التي جمعتها لما الت فاطمة

إن لم تضع في هذه الظروف فمضى تنفع ؟

ومع ذلك لا يجب أن تدفع بها صراحة إلى أول حاجة .. بل يجب أن تبقيها كاحتياطي لمركبة الحياة . حتى لا يطعن فيها أحد .

وعاد علام ينظر إليها .. وانتقل ذهنه من مشاكل الحياة التي دفعت به إليها سيدة .. إلى هذا الجسد الثر أمامه ..

ومن جديد راولته الرغبة

ومد يده فتحسس ركبتيها .

ولم تدفع سيدة يده ..

دعها يا سيدة . يمت قليلا . فلفل العيث يربل المرارة التي خلعتها قسوة الصدق في نفسه .

إنك على أية حال لا تريدن أن يقر منك .

واستندت يد علام من الركبة تحت الجلياب حتى أسفل المخذ .

وانتظرت سيدة مستسلمة تحجر إلى أي مدى يوى الاستمرار ؟

وأخست سيدة أن يده تستمر في الحركة .

فدعت خراجه بعيدا عن ساقها .

وسحب غلام يده ثم ضم سيدة إلى صدره بكتفا يديه . وأخذ في تقيلها وظلت سيدة مستسلمة حتى بدأ يميل بجسده عليها محاولا طرحها على أرضية

القارب فدفقته في إصرار .

وقال غلام محميا :

— وبعدى يا سيدة ؟

— وبعدى أنت ؟

— اعقل بقى .

— اعقل انت .

— إلى متى ؟

وصحكت سيدة وردت في شيء من السحرة وهي تكرر قوله :

— حتى يأذن الله .

وهز غلام رأسه في بأس وقال وهو يضبط صروحه :

— يا بست الصرم .. انا وانث والزمان طويل .

وعاد غلام يصرب الماء بمجدابه حتى وصل إلى الشاطئ .

وكان العجوز يقف على المنحدر في انتظارهما فيجذب القارب إلى الشاطئ

وربعه يحمل مشدود إلى أحد الأوتاد ويوصع المعبر الخشبي

وعادر الاثنان القارب متحدين طريقهما على الساحل عائدتين إلى دوران

روضى الفرج .

وإلى الطريق اشترى غلام فرطاسين من التمرى وأعطى سيدة أحدهما .. وهو

يقول :

— كيف سأراك في المرة القادمة ؟

— لا أدري .

— كيف ؟

— لأنى لا بد أن أدبر مشورا آخر للسيدة . وعبر مقول أن أدبره نص

شهر .

— سأنتظر شهرا آخر حتى تراك ؟

— هذا إذا استطعت أن أحصل على إذن بالذهاب إلى السيدة وحدى

— غير مقول .

— سأمر عليك كلما احججا إلى كازوزة .

— هل هذه طريقة للمقابلة ؟

— ماذا تريد سى أن أعص ؟ .. أنا أعمل عد ناس . هل أتراك العمل ؟

وتبد غلام وهو يجده نفسه يمر إلى أشياء يجب أن يتحمل هو مسؤوليتها . ولم

يجب . فقد أحس . أنه يريد سيدة . ولكنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية

الزواج ..

وهي تملك مصوغات .

ولا شك أن المصوغات يمكن أن تفعل شيئا .

ولكن هل تستحق سيدة ومصوغاتها مسؤولية الزواج ؟ .. لم ماذا تقول أنه

وأخته . وأنوهه منصور .. وروجه ؟

ميسألوه عنها . فيقول حادمة . وهم لا يريدون كلهم . عن الحفم .

ولكن مع ذلك سيترضون عنها .. لأنها خادمة ..

وهو غلام رأسه في حيرة ..

ماذا لو سهلت الأمور يا سيدة ؟ .. ماد مو في القارب ؟ .. والمكان حال

ولا من فضولى ولا من رقيب .

وعاد يصور ما تحت الثياب ..

لا بد أن يكون شيئا عجيا . هالتياب لا تستطيع إحياء تعاصيله المتحجرة

افتروية . (نحن لا نزرع الشوك — جد)

كان يمكن أن يكون كل هذا على يديه ..

ولكن الغيبة تأتي إلا أن تعقد الأمور .

لقد عقلت .. بكلمة الزواج .. وأبت أن تركها ..

كانت غلطة منه أن يحرص عليها ..

ولكن بقوله .. ما كانت تمنحه هذا المركز الخاص ..

ما كانت تخرج معه . وتقصى الساعات بجواره في قارب الليل

فما من رجل هاك في الطريق إلا وبقارها بالكلام والظنات . وما من رجل

إلا ويمنى رقعة معها .

ولكنها لم تأبه لهم . ردت نظرهم بظرة . وكلماتهم بكلام . وعينهم

بعثت .. ولا شيء أكثر من ذلك .

الوحيد الذي اقتربت منه وأنست إليه هو ..

نادر ؟

ألسواد عيونك يا غلام ؟

أم لأنك هرخت الزواج ؟

والفتاة ليست سهلة .. إنها أخطر منك .. لقد اصطادتك يوعذك .. إذا كنت

تريد منها شيئا ؟ .. عاذع الناس .

والنفس الذي لوححت به هو الزواج .

ووصل الأتاني إلى الدوران . وكانت الظلمة قد سقطت وودع كل منها

صاحبه . بكلمة بسيطة مع السلامة . وفي بعض كل منهما مشاعر الذي أسي

جولة . رحت منها إلى الحركة . ولكن لم تنه الحركة . واهرقا . وفي بعض

كل منهما لحظة على جولة أخرى .

عادت سيدة إلى البيت لتجد سيدة قد عادت هي وصبيحة .. ولحقت العمة

مع كوثر الصغيرة . وحمدى مع أصدقائه في الشرفة يستندون .

وعلمت ثياب الخروج . وأخذت تواصل عملها المعتاد .. تسحق الطعام

وتعدده . وتنقع العسل لنعد

وتواتل أبيام الصغير نجر رحمة الامتحانات .

وايهك حمدي في المذاكرة مع أصحابه طلعت والشيخ حلمي وصلاح

ورعوف الذي كان يزوره من السيدة بين آونة وأخرى .

وتعددت لقاءات سيدة بعلام .

مرات تسدل إليه في الظهيرة .. ومرات تحظف الزبارة إليه خلال مشاوير

البقال والحضري والجزار .

ومرات تخرج للتشرع مع كوثر .. فحضر على الصندوق .

وأدى تكرار الزيارات واللقاءات .. إلى أن تتخذ العلاقات شكلا ملحوظا

للناس ..

وبدأ النمط بين سكان الحي . فمن بعضهم الخوض في مثل هذه العلاقة . من

الخدم والباعة . وأصحاب الدكاكين . ثم ارتفع النمط إلى أصحاب البيوت

الهيطة .

بدأ أبو الزيث حسى المكوجي الأهل بعلى رأيه في الواد غلام :

— هو يمسى . ما هيش غير غلام . طول النهار رابحة حانية عليه .

ويصرب الكوة في قاعدتها الخديجة يمتنع فاقلا :

— ما تعبرو ما يا خلائق ؟

وعوص البقال يصرّب كتما يكف وهو يقول :

— الواد غلام حابو ما على آخر الزم ؟ . والبي ان ما تلم لاسيح دمه

والشيخ عبد القادر المقرئ يقول لعلام :

— يا ولد اختشى ... ميرتلك مع البت سيدة فاحت .

في ذات يوم وحمدى يتجه إلى المدرسة ويلقى تحية الصباح على ملك بائع

القول وهو يتكلم على يد عرته هتف به ملك :

— والبي يا حى حمدي كلمة .

وأقبل عليه حمدي قائلاً .

— حور يا ملك ؟

— حور يا سي حمدي . البت سيدة رودينا حتى .. طول النهار عند الولد .
علام بتاع الكازوزة .. افرصوا عليها شوية لاحسن الناس بدأت تتكلم .

وأحسن حمدي بالضيق وقال للملك في انحصار :

— حاضر يا ملك .. أنا حاشوف الموضوع .

وقال ملك مختلراً :

— أنا متأسف يا سي حمدي .. لأني تدخلت في الموضوع .. ولكنكم ناس
طيبون وسركم في الحى رى المسك .. وما احشيت حد أبداً بمسكم .

— كتر عورك يا ملك .

وقبل العصر أقبل عطا الله بالبح الحار يحمل المنطاس على كتفه ويهرول مجلباه
المغطى وناقته المكبوسة على أدبه . وأفرغ ما بالمنطاس في الصعيحة ثم وقف
أمام السيدة متردداً .

وقالت الست فاطمة :

— الحساب يمدني يا عطا الله .

— في بيته يا ست .. أما لا ألق من أجل الحساب . ولكني فقط كنت أريد أن
أقول لك شيئاً ..

— ماذا يا عطا الله ؟

— البت سيدة .. زودتها مع علام .

— لراي ؟

— الناس بدأت تتكلم عيها .. أنا بعسى رأيها كم مرة عند الساحل .

— عند الساحل !!؟

— أنطس في نظري . شفتيم ..

وصمت عطا الله برهة ثم قال مختلراً :

— لا تأخذيني يا ست .. ولكني وجدت من واجبي أن أعطيك فكرة .. أنا
أحبر نفسي واحداً من الأسرة .

— طيباً يا عطا الله .. كتر عورك .

— ربنا يخليكي لنا يا ست .

واتصرف عطا الله ..

ولمحت الست فاطمة بالضيق والغضب ..

كانت تكره السر للعوج .. والحال الملهبط .

ولم يصعب عليها أن تصدق ما قاله عطا الله .. فقد أصبحت سيدة كثيرة
المخروج .. كثرة التأخر عندما تدعبل إلى أى مشوار .

ولم تكن سيدة تعود من الخارج حتى يادها السيدة وقالت لها في حرم :

— اصحى يا سيدة .

وتوجست سيدة خيفة من لهجة الست فاطمة الصارمة وردت في صوت
مضطرب :

— نعم يا ست ؟

وبخبر لف أو دوران وجهت إليها السؤال المباشر :

— انت بيتك وبين علام بتاع الكازوزة شيء ؟

— أنا ؟

وبخبر من الضراوة سألت السيدة في حدة :

— ردى .. نعم .. لم لا ..

وصمتت سيدة برهة قبل أن تخيب قائلة في صوت متردد :

— أصله .. أصله .. قال لي انه عايز يتجوزني ..

— ولماذا لم تخبريني ؟

— لم أعرف إذا كان جداداً أم لا ؟ ..

— إذن سأعرف أنا .. كان يجب عليك أن تخبريني . بدلاً من أن تستمرى

على لقاؤه وتجمع بمسك وتجعلها معك مصعة في الأقواء .

وأظنت من الشرفة هوجدت عرور صبي الخصرى يقف بالباب فقالت له :

— اسمع يا عرور .. لوصل انده لى علام . بتاع الكارورة .

وانطلق الصبي ينادى علام ..

ووصل حمدي ليجد أمه وقد بدا عليها الغضب فساءلها قائلاً :

— ماذا بك ؟

— لا شيء ..

ووجد سيدة تقف وقد بدا عليها القلق والحزن وقال في هدوء :

— هل أعبروك من سيدة ؟

— من قال لك ؟

— ملك بالبح الفول .

ونظرت الست فاطمة إلى سيدة لائمة وهي تقول :

— انصبر عليكى .. جعلتنا مضغة في أفواه الناس .

وبعد لحظة أقبل علام من الشارع ووقف بباب البيت

(٢٥)

فاتحة سيدة

وقف علام أمام الست فاطمة وقد بدا عليه القلق .

وأثقت عليه فاطمة نظرة قاحصة .. وصحته بها في كلمة أمام سيدة ..

كانت تذكر أن سيدة لا بد أن تفارقهم إلى عاجل أو آجل .

سواء طرأ قصتها بهم سيدة . وهي بكل ما بها من حساسات ومساوى

قد ارتبطت بهم .. لا تعرف أحدا سواهم .. لا تسأل من أحد ولا يسأل عنها

أحد . مقطوعة كما يقولون من شجرة . استكانت إليهم .. وطمأنوا إليها ..

حتى أصبحت جزءاً من الأسرة ..

ولم يكن التسليم بفرقتها والاستعاء عنها بالأمر السهل ..

ولكن فاطمة كانت تعرف جيداً أصول الأشياء .. وطريق سيرها .. وحتمية

تطورها . وكانت تعرف أن من الميث مقاومة حركتها الطبيعية . حتى ولو

كانت ضد مصلحتها ..

كانت فاطمة .. على أميتها .. حكيمة عاقلة . حارمة صارمة .

وكان روحها . على كل قراءاته واطلاعه .. يتنصع لأحكامها .. ويسلم

بصدق نظرتها .. وسلامة حكمها ..

وكان حمدي رغم صباه .. ينتقنها .. وحرماً .. يحترم تفكيرها .

وآراءها .. ويتنصع لإرادتها وتديروها .. ونفس حمدي ما يحملها قلبها من حو

وقدرة على التضحية .

ورغم إحساسها بفرط حاجتها إلى سيدة .. فقد كانت تنتظر اليوم .. الذى

تعارفهم فيه .. كأمر مسلم به .. وكانت ترجوها .. بإحساس الأم من عبيءها

الراحة وسخر كما كانت تأمل أن يدير الله لها من يعوضها عنها
ولم تكن تتوقع أن يجرى ذلك اليوم المتعطر بهذه السرعة . ولا كانت تعرف من
أين سيدير لها العدل .

لقد كان ما يشعل باله هو رواج سميحة ابنتها . أقارب من بعيد يتقدمون .
ومعارف يتحدثون .. وهي تشاور سميحة في أمرهم .. وسميحة تعرض لأن
الوقت لم يحن بعد . ولأنها تحس بمدى ارتباطها بأبها وأخوها .. ومدى حاجتهم
إلى الترابط والتكاتف لمواجهة الحياة بعد موت الأب .

وكانت دائما تأخذ سيدة باحزم .. إذا ما تأخرت في السوق .. وكانت
تبرها .. عندما تجدها قد أطالت الكلام مع أحد الباعة .. أو حاولت أن
تستجيب لمزاحه

ولم تكن تساورها الريبة في تأخرها .. أو مشاويرها لزيارة معارفها في
السيدة ومع ذلك فقد كانت دائما توعيا .. وتحذرها من أولاد الحرام .
وعندما سمعت حديث عطا الله بالبحر الحار .. عن أقارب الناس عن سيدة
وعلام .. كان يمكن أن تبرها .. وتغفرها .

ولكن عندما قالت سيدة بأن علام قد سألهما الزواج . أحست بمنطقها
الهاديء .. أن المسألة لا يحسمها للعصب .. أو البهر والرجز .. والتهديد
والتحذير . وأن أفضل طريق هو أن تستكثمها من أصولها . وتواجهها
بساطة وعقل .

إن سيدة لم تنكر ما يروى من شائعات عما يبها وبين علام . بل وددت
باختصار أن الرجل قد سألهما الزواج ..

وهي بلا شك . لم تنكر من سؤاله .. وإلا لما صلت معه ما أثار عيا الشائعات
ولما رددت عليها طلبه ببساطة كاختدار عما يقال .

إن الشائعات التي رددتها أهل الحى .. والتي نقلها عطا الله ، والتي أكدها
حمدي نقلا عن ملك بالبحر المولى ..

قد ردت عليها بأن علام قد سألهما الزواج ..

هبل هو حقاً يريد الزواج منها .. أم هو يبحث بها ؟

للمسألة يحسمها ببساطة . علام نفسه وهو يقف أمامها مترقياً في قلق .

ماذا حدث !!! ماذا تريد من السيدة ؟ إنه يحرف صراحتها وحرمتها .. وهو

يحشأها ويحرمها . كما يحشأها الجميع ويحرمونها ..

تري ماذا عرفت منه ؟ .. وماذا قالت سيدة ؟ ..

وبدون لف .. أو دوران . وجهت إليه الست فاطمة السؤال البسيط .

— اسمع يا علام .. هل تريد أن تتزوج من سيدة ؟

وكان علام قد أعد نفسه للرد على أشياء كثيرة .. يمكن أن يتوقعها ..

التهامات .. تحذيرات .. وكان يحاول أن يجد عددا لكل ما يمكن أن يتهم به .. من

لقاته سيدة .. وخروجه معها . ولكنه لم يتوقع أن يطلق السؤال مثل هذا

الأسلوب المختصر المباشر .

وازدود علام ريقه .

الحديث مع سيدة شيء يا علام . ومع هذه المرأة الخطيرة التي تبدو كوكيل

البائة .. شيء آخر .

مصت عليه شهور مع سيدة وأنت تراوع . وتحاول أن تقتصص منها ما تريد

أو يعضه .. ولم تمش في الأمور .. بتصيرة على ما قسم .. تحسبة مرة .. وقيلة

أخرى ..

والسيدة الخطيرة تواجهك بعين السؤال الذي سألتك إياه سيدة عشرات

المرات واستطعت أن تلعب بها وتدور . ماذا أنت فاعل الآن ؟ ..

رد يا علام

— أنا .. أنا . أصل . سيدة بنت حلال ..

وعادت الست فاطمة تنظر إليه في هدوء وصبر .. تنتظر أن يقول شيئا معيدا

وهو يتجلىح في كلمات .. لا تصح شيئا بالنسبة للرد المطلوب .

وسألت الست فاطمة السؤال مرة ثانية بلهجة أشد هدوءا :

— هايز تتجوز سيدة يا علام ؟

ومرة أخرى عاد علام يتلجلج قائلا :

— أنا أصل كنت بالقول . الواحد .. يعنى .. أصل سيدة .. فى الحقيقة .

ومظرت إليه سيدة فى عبط وهى تجده يتلعج الكلمات الحماة فى جوفه ويترثر بكلمات لا معنى لها ولا طعم ولا راحة .

صاحت سيدة فى غيظ :

— ألم تطلب منى الزواج يا علام ؟

ورد علام وهو يرفع رأسه فى أنفة :

— أجل طلبت .. لكن ..

وسألت الست فاطمة فى هدوء :

— لكن ماذا ؟

— الظروف .. والوقت ..

وبمرء من الهدوء قالت له السيدة وهى تسحب له كرسيا :

— اجلس يا علام .. اجلس .

وجلست السيدة وجلس علام بعد تردد .

وقالت السيدة فى برات واضحة :

— اسمع يا علام .. نحن أناس لا نحب العيش . ولقد جعلت سيرة الست مضعة

فى الأقواء . وإذا كانت الست قد حاولت فلأنك سألتها الزواج . وأنت

عطيت .. وهى عطفت .. لأن الزواج له طريق واضح مستقيم يسلكه الناس

الطيبون . وكان يجب أن تأتى إليها .. كأهل لها مسئولين عنها . إذا كنت تريد

الزواج منها .. وكان يجب عليها أن تلبسها بظليك . إذا كنت أنت لم تعرف

الطريق الصواب للقدم به . أما وهذا لم يحدث فللسألة مارالت مطبوعة .. المهم

هل أنت تريد الزواج حقيقة ؟ إذا كنت تريد المرواج . وإذا كانت هى

تريدك فليوفقكما الله . وكل شيء يمكن تدييره . البت لا تريد شيئا

سوى السر والمعاملة الطيبة .

وصمتت الست فاطمة لحظة ثم أطلقت تسيده قصيرة وأردت قائلة :

— أما إذا كنت تريد مجرد العيش ..

وأفسر علام أن عليه أن يقول شيئا حاسما يرد اعتباره .. ويحدد كرامته .

فأجاب بلهجة محلها مسحة غضب :

— نحن لا نعيش يا ست .. نحن نعرف ربنا .. وعندنا ولا يا ..

وأنقضى علام على سيدة نظرة مسح بها بطريقة حافظة لمناطق الإغراء ..

هذا كله يمكن أن يكون تحت أمرك .. يمر حاجة إلى مركب فى النيل ..

ويعبر تسكن فى الخوارى والشوارع ولا خوف من نظرات المتطصنين ..

وبهديات من أصحاب الدماء الحماة .. المتلهمين على الدعاى عن الشرف فى

الطرقات ..

سيكون .. ملكك . تلتهب منه ما تشاء .. دون أن تصدك صاحبه .. أو

تأتى عنك أو تمنع .

لماذا تردد يا غبي ؟ ..

ليس مطلوباً منك شيء ..

فكل شيء كما قالت السيدة الطيبة .. يمكن تدييره ..

والبت لا تريد .. سوى السر والمعاملة الطيبة ..

أما المعاملة الطيبة .. فأمرها سهل .

أما السر فيمكن تدييره فى بيتهم ..

يمكن أن تعيش مع أمه وأخواته . هو لن يدفع شيئا . وهى لن تخسر شيئا

وكتلك لن تخسر لمة وأخواته أى شيء .

وهو على أية حال .. لا بد أن يتزوج فى يوم ما .

ولن يجد أسهل .. وأرحص . من هذه الريغة ..

ولكهم قد يعترضون .. لأنها خادمة .

ملعون أبوه ..

وس يكونون هم ؟ .. سلالة الأمراء ؟!

أبنت .. تعجبه ؟!

صدرها .. وظهريها .. وجسمها على بعضه .. ولا أجدع رقعة في

السيا .. ووجهها .. لا بأس به أبدا .. صبح .. وبشوش .. ثم عندها ..

مصوغات .. لا تملكها .. أسره بأكملها ..

ماذا يريد أكثر من هذا ..

توكل على الله يا علام .. وألهم ولا تتردد .

وقال علام وهو يهر رأسه في ثقة مكملا حديثه للست فاطمة :

— أنا رجل جد يا ست فاطمة .. وأنا أريد سيدة على سنة الله ورسوله .. وإذا

كنت لم أقدم .. فألن كنت أنتظر إذن الله .. وهرجه . وإذا كانت سيدة لا تريد

سوى السر والعمامة العلية .. فأنا لا أريد سوى بنت الحلال التي تستر وتستر .

ونظرات إليه الست فاطمة نظراتها الفاحصة وبدا الرجل أمامها وكأن نظراتها

تلقفه بكفة ميران . ونحاول أن نضيف إليه شيئا يرجعه .

هذا الرجل ليس به ما يعبه .

وإذا كان قد أثار كلام الناس حول سيدة .. فيجب أن ينتهي هذا الكلام ..

إما بأن يكف عن مشاغلها .. أو أن يتزوجها .

وهي لا تنص أبدا .. أن يقطع صلتها بها . ويكف عنها ..

إذن لم يبق من حل قاطع لوضع حد لكلام الناس . وإنهاء العلاقة التي

أثارتها .. إلا بالزواج .

والرجل يتقدم إليها جادا .

وهو ليس عواظيا .. ولا مجرما .. ولا نصاها ..

والذي يمكن أن يتقدموا إلى سيدة لن يكون غيرا له

والزواج قسمة ونصيب .

وقالت فاطمة متسائلة .. محاولة المزهد من استكشاف الرجل وتقويمه :

— وكيف ستعيها ؟ .

— من مهر الرزاق .. ربما كريم .. وأنا لست عواظيا .

— أعرف ذلك .. ولكن أين مشكها ؟

وتردد الرجل برهة ثم قال :

— نكح مع أهل . حيث أسكن .. حتى يديرها الحلال .

— أنت تعرف أن الحياة ليست سهلة .. بكرة تنجب أولاد .. والعيشة

تتفد .

— يفرجها ربنا .. يا ست .

و لم تدر الست فاطمة ماذا تقول بعد ذلك ..

إياها لا تستطيع أن تحرم . ماذا يمكن أن يكون أمرها معه ..

الرجل ليس به .. ما يصد أو يهر .. أو يخيف ..

وإذا كان سيئا .. فهي لا تعرف كيف .. ولا تعرف من الذي ليس بسىء من

يستفدون إلى سيدة — إذا تقدم إليها أحد — حتى تستطيع أن تحاربه .

إن مصير الفتاة في عقدت يا فاطمة .. وليس بغفر الله لك أى تقصر في حقها ..

وسرور لك في ابتك .

ولكنك لم تقصرى في حقها . وعليك أن تبني في أمر مستقبلي برأى حاسم

ولا تستسلمى إلى الرغبة المريحة في الاحتفاظ بها من أجل خدمتك لأطول مدة

ممكنة ..

والمستقبل بيد الله .. ويدها هي .. صاحبة الأمر . وهي ليست صغيرة .

وهي تعرف أين صالحها ..

وليس أمامها بعد ذلك إلا أن تسأها .

ونظرت إلى سيدة وسألتها ببساطة :

— ومارأيك يا سيدة ؟

وأطرقت سيدة برأسها .. وأجابت بالرد التقليدي :

— أمرك يا سيدي .

وفتح الطريق الخاص أمامك يا سيدة .

مدى قدمك إلى أرضه .. وأطرقها بثقة واحتفاد ..

أنت تخطين يا سيدة .. كبقية بنات الناس .. وهذا تقرأه فاحتك .. ويكتب

كتابك .. وترعين في ليلة الدخلة .. بريطة ورد مبلطة .. كما دخلت عواطف بيت

الشيخ زكي في حارة الماوردي ..

تعلق الأعلام والطبخ الرجاعي وبعرش الزمل الأصفر . ونسحق لك

الطبول وتصدح الموسيقى .. وترقص العوالم ..

أعقول هذا يا سيدة؟ ..

أنت ؟! .. تدق لك الطبول .. وتمزق الموسيقى ؟

هل يقدر علام على هذا ؟

هل يملك نفوذ الفرح ؟

ليس مهما :

أى شيء يقضى ..

المهم هو التحول العظيم في وجودها ..

الخروج من هذا القالب الذي جمدت فيه حياتها .

البقطة المبكرة . وتلقى الأوامر . والخروج لشراء العول . ثم الكس

والسح والعسيل . والحركة المستمرة لتأخذ هذا .. أو تنحصر هناك ..

ستتجلى الحركة بأمر الغير ..

ستقطع النجم الزمرس . الذي لارم فاعا .. عند أن وعث في هذه

الحياة . والذي مهما سلس ورق في أيدي هؤلاء السادة الطيبين .. فهو لجام .

لا يمسحها مرصة الانطلاق . والبرطعة .. والجرع . ولو في التراب كما نشاء .

صعي أقدامك في ثقبه على أرض طريفك لخاص .. واسلني النجم من

فمك .. وبرطمي كاشتت يا سيدة ..

وبطرت السب فاطمة إلى أبها حمدي وكان قد عاد من حجراته ليرى ما

استقر عليه الأمر ..

وسأته باختصار :

— مارأيك يا حمدي ؟ وبشيء من الدهشة رد حمدي :

— رأيي أنا ؟ وبشيء من الاستكثار لدهشته ردت فاطمة :

— أجل .. مارأيك ؟

— في ماذا ؟

وفي صيق ونقاد صبر لحصت الموضوع في كلمتين :

— علام يريد الزواج من سيدة !

وباختصار أجاب حمدي وهو يسط كفيه :

— ولماذا لا تسألينها هي ؟

وتدخلت سميحة فائقة وهي تحاول أن تساعد أمها :

— سيدة قالت أمركم .

— أمرنا نحن .. هل نحن الذين مستزوج ؟

لم تنفت إلى سيدة وسألتها في شيء من الحدة :

— مارأيك يا سيدة ؟

ومن جديد أطرقت سيدة ورددت تكرار قولها :

— أمركم يا سي حمدي .

— مارأيك أنت صاحبة الشأن .

وأمام حصار حمدي أحسست سيدة أن عليها أن تقول قولاً حاسماً قبل أن يعر

الصيد الذي بدأ يملئ في موقعه أمام هذه المناقشة التي وصحت موضع سلامة نعت

الاعتبار .

قالت سيدة وهي لازالت مطرقة الرأس :

— أنا .. أنا .. موافقة . ما دام . .

ولم يتركها حمدي تكمل حديثها بل قال في حرم :

— انتبها .. ما دمت موافقة . فلته الموصوع بعير تلكؤ .. لصع حدا

لكلام الناس ..

ونظرت الأم إلى علام قائلة :

— خلاص يا علام مبروك إن شاء الله .. وربنا يتهم بحير

ورد علام في حماس :

— الله يبارك منك يا ست .. عقاب حمدي بك والست الصعرة .. غداً

أحضر أمي لنقرأ الفتحة .

والنبي اللقاء الحافظ بثلث الحماصة

وغدا نقرأ الفاتحة ..

وبالتفعل قرئت الفاتحة في الغد .

حضر علام وأبيه .. وآخره ..

وتبادلت الأم . وسيدة نظرات فاحصة .. هذه هي حماكتك يا سيدة . يلب

جسدها الصامر ملأية سوداء . ويلبو وجهها .. أسمر محدد . نائب مقرة

الجلدي . ودق موشوم بثلاثة خطوط خضراء متوالية تبدأ من الشفة السفلى

وتتعد حتى أسفل الذقن . وشعنين سوداوين وعيين عاترتين ..

شكلها غير مربع .. وغير خفيف .

ليست كأرم عباس قاسية صارمة . وليست كدلال قوية متعدي . وليست

كالست فاطمة .. يشرق وجهها بالطيبة والمودة .

لا تملأ إحساساً بالطمأنينة . رغم لطفها الناعم ولحجتها المستكنة .

وأثبتت العجور تربت ظهرها وتحمسها كأنها تعان بضاعة . نوى شراها

وهمت للعجور بأن تفرش الأرض ولكن سمحة قادتها إلى المقعد قائلة .

— اتفضل ها يا حاجة .

وجلس العجور على المقعد وهي تسترق النظر حولها .

ناس مسوطين .. والبت تبدو كواحدة منهم .

ولكنها مع ذلك .. عادمة ..

والمارها واكسك يا علام يا بن جاب الله . طالع لأنيك الله يرحمه . ومع

ذلك ظالمقدور وقع .. ولا متجاف عنه .

والصلة مع أمثال هؤلاء الناس . بأية طريقة لا بد أن تكون معيدة .

وكانت سيدة ترتدي أحد فساتين سمينة .. وقد مشطتها سمينة وربتها

فبدت نظيفة جميلة .

وحلس علام على أحد المقاعد وقد ارتدى جلباباً صوفياً غامقاً وعوج اللبدة

على رأسه .. وبحواره جلس أخوه مصور سمياً قصيراً أكرش . قد ارتدى بدلة

الشمل الكاكي ذات الأزرار الصغراء وكبس الطربوش حتى أذنيه .

وتقدمت سيدة بصنية الشرابات . ودارت عليهم . جا .. جا .. واعتصمت

أصوات الرشعات .. والمصمصات . بأصوات الأحاديث والنباحات .

وقرئت الفاتحة .. وشاع في الخي خبر رواج سيدة بعلام .. وروح الخبير

شائعات وتوسع القصص وحكايات ..

سيدة قد أحصرت علاماً في البيت . وصبطته السيدة .. فاصطر إلى أن

يتروجها . سيدة حملت من علام .. ولم يكن هناك بد من رواجها . حتى

لا تبلغ الست فاطمة الأمر للبوليس .

علام يطمع في مصوغات سيدة . وهو من أجل ذلك اعتدى عليها حتى

يرطها في رواجها ..

ويصبح من بينهم صالح : يا ناس اختشوا .. اتقوا الله في بناتكم .

وبدا الإعداد لرواج سيدة ..

أوصت الست فاطمة الجد بأن يحضر لها بصع فصالات من عمله ..

وانهيمكت في تفصيلها وحياكتها .

وجمعت سريحة كل ما استطاعت أن تستعنى عنه من ملابسها .. ومن أدوات الرزمة لديها .

وأضحت سيدة موصع اهتمام أهل البيت .. وبدأت تتخفف يوما بعد يوم من أعباء الخدمة .. ولا سيما بعد أن أحصرت هم العمة حادمة جديدة . اتخذت منها سيدة موصع المرشدة الموجهة ..

وأقبل يوليو ..

حلت الزهور الحمراء أشجار البانسانس التي تبدو مرصوعة حول مدرسة شبرا منكالفة في مداخله . وبدت زهور المايجو تعقد في حبات صميرة أشبه بتقاليد اللعب .. وبدت أرض القصب خالية ..

ونبت في أجزاء منها الفرة واقتشرت أرضها الملوحة والرجلة وأعسرش الكوسة .

وأبسى حمدي امتحان التوجيهية . وظك الشادر الذي ملأ أرض الككرة في مدرسة شبرا .

وبدأت فترة انتظار النتيجة رحل بعض الرفاق إلى بلادهم في الربيع وبقي البعض يتجمعون في الشرفة كل عصر .. يناقشون في السياسة أو يخرجون للسمر على ساحل رومس الفرج . أو لاستعجار قارب يتبادلون التجديف به .

وحسبهم الشرفة ذات مساء .. وجلسوا يتبادلون الحديث .. وقد سادهم حو من القلق والتوتر . فقد كانت النتيجة توشك أن تظهر .

وكان حمدي يجلس جلسته المعتادة مسنفا ظهر الكرمي عيل على الخائط مانا سابقه على سور الشره وبحواره ريعوف وطلعت وصلاح .. وكان صوت ماكينة الخياطة يأتي من الداخل .. وقد انكبت عليها الأم تشطب توبها لسيدة ..

وساد الصمت برهة فقطعه صلاح ببناء عمود :

— وحذوه .

وصاح به حمدي :

— مالك تصرخ هكذا ؟

— وما لكم تصمتون هكذا ؟

وتحم ريعوف وسط الحذل بين الاثنين بقوله : لا إله إلا الله !

— بطلوا صراخ يا جماعة . ودعوا نصت . يبدو أن هناك صوتا ينادي عمر التلامذة .

وأصت الجميع فلم يسمعوا شيئا

وقال طلعت :

— قلت لكم إنى أستطيع أن أذهب لأحصرها من الوزارة من أحد أقربائي .

ورد ريعوف :

— ولماذا لم تذهب ؟

— رفض حمدي أن يأتي معي .

وأجاب حمدي :

— أنا لا أذهب أبدا للاستفسار عن نتيجتي . لأن المرات التي ذهبت للسؤال

عها وجدت نفسى راسبا . الطريقة الوحيدة للنجاح هي أن أنتظر حتى تأتى إلى ..

وساد الصمت من جديد .

وقال صلاح :

— عايرس مشرب يا حمدي .. ريقنا مشعب .

وقال حمدي :

— المقلة عندك في الصينية على سور البلكون

ورد صلاح :

— شرب شيئا غير نافع يا عبي . شيئا يبل ريقا .

وقال طلعت :

— بأى مناسبة ؟

ورد رعوف :

— عخطوبة سيدة .

وقال حمدي :

— انتهت من زمان .

وأجاب صلاح :

— طيب بحالها .

— لما سمع

وقفر صلاح من مقعده صائحا :

— لأ . يعني لى شرب

— لماذا .. إن الشجة توشك أن تظهر .

— ولكننا لن نجتمع كلنا .

— الذى يجمع يسقى الذى لم يجمع .

وفجأة ساد الصمت .. عندما ملأ صوت من بعيد :

— عمر التلامذة . البلاع .

وساد الوجوم

وقفر صلاح من الشرفة وهو يمدى .

— بلاع .. عمر التلامذة

وأقبل بائع الصحف وقذف إليهم بسحرة من الجريدة وتلقى القرش وانطلق

يعدو .

وساد السكون البيت . حتى ما كبة الحياطة كفت عن الدوران .

وأخذت فاحمة تقرأ العاتجة . وسميحة تنصم * يارب جمع حمدي * .

ودبت سيدة بوعيا الجديد إلى الشرفة .. ترقب الشبان الأربعة وهم يسكنون

على الصحيفة وتلون الأرقام .

ووثب صلاح من مكانه فرحا :

— يمرق أفع .

وتوالت قراءة حجر .

— وادى غمرة طلعت .. وادى غمرة رعوف .. وحمدى .

يجمع الرفاق الأربعة . وأبعد كل سيم يسم صاحبه مهشا ..

وتسايلت سيدة تستوثق من النتيجة :

— سي حمدى يجمع ؟

ونظر إليها صلاح وهو يتأمل جسدها فى الثوب الجديد .

— وشك حلو علينا يا بت يا سيدة ..

ورد رعوف :

— بت لزاي .. دى بقت عروسة .. دى سيدة هالم .

وأجابت سيدة وقد ارتسمت على شفتها ابتسامة واسعة .

— غدا نمتكم دائما يا سي رعوف .

واندفع الرفاق يبتون أم حمدى وسألهم أن ينتظروا شرب الشرابات ولكن

كلامهم اندفع يمشو إلى بيته .

وأحست سيدة بالفرحه تملأ قلبها .. وهى ترى الأم تصم ابها والدموع تلمع

فى مآقيا . وعنت به :

— ميروك يا حبيبى .. عقبال ما أعنيك بالليسانس .

وأقبلت سميحة تنضم أختها وتسأله فرحة :

— ماذا ستطبخى حلالة الصباح ؟

— كل ما تريدته .

— تأخلى فلم الوردة البيضاء لعبد الوهاب .

— فقط ؟

وصمها إليه وهو يقول

— سأذهب بك كل أسبوع إلى السبحة .

وكانت سيدة تنصت إلى حمدي وقد شرد ذهبا . ونظر إليها حمدي قائلا :

— وماذا تريد يا سيدة .. سألني أى شيء .

أى شيء يا حمدي ؟

لوقلت ما أريد . نصحت من الدهشة . ولصحتك ملء فبك وانهمنى

بالخجل .. ولكن .. لا تفش ..

فلم أعد أرده

بعد عني .. مجرد الخطم به .. والتفكير فيه .

أسقطته حتى من حساب الأمان ..

بعد أيام سأترجح .. سأذهب لأعيش مع علام .. والحاجة أم مصور . في

يتهم بالميلية .

ماذا أريد منك يا حمدي ؟

لقد أردت كل شيء ..

وقعت منك بلا شيء ..

وتسألني ببراءة .. سألني أى شيء .

وهزت سيدة رأسها . وطردت دموعا بلهاء تحاول أن تقتحم مآقيا

وقالت في صوت خفيض تسرد مطلبها :

— نحضر فرحي بكراهة .

وقال حمدي مؤكدا :

— طبعاً سأحضره .

(٢٦)

كانت ليلة ...

قبل حوراء روى الفرح .. بمحتر رفاق صبق بعضى إلى شارع أكثر
اتساعاً . والأولاد يلعبون الكرة والبات يتوالى بالخيل . والدور كبيرها من
الدور يمرها أو لا يمرها ماء العسيل الذى يجرى أمام عتبات الدور ليتجمع في برك
صغيرة آسة سوداء . وأكوام الرمال تتجمع فيها عروق اللبوسية ويقايا تصفية
الطعام من قشور وبذور . وأوراق حمرة وعظام وعلب فارغة وقشر بطيخ ..
وأحد بيوت الرفاق نخرج من سقعة خفة مائلة .. لا يكاد الصيف يخل ..
وساطات اللب تتلصق فيها حاملة طرح اللبح البلى الأخضر حتى تبدأ المعارك
بين صبية الشارع وأُم مصور السماوية كما يسميها الصبية
وبنت أُم مصور مشغولة عن الصبية بما هو أهم .

كانت الليلة دخلة إليها علام على البيت سيدة « الخدامة » كما كانت تصدر على
تسميتها أمامها حتى تعرفه قسبها دائماً . وحتى لا يتركها تشرف كيعها
عليها .

وكانت واجهة البيت قد علق عيبا حبل تدلت منه اللبسات الكهر بائية .
ولم تقبل أُم مصور أن يعلق لحبل المصبة إلا بعد أن وثقت أن الأسطى عباد
الكهربائي قد قبل إعدادها للامام بغير مقابل .

لم يعلق في الرفاق بطيخ رجائي ولا زهر عرت أعلام . فقد رقصت أُم
مصور أن يكلف الفرح شيئاً إذ كانت في معصها غير راضية عن الرينة .. لأنها
كانت تكره شريكاً جديداً في أسرتها .. إنها تكاد تحتمل روجة مصور رغم طيبها

ومسيتها فما بناها بسيدة التي تبدو عباة تدب فيها رصاصة . ولقد كانت تأمل
لعلام في روضة أفصل ، روضة منيفة . عندها حين يمكن أن يعش حالم
ويظن صيقهم . فعلام رجل ملو لها به .. تسمه أى امرأة
ولم يكن يداخلها إحساس بأن سيدة متعمر كانت تشر بأنا ربيعة
بروة . أو هكذا كانت تسمى . ومن أجل هذا كرهت أن تكلف الفرح .
ومع ذلك . فقد اتعد الفرح .. كل مظاهر الفرح .. بالتطوع .. تطوع
الأسطى إمام المزين بإحصار سيد منحة المولوحست الذي يخلق عنده سد عشر
سرات وهو لم يرل بعد صبي قهوجى . وتطوع عبد القوى المثل بفرقة على
الكسار بأن يهضر حلقة مبن صبية ركية العالقة ، ودبر إحياء الفرح
بالتطوع . بواسطة للعارف والأصدقاء الذين كرهوا أن يصحب عليهم فرح في
المهصة .. بخير تفاريع .. ومهصة ..
وحذبت الأنوار صبية الشارع فأقبلوا يهبطون بالبيت ويمحونه مظهر الفرح
بصور صالهم .. وصحبهم .
وتطوع على برم سائق التاكسى بإحصار العروس من بينها بعد أن علق على
العربة بعض فروع منحة بالزهر الأخضر اقتطعها من إحدى أشجار البانسياس في
الطريق .
المهم أن الفرح . أصبح فرحا . كغيره من أمراح المرائس .. المكلفة .
وأقبلت عليه سيدة . عروسا .. كأتى عروس .
وكان أول تعليق أطلقه على برم سائق التاكسى وهو يرقبها يهبط من العربة
عندما أسر إلى كيرة القهوجى وهو ييز رأسه في سخرية .
— انزلى يا بنت الرفضى . ماتعمليش ست ..
وأجابه كيرة وهو يرقبها باشتاء وإعجاب .
— حد يقول إن دى خدامة .
ثم صمق بكفيه صائحا :

— حلال عليك يا علم .. حاتلهط صحن بلدى الليلة دى .. حار وبائر في
جنتك .
ولهاالت التبعات على علام . لو على علم . كما ياديه أصدقاءه المقربون
وهم ينظرون إلى سيدة تلتف إلى الداخل .. وكأها غروف . سيتمتع به علام
وحده ..
وجلست سيدة في وسط مجموعة لم تستطع أن تميز منى سوى حمانها وتلبية
روجة منصور وبميمة أخته .. أما البقية فقد كانت غليظا من عجائز وسوة في
مصصف الصر . يرقبها بنظرات فاحصة ويلقى إليها بالتحيمات والتبعات
— مبروك يا شابة .
— ربنا يسم بكبر يا حبيشى .
— عقبال البكارى يا عروسة .
وأقبلت هيات صغيرات رسم شعاع بالأحمر ونطعن وجوههن بالبودرة
وأشرن إلى سيدة متسائلات في فرقة :
— هى دى العروسة ؟
وحسرت كبرهن إحدى الصغيرات على طهرها باهرة :
— لا تشاورى هكذا .. عيب .
ونظرت إليها الصغرة وردت عليها في غيظ :
— واننى ماثك .
وتطلعت سيدة إلى الفسحة الخارجية التي يفرح من جانبها جدع التحلة
ليحترق سقمها . وقد رصت المقاعد الخيبران بجوار جذورها . واستطع عديا
لقارب العريس وأصدقاءه . وهنا منصور بدلت الصعراء الرسمية التى يشد
كرشه أررها .. هناك تتخلع عند أبسط انخاعة في جنوس أو قيام .
وهنا علام بجلبابه الملقق واللغة ماثلة على حاجيه وهو يسر بين المدعوين
يحسبهم ويطلق تلاميهم . ثم اتدفع نحو الباب فجأة يصبح ماديا :

— واد يا سقر .. أين نصف لوح الثلج ؟ .

— منتظر الراجل يحضره .

— الله يحرب بيتك .. اذهب إلى الدكان قبل أن يعلق .. وفل لعبد

الرحيم .. عم علام يريد نصف اللوح الباقي من أمس .. اذهب جري

وحملت أم مصور في حقيق :

— ألم يأت الثلج بعد يا علام ؟

— سيأتي حالا .

وصاح على برم :

— باب البجار معلق .. لازم حاشرب الشرابات مغلى .

ورد عليه كيرة .

— بمسوك .. قول الخمسي ؟

وانتظر لحظة ثم صاح :

— في ككة

واندفع مقهقها .

ورد عليه على برم في برات مزنة هادئة .

— قديمة ..

وأجاب كيرة قائلا :

— بس الككة جديدة ..

وعاد على برم يقول بمس مدهوء :

— قديمة .. باب القديمة .

ورد كيرة .

— طب بمسوك .. قول الخمسي ؟ .. في فزاة كروزة .

وعاد يصفق بيده فرحا .

— أفضل دى جديدة ..

ونظر على برم إلى من حوله وتساءل في هدوء :

— تجسى ازاي بقى . بمسوه لازي في قنارة كروزة ؟

— طب وبمسوه لازي في ككة ؟

وبدأت مناقشة حول أيهما أكثره مقولية الاستحمام في رجاجة كروزة

أو الاستحمام في ككة ؟ ..

وأعيرا صاح على برم :

صو هاسوة .. مضى على ثلاث شهور .. لا أستحم .. لا في ككة ولا في

رجاجة كروزة .. انتبهنا .

ودخل سقر بمسوف لوح الثلج وصاح علام بأهه :

— الثلج حصر يام ..

وصاحت أم ميمية ..

— قومي يا ميمية .. إلى الشرابات في الطشت وحطى به لوح الثلج

وقدحت ميمية إلى الحمام لعمل الشرابات .

وعادت سيدة تلعت حولها . وتملكها إحساس بالعرية . وبعدم الانتهاء إلى

شيء في هذا المكان .. ولا إلى علام نفسه .

وسط هذا الصبح والصبح . نيدى وحيدة يا ميمية . وكأن هذا المرح

لا يصحك . وكأنه لم يعمل خصيصا من أجلك .

من أجلك ؟ .

أحقا .. قد تجمع كل هذا الحشد من أجلك ؟ ولكنك لا تعرفهم . ولا هم

يعرفونك ..

لأحد منهم يشعر لك بإحساس خاص ..

إسم يصحكون ليعرجوا عن أنفسهم .. وعن كروهم .. كروب خاصة

لإعلاء لك بها ..

أنت داتك . لا تقتل شيئا خلافاً في عوسهم . ولكيك مجرد سب
ينجسون من أجله .. ليصحبوكوا بصحبكوا .. وكان يمكن أن تغل غلك أى غلومة
أخرى .

وسبصرفود عن فرحك الآن .. وينسوك تماماً ..

سبصرف كل سبهم إلى همه . دون أن يمحس ل لك هما .

أنت داتما وحيدة يا سيدة ..

حتى في مرحك . وحيدة .

حتى هؤلاء الأس الطيور الذين أثبت الزم بينك وبينهم صلة أشبه بصلة
القرى . قد أثبت إلا أن تقطعها .. بحثاً عن حريكك .. وسيدانك ..

ولكن ماذا م يأت حمدي ؟

لقد وعد أنه سيأتي . وكذلك وعدت سميحة .

إن وجودهما يمكن أن يمحبا بحسباً بالألفة . وبشر هؤلاء العراة .. أن
ها أحداً .. وأنها ليست مقطوعة من شجرة .

لقد نظائر إليها من هؤلاء العماثر حسات . تحمل تساؤلات

— أهي أهل العروسة ؟

— ليس هاته ؟

— ليس هه حالة أو عمة ؟

— حذمة ؟ واحد ؟ ليس فهم هه ؟

— لتيطة ؟

هؤلاء العجر . لو ترك ها الأمر خلفت احداً وسلفه على عوسهم . إنها
كفيلة بتأديهم .. ولكن ليس هذا وقته . لا داعي لأن تعمل صبيحة في ليله
الدعيرة . عدا عندما تمكس . ستعرف كيف ترد عليهم .

كان المقروض أن تردهم أم منصور .. ولكن يبدو أنها سعيدة بالمسرات ..
جذب انتباهها . حركة الباب .. ورأت علام يتحرك نحوه مهللاً :

— أهلاً سي حمدي بك شرفاً

وأقبل حمدي من الباب يرتدى الدلة والطرش وعواره سميحة . وأشار
علام إلى باب الحجر التي تجتمع فيها السيدات

— بمصلى يا سميت سميحة . بورني البيت .

وسلم حمدي على الرجال الذين هموا لتحيته .. وجلس بينهم على أحد
المقاعد الخمران . وبدأ التمس والتعليقات والتساؤلات .

ودخلت سميحة حجرة السيدات فهبت سيدة تستقلها في فرحة وأقبلت
عليها أم منصور مرحية :

— أهلاً وسهلاً . عطوة عزيزة يا بنتي . آمان في سلامتها المست لم
حمدي .. كنا عابرين تشرفنا .

وتنمت سميحة متفجرة .

— أصلها نعبانة

— سلامتها ..

، انخلدت سميحة مكانها بجوار سيدة ولأول مرة غس سيدة بالطمأنينة .

ترى هل أعطأت بتركها هؤلاء الناس ؟

إنها تشمر أشبه أهدها . تشمر بالحماسة في طلبهم . والأمر في كتمهم .

ولكن في متى ستعمل تلمس الحماسة والأمر من العير ؟

شد خرسيت تبحث عن حربها — ويجب أن تتحمل مواجهة الحياة
وحدتها . يجب أن تحقق بمسها كل ما تحتاج إليه .

وربنت سميحة بد سيدة في رفق وردت الكلمة التقيدية المعتادة

— مبروك يا سيدة . إن شاء الله رب يوفقك

— عقالك يا سميت سميحة .. ولكن لا تنسى أرتدعي في فرحك

— أدعوك ؟ هل تطير نفسك عرية ؟ أنت التي ستوصين العرج

— طبعاً . مرحك . ومرح سي حمدي .

و نظرت من الباب عبر الأجساد المرسومة أمامها . وبدأ لها وجه حمدي في آخر المسحة هادئا صليحا .

وأحسنت به كأنما يجلس وحده .. بعيدا .. بعيدا ..

قطعت أسباب الصلة بينا يا حمدي ..

الصلة المادية .. التي كانت كل ما تبقى .. قد بلغت نهايتها .

صليت بخداه أمسحه لك . وفراش أرتبه . وملابس أعسلها .. ومائدة أعدها .

انتهت ..

وكما أن الله يا نبياتها . شطحات الهوى .. وصرحات الأحلام .

غشي في كل لحظة من لحظات وجودي في محيطك . مسحت كل ما يمكن أن يمسحه إنسان . ونيت على حتى مجرد قبوله . أبيت على إلا حاد السبد .. وعطف الأمر ..

عما الله عدت في كل ما صنعت في . وسامحك عن كل ما لم تفعله .

عفا الله عنك .. بكل ما أمالك من قدرة على الدعاء .

لأنك على ظلمك لي .. عزيز .. عزيز ..

كنت دائما بعيدا . وستراد بعيدا

ولكنك سبقي موجودا .. دائما موجودا

وأخرجها من شرودها .. دخول نعيمة . تحمل حبيبة أكتواب شربات الورد الأحمر .

وصحبة الباب علمت منها أن سيد مسحة المولود جئت قد حصر

ومرت الساعات حافلة بالضجيج والصراخ ورفق يشبه الصبح وعاء يشبه الصراخ .

وحضر للأدود وقال كلاما وكتب في دفتر لم انصرف .. وأكل الناس وشربوا . وصحبكوا . وتشابقوا . وتصاربوا . ثم انصرفوا واحدا بعد الآخر . وفي نهاية الليلة .. أصبحت سيدة زوجة علام .

كان عليها أن تدخل مع علام في حجرة وحدها

وكان عليها أن تنام ويثاء في فراش واحد . وأن تمسحه كل ما يريد . بلا تمسح ولا مقاومة

عجيب ما فعلته بعسلك يا سيدة

كنت تنأى في الطريق . عن كلمة عزل . وكنت ترددها باسم وبها صرية وبها كفة . إلى آخر ما في صحبتك من الأعطال رد العزل . وكانت مسة يد على صدرك . أو تحسبه على ردفك تعتبر جريمة تؤدي بتركها إلى اليأس .

والآن . تدخلين مع هذا الرجل حجرة مصفحة للحمية . راضية مستسلمة ما يشيئ منك .. بغير مقابل ..

حتى القرش الذي دفعه عباس . بغير ما أخذت . منذ سنوات مضت . لم يدفعه علام ..

بقرش يا سيدة .. بيت نفسك مرة .

وبلا ملزم واحد .. تبعين بعسلك للأبد .

ولكنك ستأخذين الكثير فيما بعد يا سيدة .

أنت تعرفين هذا .

ستأخذين .. ثولافا .. وبيتا .. وسلطانا ..

أليس !!! ها ؟ في هذا البيت ؟ بيت أم مصور ومصورة ونعيمة ونعيمة . الذي تشعربه بالمرية .

ولكن لماذا تصالحين الأحداث . بصري حتى تحب الأمور . وتعرف رأسك من رجليلك ..

كل ما عليك الآن . هو أن تنامي في حصن علام . وتعمل له ما يشاء

وكانت ليلة ..

لم تشعر خلالها سيدة أنها طرف في علاقة . بل أحسنت أنها وجبة

دسمة شهية .. أمام جائع يقض على طعام طال حرمانه منه ، ولا يكاد يصدق أنه بات ملكه وملء بطنه .

وظل علام يلتهم الوجبة الشهية حتى كل .. واستلقى بجوارها مسترخيا مكثودا .. وعليه العباس فام .

وحملت سيده إلى السقف .. وبلغ مسامعها صوت ديك يؤدى . ولحت بياض القمر في الباعثة

انتهى علام منها .. وتام ..

أعلن عيبه . وعلا شحيره .. ولم يعد له بها شأن .

علاقة عجيبة .. لا يمكن أن تكون بين آدميين لها نفس الحقوق وعليهما نفس التوجبات

علام يريد شيئا ..

وسيدة تحلل الشيء المراد ..

علام إنسان .. وسيدة شيء

وعلام أخذ الشيء .. وهذا واستراح ..

والمعرض على سيده أن ترصع . وتستسلم . نيس غا أن تسأل وأنا ؟ .. أو ماذا بعد !!؟

بل عليها أن تعصى وتام .. ما دام علام قد أخذ ما أراد واسترخى وتام

وظلت سيده حرة تعصق بعبيها في السقف . يخلط في سمعها شخير علام . يصيح الديكة .. بأذان القمر .

حتى نامت .

واستيقظت مع تجمد بجوارها علام . ووجدت الضوء ملاماً الحجرية . وصحمت صوت أم منصور تصيح بلهجة حادة .

... هي بسلامتها . نأوية تمام للظهور . قومي صحبها يا عيمة .

ونجست سيده من مراشها قبل أن توقظها عيمه . ولم تعرف ماذا تفعل

ولكنها أحست أن عليها أن ترتب العرفة وتنظفها .

وأقبلت عليها عيمة قائلة :

— صباح الخير

— حو عليكى .

وخضت سيده نحو الباب وهي تتسائل .

— أهي علام ؟

— خرج .

وقبل أن تواصل سيده حديثها مع عيمة صمعت صوت الأم يصيح في حدة :

— بالله منك لها .. ليس هذا وقت رعى

وخرجت سيده إلى الفسحة . وكانت أم منصور تجلس بين سابقها وراحه تدبرها وتضع فيها فولا لتتشبه .

ولم تكذب ترى سيده حتى صاحت بها :

— صبح النوم يا شابة .

— أسعد صباحك يا خالة أم منصور .

— موتى يا حتى غسل من العسل المكومين في الحمام وبعد أن تنشوى

الفضيل . اسقى الفراخ وخرطى قشر البطيخ للوز .

وتذكرت أم عباس .

هذه المرأة . تذكرها كثيرا بأه عباس .. رغم صيانة جسدها ومرسمة صورتها

ولم تعرف أى عسيل هذا الذى تكوم في الحمام ؟

إنها لم تخلع بعد هدمة واحدة .

ولا تنظن أن علام قد فعل .

وهي مستولة عن غسلها وغسل علام .. هذا أقصى ما يمكن أن تفعله

وتسألت بمسألة :

— غسل ميرالكوم في الحمام ؟

— غسل البيت .

— ومن الذي يمسكه ؟

— يمسكه من في البيت .

— ولماذا أنا بالذات ؟

— أنت أو غيرك .. كله واحد .. لم تظن على رأسك ريشة .

و لم تجد سيدة من العقل أن تبدأ حياتها بمركة . عهدتُ لحبيبتنا قائلة :

— طبعاً . كلها واحد .. ولكن كنت أقول إن كل واحد يمكن أن يحصل

عسبه ..

وهزت العجوز رأسها في عيظ .

— كل واحد يحصل عسبه !!! من أين تحدث هذا يا شابة ؟ .. العم يلزم

العسيل كله . والا الصابون يبلش إذا كنت لا تريد العسل قولى .. عصر

له عذامة .. لعلك لم تتعودي الخدمة .

وأحسست سيدة بالدم يتصاعد إلى وجهها . وبدلت كل ما غلظت لكيلا تنعجر

وهي تحس بما في كلام العجوز من هزة وسخرية .

وردت يدها :

— لا يا حاتمة .. سأغسل العسيل . أنا وأخذت على الخدمة طول عمري .

وأجابته العجوز وهي تزوم :

— آ ظننتك سبتي

وانتهجت سيدة إلى الحمام . فإذا يكوم من الملابس القلعة يبدو كأنه قد جمع

من بضعة شهور .. حتى تمسكه هي .

ملابس مصور الكاكي وسراويله وفانلاته وملابس زوجته نفيدة وأظفاله

الأربعة عن محمود وسية وركية وملابس العجوز وابنتها وملاتين سوداوين

للخروج .

وتعالت ألوان العجوز تألق من القسحة :

— عندك وابور الخمار . صمى عليه الصعيحة ونخل الماء .

وهكذا بدأت سيدة حياتها الجديدة .. على طشت العسيل . عسيل عائلة

علام بأكملها .. وبشرته . وسقت الفراخ وأطعمتها وخرطت قشر البعيج

للوز .. جون أن تتناول لقمة ببطار ..

وبدا كأن المحجور قد وصعت في معصا لجأما أشد وأعنف من كل ما تعودته

ولوت به عبقها تصيدها إلى أيام أم هانئ .

و لم تعرف سيدة ماذا كانوا يفعلون قبل أن تنحصر .. من كان يحصل العسيل

وبشر وطعم الفراخ والور ؟

كانت نعيمة في المطبخ . وأم منصور تندش الفصول والأولاد يهصون في

الشارع .

و لم يكن هناك أثر لنفيدة .

وسألت هن نفيدة من باب العلم بالشيء .

فألت لنعيمة وهي عيظ من السطح :

— أين نفيدة لم أرها اليوم ؟

وردت العجوز :

— نفيدة ذهبت إلى سوق الجمعة تشتري جبة قريش

وحل موعد الغداء . أقبل منصور من الديوان يحمل في يده حرمين فجعل

وأقبل علام يحمل شمامة . وأقبلت نفيدة من سوق الجمعة تحمل سلة وصعت ٥

مشترياتها من السوق . جبة قريش . ولفت وعيش رجوع .

وحول المطربة تجمعت الأسرة في مظاهرة لطعام . وبعد الغداء كان على

سيدة أن تقوم بالشطوب مع نعيمة .

ومرت الأيام بسيدة في بيت العذل .

و لم تنس لحظة .. بما كانت تطمح إليه عندما خطت أولى خطواتها في طريقها

الحاص .

لا يمكن أن يكون هذا طريقا خاصا بك يا سيده

إنه شارع .. إنه سوق ..

وأنت فيه ضائعة . لا تعرفين أين أنت . ولا إلى أين تذهين ؟

دخلت أسرا جديدا يا سيده .

لا تبدو في أفق بارقة سعادة . ولا يلوح فيه شعاع حرية .

بت خادمة هذه القبيلة .. تنظعين وتسلمين وتطبخين .. بالهار ..

و بالليل .. لا تستطيعين أن تغلدى إلى وحدتك .. لأن عليك .. أن تقدمي

نفسك وجبة لعلام .. يلتهمها ويتم ..

هل أعطأت يا سيده بالصبر والاستسلام ؟

وماذا كان يمكن أن تفعل ؟

تتورس في وجه المحور ؟ .. وغوصين معها معركة توقفيها بها عد حدها .

ومادا يمكن أن تكون نتيجة المعركة .. وأنت وسط قبيلة بأكملها ؟ هل

سيتركونك تنعدي بالعجز ؟

وإذا اشتكتك المحور إلى أبها ؟ .. مع من سيقف ؟ .. ومن يصبر ؟ وبقية

الأسرة .. مع من ستشهد ؟

تصبر أحسن ..

إلى متى ؟

هل يمكن أن تواصل حياتها هكذا إلى الأبد ؟

غير معقول !!

هل تركت حمدي وأمه وأخته .. لكي تتحول إلى خادمة لأُم مسنور

ولولادها .. وأحفادها .. بالهار .. وخادمة فراش لابها علام بالليل ؟

وشككت إلى علام بصح مرات فتعامل قاتلا :

— وماذا تريد .. الناس كلهم يمشون هكذا .. لا بد أن تستحمل .. أم

تريدن أن أحضر لك خادمة .. تشتغل عندك ؟

وهزت سيده رأسها قاتلة في ضيق :

— وهل تريد مني أن أعمل خادمة للجميع ؟

— أنت على الأقل في بيتك .. ولست خادمة عند غرباء .

— لقد ضقت فزعا .. بكل هذا .

— لا بأس بصبري .. حتى تصودي .

— لي أتعود .

— إذن فمادا تريدن ؟

— أريد أن أعيش وحدتي .

— أضح لك بيتا وحدك ؟

— أجل .

— ما شاء الله ! . وم أضح لك بيتا ؟

— إذن سظل هكذا طول عمري ؟

— ولم لا ؟

— غير مقبول يا علام .. لا يمكن أن أنقض حياتي هنا في هذا الجحر .

— احفظي يا سيده واحمدي الله ..

— هل ماذا ؟

— على البيت الذي آوأك .. والناس الذين لموك .

— أنا لم أكن ضائعة في الطريق ..

— كنت ضائعة في بيت .

— فشر ..

— كنت ماذا في البيت الذي تصطحبن عنه ؟ .. ست ؟

— كنت أحد أفراد الأسرة .

— كلام غرغ . كنت خادمة .

— وماذا أكون الآن بكل ما أقوم به من عسيل والكس واللمح والطبخ .. من طلمة النهار للمغرب ؟
 — غديم نعلك .
 — وأهلك ؟
 — لقد أصبحوا أهلك .
 — لا يا علام .. أنا أريد أن أعدم نفسي .. أريد أن يكون لي بيت لما يعرجها الحلال .
 وبدأت سيدة تصيح بجائها .. وهي لا تعد بصيص أمل يحقق أحلامها .. في الحرية والسادة ولم يكن هناك بد من حدوث الصدام بينها وبين المعجور صاحبة السيادة الأصلية في البيت .
 وبدأت أم منصور .. توقع بينها وبين علام .
 اليوم أحرقت الطبخ ..
 اليوم شتمتها .. ولم تبق بها ..
 اليوم ضربت أولاد أخيه ..
 وضاق علام بالشكوى وأمرها بأن تعقل ..
 وأحست سيدة أن العقل ليس في الاستسلام للمعجور . بل في وقفها عند حدها .. وفي إظهار العين الحمراء .
 وفات صباح استيقظت سيدة فوجدت علام قد خرج . وكانت رنة الليل تثقل الجو بالرطوبة . والحر يحكم الأنفاس ، ودون أن توجه إلى المعجور التي جلست ترعظ الأذرة كلمة واحدة . سالت الملامة السوداء التي تعودت أن تخرج بها مد أن تروجت ونعت بها جسدها .
 وسألتها المعجور في دهشة .
 — إلى أين ؟
 — خارجة

— خارجة أين ؟
 — أشم نفسي .. سأقوم بزيارة لست أم حمدي .. وأذهب إلى السوق ..
 — والمسيل ؟
 — اغسلوه انتم .
 — تهدي عيانة .. وبعمية حاتيز .. وليس هناك من يصله سوك .
 — إذن ينتظر حتى أعود .
 — منصور وعلام ليس لديهما عيلارت نظيفة .
 — يمكنهما الانتظار يتأجهم الوسخة ..
 — لكي تخرجني أنت للمرقعة ؟
 والتفتت إليهما سيدة في حق وصرخت فيها منكرة :
 — لي لسانك يا ولية
 — أنا ولية .. يا ضايعة يا بنت الضايعة .
 — والله ما أحد صابع .. عورك يا فرشاة .. يا مقددة .
 — أنا يا بنت الكلب .
 وبهت المعجور مجدبت سيدة من صدر ثوبها مفرقة ودهنتها سيدة يديها في صفرها . مستقطت المعجور على الأرض وهي تصرخ مستهتة .
 وأقبلت بعمية من المطبخ وبهتت تهيدة تتحامل على نفسها من الفراش .
 وانحنت تهيدة على المعجور ترى ما بها .
 وأسكتت بعمية بخاق سيدة .. وبدأت المركة .. وعلا الصراخ .. وأقبل المعجور .. وازدحم الزقاق بالناس .
 واستطاع أولاد الحلال أن يلقفوا هيب المركة .
 وألوت الأم وابنتها وتهيدة إلى حجرتها وهي تقسم أنها لن تستريح حتى يوقع علام سيدة علفه .
 وألوت سيدة إلى حجرتها وهي تقسم أنها لن تبقى لحظة مع علام . إذا لم يجد

لها مسكنا على حدة ..

وحصر علام وكان قد عرف تفاصيل المعركة من الجيوش قبل أن يدخل البيت .

وجرت سيدة إلى الحجرة وهي تصيح :

— يا أننا .. يا أملك .. لم أملك لحظة في هذا البيت .

وقال علام في هدوء .

— اسمعي يا بنت الحلال .. أنا لا أملك مليها . أؤجر لك به بيتا وأعرشه .

فإذا كنت تريدين سكنا .. فهاتي نقودا .

— ومن أين لي النقود ؟

وصمت علام برهة ثم قال :

— إذن هاتي المصاغ ..

— وماذا ستفعل به ؟

— سأرده .. وأجهر بالنقود السكنى .. ثم أردها عندما أستطيع تدبير النقود .

— يعني سترد المصاغ ؟

— طبعاً .

ومدت سيدة يدها إلى صدرها فأخرجت مفتاحاً . وفحمت أحد الأذراج

في دولاب الخدم ثم أخرجت الحلق والعرايش وسلمتها لعلام قائلة :

— عذ . لعل ربها يتوب عليا من السجن الذي نمش فيه .

وبدت لها بارقة أمل في التحرر .. والسيادة .

(٢٧)

أحلام السيادة

مرت بضعة أيام بعد المعركة . وساد البيت هدوء سبى يخفى في طياته التحمر والاستعداد لمواصلة القتال .

وارداد تصيد أم مصور لأخطاء سيدة .. واردادت الرشاشات والوقعة .

واستمر الصدام العلى تحت ألقاط « التلقيح » والكلام الذى يسم البدن .

واقطع الحديث المباشر بين سيدة وحمايتها . وكان التعاضد يتم عن طريق تهيئة

روحة مصور التي — رغم كراهيتها للعجور وشمايتها بها . وتشجيعها لسيدة

عسمة في صدامها مع العجور — كانت تضطر إلى أن تأخذ موقفاً مؤالياً لها ..

عواها من ابنها .

لا تكاد تشرق الشمس حتى تصبح العجور بصيفة .

— قول لبسلامتها .. تقوم تدعك الحلق . والا متظرة خدامي أبوها يدعكوهم لها .

وتسمع سيدة الصياح خرد على تقيده قبل أن تنقل لها التطلعات :

— اصطحبي يا تقيده وقولي يا صبح .. أنا صاحبة الطائرات تنتعلط من عجبى .

وتردد أم مصور في صوت أكثر خفوتاً :

— ضربة لما تضررتك .

ويستمر الحوار في البيت على هذا المنوال . كأنه الطوب يتقاذفه الزوجة

والحمالة .. أو الكلمات تبادلنها ..

ويورد علام إلى البيت لتفظة الأم وقد تغيرت لهجتها المتجهمه الحادة .. إلى

هجة مستعصفة شاكية باكية .

— خلاص يا بني . لم يعد في بقاء في هذا البيت . امهت وانمليت . في آخر عمرى

— له يام ؟

— بهدنتى .. وشتمتى .. وهرجت على الناس .. وأنا مش حلها .

— معلش يام .. حفلت على ..

— حرقت الطيبخ .. يا بني ..

— معلش يام .

— وكسرت رجاح الشراعة . وهى بتمص . كان يوشك أن يبرل على

بالوغي .. عابرة قنوتى يا بني .

— بعد الشر يام .

— وكسرت قسرة المش . وقطعت .

— كفاية بقى يام .. كسرت دماغى .

وتدفع المحور فى البهية وهى تقول فى أسى ولوعة :

— يا ميلة بتحك يا هرمة . أدى آخر شقاك وتبعك يا هرمة .

ويجده علام إلى سيدة وبجدها تقف متوترة متحفرة وتساءل فى صيق :

— وصلت ليه يا علام ؟

— فى ليه ؟

— فى السكن .

— لاشئ .

— لماذا ؟

— مازلت أبحت

— الشفق القاصية على قفا من يمشول

— أين ؟

— فى كل مكان .. ما من بيت إلا عالية لاهة للإبحار .

— أين رأيت هذا ؟

— فى شوارع روص الفرج .

— وبسلامتك مستكين فى روص الفرج ؟

— ولم لا ..

— ومن أين لنا التقود ؟

— لم أكى أظنك عواطليا .

— اعقل يا سيدة .

— إدو اختر أى مكان تسكن فيه . فهم أن تترك هذا البيت .

— ما له هذا البيت ؟

— احنا حانئيه نالى يا علام .

— احمدي ربنا يا سيدة .

— حانئيه .. وشاكراه .. ولكن أخرجنى من هنا .

— اصبرى حتى أجد البيت المناسب .

— صبرت كفاية يا علام .

— اصبرى كاد .

— إلى متى ؟

— إلى أن يخلص ربنا .

— أحشى أن أصور (قتيل) قبل أن يخلصها .. أملك لم تعد تطاق

— استحلبها يا سيدة .

ويستمر الحوار الثقيل يومًا بعد يوم ..

وقلت مع الأيام لفظة علام .. على سيدة ..

شبح علام .. من الوجبة الدسمة ..

لم تعد تثير شهيته .

الحسد الشهى . الذى كان يتوق إلى اكتشاف تنويراته التى تنعرج تحت
التياب .. لم تعد له سحره الغامض .

كشفت ذلك الطمس .. واستكشف السر الخفى الغامض . وبات الشئ
الحى الذى كان يدفع السماء حارة فى عروقه . بمجرد تصور رفع الغطاء الذى
يحجبه ..

بات هذا الشئ . مجرد كوم لحم طرى . يصع كفه عليه . فكأنه يصعها
على جسده .

اعتاده بطول الجوار ..

عرفه جيداً ..

لم يعد به جليده يثر .

وهو موجود دائماً .. لا يجد أنه مشقة للوصول إليه .

كأنه قطعة منه .. أو من القراش .

فقد العاصر الثلاثة .. التى كانت تمنحه وجهه المذاب .

فقد .. حبيته وسره الخفى .. بعد أن رفع عنه الغطاء .. فإذا به جسد .
مجرد جسد .. كغيره من الأجساد .

وفقد حمته .. كالنوب يستعمل يوماً بعد يوم .. فيذهب رونقه بالاعتiad
عليه .

وفقد مشقة الحصول عليه .. أو الخوف من فقدته . فأصاعت اللهفة عليه ..
الطمأنينة إلى وجوده . وماذا يشوقنا إلى ما يرقد بجوارنا . إن لم تأخذه اليوم
أخذناه غداً .

الهم علام الوجية .. وامتلاً ..

وفقدت سيدة .. أهم ما شد علام إليها ..

قل مجته إلى البيت .. لم يعد يحصر إلى الغداء .. وبات يتأخر لئلا

وق أول الأمر كان يتنحل للمطافير .

ومع الوقت أصبح التأخير عادة . لا يحتاج إلى اعتذار .

وفى كل ليلة تستمر المناقشة التقليدية عن السكن والخروج من البيت .

وبدأت سيدة تسأل عن المصاع .

وفى أول مرة أجاب فى كبرياء :

— المصاع موجود .

— أين ؟

— عند الصايغ الذى سأمره لديه .

— وهل رهنه ؟

— ليس بعد .

— لماذا ؟

— لأنه يحس قيمته . وسأذهب به إلى آخر .

— ولماذا تركه عنده ؟

— لأنه .. لأنه .. يمد تقديره .. وسهره لغيره من الصباغ .

وفى المرة الثانية أبدى علام استنياه عندما سأله سيدة :

— عملت إليه فى الصيغة ؟

— الله .. قلنا بنهرها .

— هل الصايغ .. مضمون ؟

— هل تظنيه يطمع فى صيكتك .. إنه يبيعنا ويشترينا

وتغر الأهم ويردد الصدام بين سيدة وأم منصور ويرداد عياب علام عن

البيت ..

وفى يوم لم يعد علام سوى قرب الفجر .

وبعد معركة حامية الوطيس سأله نائراً :

— أريد مصاعى ؟

— قلت عند المصاعى

— أريده من صد المصاعى .

— ألا تريد أن ترهبه لأجل أن نعد المسكى ؟

— لا .. أنا أريد المصاعى .

— أتقنوهى يا سيدة ؟

— أنا أريد مصاعى .

ولى الصباح خرج سلام إلى عمله .

وخرجت سيدة لزيارة أم جدى .

وكانت سيدة تروهم بين آوبة وأخرى . وكانت الأسرة تلقاها بالبشاشة

والترحاب . ولكنها كانت تحس أن غربتها وسط الأسرة تزداد مرة بعد مرة .

وأما لم تعد واحدة من أهل البيت بل أصبحت كالزائرة غريبة . تجلس أمام

الست فاطمة وتساألها عن أحوالها .. وتطلب من الخادمتين الجديدة أن تحضر لها

شاي .. كوب شرابات أو فنجان قهوة .

وكانت تحس أن كلامهم مشغول بأمره . وأنها لا تستطيع أن تشغلهم

بالمرح للتحوس إليها والاستماع لها .. وأن عليها إما أن تخلق ملامتها . وتبهلك

في مساعدهم .. أو تجلس برهة للتحية ثم تنصرف ..

ووصلت سيدة إلى البيت وسمت عليها الست فاطمة وسبيحة في حرارة

وترحاب

وقالت الست فاطمة في أسف :

— ما لك دبلانة يا سيدة ؟

— أبدا يا مت .

— هل هناك ما يصايقك ؟

وتحدثت سيدة قائلة :

— ليس هناك في الدنيا ما يريح .

وأست الست فاطمة على فوقها بتبليدة ماثلة :

— أجل يا سيدة .. كلها تعب

وصحت الست فاطمة برهة ثم تساءلت :

— ماذا يصايقك يا سيدة ؟

— لا أعرف كيف ألقاها .. من كم متصور .. والا من علام .

— السكى مع أهل الروح حضا كبيرا يا سيدة . لا يمكن . أن تشعر الزوجة

بكيتها وحزنها إلا إذا سكبت وحدها . مهما كانت الحماية ضئيلة

وهزت سيدة رأسها قائلة .

— هذا بالك يا سيدى . إذا كانت الحماية . عقرية .

ولماذا لا تسكين وحدهك ؟

— مصلى شهر وأنا ألح على علام . وتعلم بالقدود . فأعطته المصاعى

والتفت إليها الست فاطمة وتساءلت في جرع :

— أعطته المصاعى ؟

— أجل .. قال إنه سيرهه . ويجهز البيت ثم .. يسرده عندما يتوفر به

القدود .

— عطائنة .. المصاعى هو أمالك من عادة الأيام يا سيدة .. ما كان يجب أن

تعطيه له .

— لم أطلق العيش في البيت .

— وماذا فعل ؟

— مضى شهر .. دون أن يفعل شيئا .

— والمصاعى ؟

— قال إنه أعطاه لمصاعى ؟

— والقدود ؟

— لم يدر الرهن بعد

— ماذا ؟

— لأنه ما زال يشنه .

ونظرت إليها الست فاطمة في حيط :

— يشنه في شهر ؟

— قال هذا .

— قولي له أن يرجعه لك .. ونعمل حيلتك حتى يستطيع أن يدير لك
السكر .

ودار الحديث بعد ذلك عن الأسرة ..

سألت سيدة عن حمدي فقالت الأم :

— دخل الخفوق .. بعد أن فشل في دخول البوليس والمخبرية .

— يعني ماذا سيصبح ؟

— يصبح محاميا .. أو يشتغل في الجرنال .

— كسيدى المرحوم ؟

— ربما يقدم له ما فيه الخير .

— وأين ستى سميحة ؟

— ذهبت إلى بيت عمها ..

— وكيف حالها .. ؟

— تقدم لها بصحة عرسان ..

— ربما يوقفها لاس الحلال .

— أحدهم مهندس طب و ابن حلال .. كانت أمه صاحتي من السيدة .

— وما رأى سميحة ؟

— سميحة بنت حلال .. برصيا أى شيء . فقد قالت أى إنسان تنفقى عليه

أنت وحمدي .. أما موافقة عليه .

— ربما يسلطها ويحبها .

وأقبلت صحبة الخادمة الجديفة من الخارج تحمل سلة الخضار وحملت
سيدة قمع البامية مع الست فاطمة .

وانتهى تقميع البامية .. وكان على الست فاطمة أن تقوم للطبخ . وأحست

سيدة أن عليها أن تنهى الزيارة وتعذر البيت .

أجل يا سيدة عليك أن تمردى إلى بيتك ..

فاقصى ما يمكن أن يربطك بهذا البيت هو مجرد زيارة .. تغير فيها الذكريات
وتؤخذ النصائح .

وسارت سيدة في الشارع الذى قطعتة مئات المرات ..

ولم تحرم من صحبات الإعجاب والغزل وقد نفت الملاية السوداء جسدها
فأبروت تفاصيله .

وأحست سيدة أن الوحيد الذى لم يهد يفرقه جسدها .. هو الرجل الذى
يمتلكها .

ووصلت إلى البيت .

بيتها الذى كانت تحلم بأن يحقق لها آمالي العمر .

منطقة القفوذ .. التى لم تجد لنفسها فيها أى فؤوذ .

عمال السيادة الذى لم تمارس فيه سوى الخدمة .. ولم تلق فيه سوى
المدة

موتلى الحرية . الذى لم يجد فيه سوى الاستعباد والكرامية والحقد .

والجاجة فيه تبدو مستعصية .. والخلاص من فضائه يبدو مستحيلا

علام يماطل يوما بعد يوم وهو لا يكاد يمحصر إلى البيت إلا للدم . وأحيانا لا

يحصر . وميته خارج البيت قد تكرر المرة بعد المرة بحجة دهايه إلى البلد
لإحصار أشياءه أو لفض مشاكل .

وللصاع ما زال معه .. يماطل في إعادته يوما بعد يوم ..

« غلطانة يا سيده . فالصاع هو أمانك من عادية الأيام .
هكذا قالت الست فاطمة .. ومعها الحق .

ولكنها ستعرف كيف يستعيد . وتعرف كيف تتخلص من هذا البيت
ومن الحداثة المسماة أم منصور .

أحل ستعرف كيف تأخذ حقتها منهم جميعا . ليس كل الطير الذي يؤكل
لحمه يا علام يا أبي زهرة .

وأصمت اليوم في انتظار علام متحفرة متوترة .

صاحت بأمر منصور عندما سألتها أين كانت ولماذا غابت .

« أنا حرة .. أخرج وقتا أشاء .. وأعود وقتا أشاء .

— لا يا اذلعدي .. هذه ليست وكالة من غير يواب .

وردت سيده في تحد :

— محدش له عندى حاجة .

— وعامرة عيلامي أبوكى . ينظمو لك مطرحت . وبحضروا لث السم
الحارى ؟

— سم لما جري جوعك يا ولية يا فرشانة .

— أنا فرشانة يا شحاتة يا ست الشحاتة ؟ .. ولكن الحق ليس عليك . الحق

على النطع الذى آوأك في هذا البيت .

— يطرح على دماغك ودماغه . من قال لك إلى أريد أن أبقى فيه ثابته ؟

— وما الذى يثبئك ؟ .. يا مقطوعة .. يا جربانة .. يا مقبحة . الباب

متسع .. أرينا عرض أكتافك ..

واندفعت سيده إلى العجور صائحة :

— أنا جربانة ؟ .. يا ولية يا مقددة بالبرجلك والقبر .

وبدأت الحركة وارتفع الصوت ..

واندفع الجيران يتدخلون لنفسها .

وحزت ربوبة بائسة الكرات والليمون التى تجلس على باب الرقاق سيده إلى
حجرتها محاولة تخليصها من العجور وابنتها وروحة ابها وأولادها الذين تكاثروا
عليها

وقالت المرأة لسيده وهى تحاول تهدئتها .

— اهدى يا سيده . اهدى ..

وصاحت سيده :

— والنبي لاصور لحم قتل ..

— اغفل يا سيده .. حبيب .

وأخيلت زنوبة تربت على ظهرها قائلة :

— وآخره كل هذا يا سيده ؟ .. كل يوم عركة ؟

— لى أبقي في هذا البيت يوما واحدا .

وهمت ربوبة قائلة :

— لك حق يا بنتى .. هذه حياة لا تنطاق ..

— الحق على الذى قبلت أن أعيش معهم في هذا الحاصل . والحق على الذى

رعبت بعلام من أول الأمر . كانت وقعة سودة ومهينة

وردت ربوبة في صوتها الخافت :

— وماذا رماك عليهم .. دول لامة .

— من البيلة لى أبقي في البيت إماما أن يطلقنى .. أو يمتنع لى بيتا

وهزت زنوبة رأسها في أسف وتساءلت هلمسة .

— يمتنع لك بيتا ؟ .. هو حابنقى على كم بيت ؟

— هو ليس مسؤولا عن هذا البيت ..

— والبيت الآخر ؟ ..

ورفعت سيده رأسها في دهشة متسائلة :

— البيت الآخر !!!

— لا تعرفين ؟

— أعرف ماذا ؟

— أن له بيتا آخر .

وصرخت سيدة بكفها على صدرها وشهقت قائلة

— علام له بيت آخر ؟

ول إصرار قالت روية :

— أجل له بيت آخر بيت صرتك

وصرخت سيدة :

— علام متزوج ؟!!

— ألا تعرفين .. الدنيا كلها تعرف .

— تزوج من ؟

— سعاد بنت الشيخ تلامي .

— وقع لها بيت ؟

— في امبابه .

وصرخت سيدة وقد جمحت عيناها من مرط العيظ :

— ابن الكلب . خذ المصاع .. واتجوز به ؟ حج له بيت وسابى ها

الخرق في جهنم الى أنا عايشة فيها ؟!

ومضت فترة دعول لم تعرف سيدة علاها ما تفعل .

هذا حلمك يا سيدة ..

مطقة العمود والسيدة والحرية والأهبة ..

جرك الكلب . إلى حظيرة الكلاب وتركت وانطلق ليبحث عن صيد

آخر

وتروتت يا سيدة تحوشة العمر . أمالك من عادية الأيام لطشها علام

تزوجها

حجينا .

ليت الذي كنت تحملين به ..

قتله لغيرك .. وبقيت

وضطت على أسنانها .. حتى صعب لها صبر .

وأحست سيدة أنها تود أن تقتل إنسانا .. تعرض فيه أسنانها وتخرق جلده

بأظفارها .

ومعاً اندفعت إلى أم مصبور وقبل أن تصل إليها لتطبق على عفتها ، أمسك

بها الجيران الذين أحاطوا بها .

وصاحت سيدة بكل ما شعر به من حقد وغضب

— أتعرفين أن امك متزوج ؟

وبرود أحابت العجوز :

— وماله هو صبور . والا عاجز ؟ ..

وصرخت سيدة :

— يزوج علي . أنا تزوج علام علي ؟

وبنفس الخدوء ردت العجوز :

— ولم لا ؟ . الرجل له أربع . على سة لله ورسوله . هل لأخي يزوج

امرأة تصحب له ويد . كيفة الرجال

وكانت سيدة تعرف أنها لم تحمل .

ولم تكن تعرف لماذا ؟ ..

ولكنها كانت تحس أن العجوز تتكلم عينا شهرا بعد شهر كسأب

مفسرة .. فو عاجزة .

وكانت تدعو من آن لآخر لابنها علام .. بأن يعرض عليه ربما يولد

ولكن هل تزوج علام ليحب ؟

إنه لم يذكر لها شيئا عن رغبته في الخلفة .

ثم من يدريه أنها هي للمسئولة ؟ .. وليس هو ؟

وعصرت سيدة في المحور في غيظ :

— ومن قال لك إلى لا أتجيب ؟

— وهل يحتاج هذا إلى قول ؟

— وغادرا لا يكون هو السبب ؟

— اخرسى قطع لسانك .. ابني راجل من ظهر راجل

إذن فعلام تزوج لكى يتجنب ..

ولكنه لم يخبرها مرة واحدة أنه يريد أولادا .. على النقيض .. كاليدى

ضيقه وثيرة من أولاد أخيه منصور ..

وهي لم تمنح الفرصة لمعرفة .. هل حقيقة هي التي لا تنجب أم هو ؟ ..

الهمم أنه ذهب وتزوج .. ويتقودها ..

وصاحب الجيران سيدة إلى حجرها ..

وخلت سيدة بمسها .. ودعت رأسها بين ركبتيها وانصرفت تكيى ..

إلى أين يا سيدة ؟

مرة أخرى تقفون وحده .. ضائعة في قعر الحياة ..

البقاء هنا في هذا البيت أضحي مستحيلا ..

هذه العجوز .. مستهلك .. وتفكك بك .. لو استطاعت ..

أنت أمامها دليلا .. بحاجة .. عليك أن تخدعي بالتمتلك ..

وعلام .. أحد النفود .. وتزوج .. وفتح بيتا .. ولم تعودى بمهية في

شيء

م تعودى تشكيلين في حياته أكثر من قطعة أثاث لم يعد يحتاج إليها

ابنى .. أو ادعى .. فهذا شأنك وحده ..

أنت لا تكلميه شيئا ما دمت تقعين مع أهله في حظورهم .. تفسلين

وتكسرين ونمسخين وتأكلين لتمتلك .. ويزورك بين آونة وأخرى .. صمى

من يزورهم في البيت ..

هكذا يا سيدة .. يتدد حلمك .. في السيادة والحرية ..

وحديث سيدة شهقة طويلة .. ثم أطلقتها في رفرة تحمل حرارة مواجهها ..

ماذا تنتظرين يا سيدة ؟ ..

هل ستصرخين بمصيرك ؟ .. فتقصي بنية عمرك ها في هذا السجن ..

اصلي شيئا .. ادعى إلى علام وحطى صلبك الكارورة على رأسه ..

أسأل عن يته وأطيق في عنق زوجته الجديدة ..

وماذا بعد كل هذا ؟ ..

تعودين إلى هنا مرة أخرى ؟ ..

طبعلا ..

انطلقى .. تحررى من هذا السجن ..

إلى أين ؟ ..

إلى بيت جدى ؟!

مرة ثانية .. خادمة كما كنت ؟

وهل ردت في أى لحظة من لحظات حياتك .. عن خادمة ؟ ..

ولكنك زوجة ! ..

أجل .. أنت زوجة علام .. وقد أعد مصاعك .. وتزوج عليك

يجب أن تنتظري لنقيته .. لسانه عما فعل .. وتأخدى به المصاع وتطلى

منه أن يطلقك ..

وبعد ذلك تنطلقين حرة إلى أى مكان تشائين ..

ومرت الساعات .. وسيدة تصمت إلى وقع الأقدام تطرق أرض الرقاق ..

مستظرة آونة علام

وهذات الأصوات .. أعنت الحوايت والمقهى على باب الرقاق وكاد وقع

الأقدام أن ينقطع

وأخيراً . سمعت وقع ثقلهم علام .. إنها تميرها بسهولة . وطرق الباب وأسرعت تفتحه ..

ووقفت تخدق في علام وهو يقف بالباب .

وأحس علام بنظرها غريبة .. وهي تصحبه في الظلمة .

وخطا داخل البيت وهو يلصقها جانباً قائلاً .

— ما بالك ؟

وسألت سيدة :

— أين كنت ؟

— كنت في المقهى .

— حتى الآن ؟

— أجل .

ووصل إلى الحجرة واستند على طرف القرائش .

ولم تستطع سيدة أن تمكث زماناً معها أكثر من ذلك فأطلقت سؤاها كالرصاصة .

— اصبر يا علام . أنت تروحت ؟

ورفع علام حاجبيه في دهشة وبدا عليه الدهول

— من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

وعادت سيدة تسأل في إصرار .

— قل هل تروحت ؟

— طبعاً لا .

— وأين المصاع ؟

— قلت لك عند الصامخ .

— مضت الآن أشهر تقول لي ذلك .

— ألم تعطيه لي لأرهمه ؟

— وهل رحت ؟

— أجل .

— والنقود ؟

— وتردد علام برهة قبل أن يقول .

— النقود .. موجودة .

— أين ؟

— محبوسة .

— محبوسة أين ؟

— عند أحمد أصفهاني .

— ولماذا ؟

— لأن أخشى أن يلعنوها أحد

وأطلقت سيدة زفرة بأشدهم عادت تسأل في إصرار وحزم .

— هل النقود موجودة حقيقة يا علام ؟

— قلت لك أجل .

— ألم تروح ؟

— قلت لك لا .

— وسعاد بنت الشيخ تهايم ؟

وعصر علام عاه وأردد ريقه . وأرتج عليه علم يطق بكلمة .

وعادت سيدة تسأل .

— لماذا سكنت ؟

— ماذا تريدني أن أقول ؟

— هل تروحت سعاد بنت الشيخ تهايم ؟

وفي قلق وصيق وتحدرد علام وهو يحس أنها تعرف كل شيء .

— أجل .

— وفتحت لها بيتا في امبابه ؟

وبنفس اللهجة المتحدية أجاب علام :

— أجل .

— ونقودى يا علام ؟ بمصاغى ؟

وأشاح علام بيده في صيق .

— مصاغك .. مصاغك .. فلقتنى

ولم تطلق سيده صبرا وأهجمت عليه فأشيت أطافرها في وجهه صائحة .

— بشقاي .. وكلى .. وهرق السين التي عملتها ؟

ودفعها علام عنه بكل فواه سقطت على الأرض صارحة .

والدفع إلى الحجرة أخته وأخوه وزوجته وأمه .

وبضمت سيده .. محاوله أن تعاود الهجوم عليه ..

وتكأ كالأصميح حوها .. وانهاثوا عليها صربا .. وهى بينهم هائجة كالجنونة

وأخيرا أمسك بها مصبر ودفعها عن الأريكة في عنف .

وصرخت سيده متشجعة

— لن أبقي هنا ثانية .. طلقنى

وصاحت أمه :

— طلقها .. خلص نفسك منها .. إنها مجرمة .

وهتف بها علام في حنق .

— روجى وانت طالقة . طالقة .

وتنفست أمه الصعداء . وقالت في هدوء :

— من الغجر .. على برة

ولفزت سيده من مكانها كالجنونة .

— من الآن .. لن أبقي لحظة واحدة .. ربنا تاب على ..

واتصلت إلى الخارج كالجنونة ..

ولصحتها سمة الطريق الباردة .. واحتواها القراع والظلمة وسكون الليل .

Digitized by Google

Digitized by Google

(٢٨)

على حافة الصياح ..

اجتازت سيدة الرقاق .. ووقفت على الرصيف في شارع روض الفرج .
ولفحت وجهها بسمة ليل باردة .. عمت منها شهيقا طويلا .. وأحست كس
أصابه غماء وصرير ، وجهه بماء بارد فانتعش وأفاق .
تحررت من السجن يا سيدة .
سجن السيادة المؤهومة .. والسفطان السراي .
كتب عليك الامتداد يا سيدة ..
استعدتلك دلال في بيت أبيك .
ومات أبوك وتركك على حافة الصياح . ليلتفتك برعى يد الرعاية
وبقى بك في سجن أم عباس . خوفا عليك من الصياح .
ومن أجل لقمة العيش .. ورقدة سواد الليل .. فقدت كل الأشياء الجميلة في
الحياة

فقدت الحرية في أن تفعل ما تشائين وقتما تريدن ..
الأشياء البسيطة التي يفعلها كل الناس .. دون أن تدخل في حساب
الخطايا .. أو في قائمة المحرمات .
حرم عليك في سجن أم عباس أن تفعل ما يفعله الناس . من أجل أن تبقى على
قيد الحياة بين الناس
وبقيت على قيد الحياة في سجن أم عباس .

يسرت لك اللقمة والرقدة . ولا شيء أكثر من هذا ..
هل تستحق الحياة أن نحياها .. دون أن نملك فيها ذنبا ؟ ..

في بداية الأمر مختار الحياة . مجرد الحياة

عندما غير بين الموت والحياة . مختار الحياة .. أيما كانت الحياة .

ليس لنا سبيل إلى الاحيار . عندما يعاقل بين اللقمة . مجرد اللقمة .
والموت جوعا .
يا مأكلة اللقمة أولا ..

يصحى من أجلها . بما يمكن أن يحتاج إليه بعدها ..

ولكن عندما ثبت أقداما على أرض الحياة . لا تعود اللقمة تكفيا .. ولا
تعبا

مركب الإنسان .. ها يختلف

الخيوان . غيرته في الحياة واضحة .. بين اللقمة . وعدمها . اللقمة لديه
أولا وآخر .

ولكن الإنسان بتركيبه المنفرد . ترداد احتياجاته وعلى رأسها حرته . بعد
اللقمة . وتصبح من الحيوية .. بحيث تعقد الحياة لحياتها بعمرها .. وتعود اللقمة
وهي وسيلة الإنقاء على قيد الحياة .. وسيلة للعذاب .. ونبت قيمة الحياة
وتتصاعد . حتى يتمسك الإنسان لو قلدها .. ويصبح الصياح خيرا لديه . من
البقاء الذليل .. في سجن الحياة .

ومن جديد عادت سيدة تقف على حافة الصياح . بعد أن انطلقت من
سجن الحديد . سجن أم مصور ودوريتها
عمرت بك الحياة يا سيدة .

لوحت لك بالأمل السراي .. بعد أن أمست إليها مع الأسرة الطيبة التي
أنتقدتك من سجن أم عباس .. ومن الصياح بعده .

أمست عصف الحياة في مأوى مريح مأثور . وبدأت تمارسين حقلك في
الأمل ..

أفد الأدمى يا سيدة .. أنه يأمل .

دائما بأمل . كلما حقق أملا .. تجد له أمل .

وأنت يا سيدة آدمية . أنت حياتك . ففتح أمامك طريق الأمل . العريق الخاص بإناء . المقروش بالورود . ورود الحرية . والسيادة . والنصرف . حياتك بإرادتك . تملين عندما تريد أن تعمل . وتستريحين عندما تريد أن تسترخين .. تخدعين بإرادتك وتسودين بإرادتك ..

فتح لك باب الطريق الخاص .. طريق المستقبل . طريق الحرية والسيادة . فاندعيت يا بلهاء غوغضين شعاره .

وإذا بك تمويين إلى فراغ .

وأظفت . لتجدي نفسك من جديد في غاي السحر

عبر معقول هذا . أبدا ..

أن تكون الحياة . حوايق سجون .. يقرر الإنسان فيها من سجن إلى سجن .

وفي السجن الجديد .. دئاب وجدت بيت صحية .

أفك غلام سب وجبت الشهية وامني . وترك بفتك لأمة غمارس بيت كل أنواع الكراهية والخطف

و انصرف عث فاتح باب المستعبر

جردت من كل ما حلاله .

مضهر حسدك . وأحد مصاعك . وانصرف عك عما

م يرص حتى أن يكون مصاحف

بل ركك نائته في السجن . ثم منصور .

وانصرف هو لفتح باب المستقبل لأخرى

بالسخرجات الحياة .. يا سيدة .

بات كل ما تأمليه من طريقك الخاص .. طريق الأمان .. طريق الأحلام

هو الخلاص

حي بعصك يا سيدة .

اتركي كل شيء .. وانجي .

انصري من فوق سور السجن .. ولو إلى الضياع ..

أي شيء أعون . من عين سجن أم منصور . وثانة انبا .

وأقبل ترام روص الفرج . بطين عجلاته تلف على القصبان الجديدة عند

الدوران . يجعل الأفواج الأخيرة من رواد مسارح الكسار وهورى مهب

ويوسف عر الدين . بقايا أحر الليل من الساعة السريخة والمتسكعين .

وارددت سيدة ريقها وهرت رأسها كأنها تعص عن رأسها بقايا كابوس

— إلى أين يا سيدة ؟

بعد أن خلصت من السجن .. ووقفت على حافة الضياع ..

إلى أين .. خطاك القادمة ؟

إلى الأسرة الطيبة ؟

في هذه الساعة من الليل ؟

تنتظرين إلى الصباح ؟ .. أين ؟ ..

في أي مكان . هذا الرصيف بموارأى جدار حتى تشرق الشمس

ثم تدهي إليهم ؟ وتحكي للسيدة الطيبة ما جرى ..

ثم تبقين عندهم ؟ ..

إلى متى ؟ إلى أن يأخذ بيدك .. ابن الحلال . ليقذف بك في سجن

جديد . ويسليك ما يكون قد نجح من أجرك ..

ثم من يدريك أن السيدة الطيبة تحتاج إليك بعد أن أحصرت خدمة

جديدة ؟

وهزت سيدة رأسها في ضيق وبأس ..

ليس من السهل عندما لا توقع خطانا إلى الأمام . أن ستدير لعود

القهقري .

لا شيء في الحياة يعود ثانية .. بمجرد أن مره أن يعيده .
خطوات إلى الأمام . لا تتبعها إلا خطوات أخرى إلى الإنم . مهما كان
الطريق الذي سلكناه .

ليس من سبيل إلى العودة يا سيدة ..

واصل خطواتك .. في طريقك الخاص .

ولكن إلى أين ؟ وكيف ؟ ..

لقد فقدت كل شيء ..

م تمودي تملكين سوى . هذا الجسد الذي يقف على الرصيف ليتلقى مسة
الليل الباردة .

جسديك يا سيدة .. هو كل ما تبقى لك .

وبرغمها انقلبت منها .. صحنكة قصوة مريرة ساخرة .

ومنى كنت تملكين سواء يا سيدة ؟

ماذا كان لديك أفضل منه .. جذبا وإثارة ؟

ومع ذلك فقد فشل في أن يخط لك طريقك الخاص .. ويضئ لك مستقبل
الذي أملت فيه .

قصصه الرجل الذي فتح باب المستقبل .. قصصه طيبة أشبهت . ثم
لمعه .

م تكن هذا الحب الشهى القشرة على استيقاظه . والامتداد عليه

كانت قيمته يا سيدة .. في أول قصصه .

وعندما اعتاد الفم طعمه .. لم تعد له قيمة .

ولصحتها سميت الليل الباردة .. فارغجت

المهم أن نحمل لك مأوى الآن يسترك .. والصباح وراح .

وتواعد الترام . برمارة الكسارى تقطع سكون الليل .. وبدت عربة
صغيرة مكشوفة تحمل بعض رواد الليل . وتندفع أمام الكيسة الإيطالية تملو

صرخات عجلاتها وهي تلف بصنف عبد الدوران .

ولمح ركاب العربة سيدة تقف تحت ضوء مصباح الطريق .

وهذأت العربة من سرعتها ثم استدارت لتعود مرة أخرى .. وتوقف أمام
سيدة .

ولفت سيدة شابا يقود العربة وبجواره فتاة تبدل شعرها على كعبيها وغطت
الأسباع وجهها وهي تهفقه صاحكة وفي المقعد الخلفي جالس شاب آخر يلقي
برأسه في استرخاء على حافة المقعد .

وهذه الشاب الذي يمسك بصجلة القيادة :

— ها .. تصيبك ؟

ويصر إليها الآخر نظرة غير مبالية ورد في استعجاب :

— يعنى

وقالت الفتاة ساخرة .

— يبدو عليها حدامسى ، خالص

ورد الأول متحملا .

— جيس هاك سواها مارأيك ؟

ويصر إليها الثانى بصرته غير مكترثة قائلا .

— أمى تقصى !

فتح باب سيدته قائلا في هجة الأمر

— ادخل يا بنت

تدحرج يا سيدة ؟ أم لا تدحرجين ؟ !

ولماذا لا تدحرجين ؟ !

دخلت عشة فراح ذات مرة بقرش .

ودخلت بيت أم منصور مرة أخرى .. ولطش مك المصاغ .

ثم هل يمكن أن يحدث لك شيء أسوأ مما حدث في بيت أم منصور ؟

(عن لأمروغ الشوك - ج ٢)

ادخل يا سيدة .

ادخل يا سيدة . وبلاش غيبة .

ادخل تجدى على الأقل مرأشا تامين فيه حتى الصباح .

وسيعطوك شيئا .. أى شيء ..

وإذا لم يعطوك . فهم لن يأخذوا منك .. لأنك لا تملكين شيئا

شيء

وول صحت دخلت سيدة العربية ..

واطلق سائقها فى عجلة يمدح بالريح بلطم وجه سيدة وصدرها .

واستدارت العربة مرة أخرى لتتحد عربةها إلى دوران شيئا .

وتنعت الشاب بخوار سيدة يمحسها وقد ذهب عنه استرحاؤه وعذ

مبالاته .

وازداد اهتماما بها وهو يمحسها خيرا عما توقع .

ومد يده يتحسس ساقها .

وبعير إرادة فصمت سيدة يده

مطر إليها فى دهشة وتساؤل فى عبط

— مالئت يا بنت ؟

وأدر كنت سيدة أب قد أخطأت التصرف فتمتت قائلة .

— ولا حاجة

وعاد الشاب يمد يده إلى ساقها يتحسسها . ولم تقاوم سيدة بل استسلمت

للهشوة وكان الأمر لا يعنها .

وعاد الدوران دارت العربة يسارا فى شارع شيئا وتجاوزت جامع

الخاريدر .. وكنيسة سانتا تريزا ثم دلفت يسارا فى أحد شوارع حدائق شيئا

وتوقفت العربة أمام فيلا صغيرة أحاطت بها الأشجار .

وقال الشاب الذى يسوق العربة لصاحبه :

— انصح الباب يا ابو تيمة وعذ لو احظ وصاحبك وادخلوا حتى أصبح العربة

فى الجراج .

وبرلت سيدة تنبع أبو تيمة الذى احترق الحديقة مع المرأة الأخرى وأصحت

سيدة سرعانا إلى جانب المرأة التى سارت تتختر أمامها بالكعب العالى والعسان

الذى يشد جسدها

وكانت سيدة ترتدى أحد الثياب التى مسحتها بإهاها مسيحة . وكان القدم قد

أحال لونه وأمل نسيجه . ومع ذلك فقد بدا جسدها واضح المعالم بطريقة جمعت

عرات اللامبالاة التى لقيها بها توفيق فى العربة تشد إلى كبرياله لتحسسها فى لغة

مرة بعد أخرى .

وصعدت سيدة بصح درجات فى مدخل الفيلا وفتح توفيق الباب ودخل

التلاثة إلى صالة صغيرة تشيع العوضى فى أرجائها تتوسطها مصددة عليها بقايا

الطعام وزجاجة بيرو فارغة .

واعتف أبو تيمة فى سحرية

— هذه عوضى الأستاذ عبد الستار

وبعد لحظة أقبل عبد الستار الذى نظر إلى الأثاث دبغر والمصددة عيبا بقايا

الطعام وقال عاصبا

— الله يحرب بيتك يا صابر . قلت له نظف المصددة واعسل الأظفار قبل أن

يذهب فلم يفعل شيئا .

ونمت سيدة لو أن مهمتها انحصرت على تطهير البيت وتقدمت بالعمل

لكى تحمل الزجاجة الفارغة وتجمع المنضدة .

ولكن توفيق جرها من دراعها قاتلا

— تعالى .. ماذا تفعلين ؟

— أنظف المائدة .

— أهذا وقته ؟

وجدتها إلى باب عرفة على اليسار .

وهتف عبد الستار صاحكا :

— ماذا العجلة ؟ .. كنت تبدو مستعبدا .

وصحكت توفيق وجذب سيدة من ذراعها قائلا :

— حل عني .. تعالى يا بت .

— ألا تريد أن تأكل شيئا ؟

— أكلت في الكازينو .

— تشرب لك كأس ؟

— شربت ما فيه الكفاية .. هيا يا بت .

وقالت لواحظ وهي تصحك في سحرة :

— يبدو أنها دخلت مزاجه .

ورد توفيق وهو يحيط بحصر سيدة بلزاعه :

— جيد .

وقالت لواحظ وهي تميز رأسها :

— كل فولة ولها كيال

وهتت سيدة بأن ترد ببساطة : له يا اداعلى .. ماشيش ؟

ولكنها كرهت أن تخاصم امرأة لا مبر لها . وتركت طرف المناقشة الأصغر

يرد عن نفسه .

وأجاب توفيق ضاحكا

— كان زمان وجير يا لواحظ . راحت عليكى بنى يا بت .

وردت لواحظ في تحد :

— هشر .. لواحظ ستبقى طول عمرها لواحظ .

وقال توفيق ساحرا بغير حياة :

— لواحظ ستبقى طول عمرها لواحظ . نعم .. لكن حصر السيادة

أصبح رى الكنية تلعبه على صباعك

وأصحك التشبه سيدة رعم كل ما هي فيه ، وتصاعد الدم إلى وجه

لواحظ ، وصاحت بتوفيق :

— اعترض . جاك قطع لسناك .

ثم التفتت إلى صاحبها عبد الستار قائلة .

— عاجبك الولد المجرم ده ؟

وقال عبد الستار وهو يهرها إلى حجرة مقابلة :

— هيا يا شحمة دعيكى منه .

وجذب توفيق سيدة من ذراعها وهو يقول :

— يا الله يا بت . ليس لديها وقت .. عبد الستار رجعل ملتزم .. هذه طير

يوكته الشهد .. لكن أنا راجل موقع . ليس عندي غير تراب الموى المخرج

فيه . ولا بد أن أضحى ببرى لكى أذهب إلى الديوان يا الله يا شاطرة .

ودخلت سيدة المحبرة مع توفيق أو أبو تبة كما كان يناديه صاحبه

ومرة أخرى وجلت سيدة نفسها وجبة تلهم .

عجبا يا سيدة . أمدا هو دورك الذى يصر القدر على أن تقومى به

وجبة تشتتى .. وقضمة تردرد .

مع عرب يترك إلى الفراش ليستطعمك .. ويستمتع بك لحظات . ثم ينتهى

أمره ممك . مد لحظات كفت تقعين على الرصيف لا تحدين لك مأوى .. وقد

يكون عيك مارال ينف على رصيف ما يهضر المأوى بلا أمل

ولكن جسدك صحك المأوى .

هذا الجسد يا سيدة . يجب أن تخصصيه لإرادتك . لقد كان دائما . عنصر

المجلب فيك ..

وعليك أن تواجهى به في تحد هؤلاء الذين يتطلعون إليه في هم .

لم يعد لك من ثروة سواه بعد أن غطش منك علام المصاع .. أكل

الوجهة . بلائى . وأحد ثروتك يأكل بها وجهة أخرى .. الكلب ليس الكلب

إذا أفلت من مصاصك .. على فلت عروء من الرجال . النسي يا أولاد الكلاب . على تفرط سيدة فى جسدها عجائبا ..

ومد توفيق يده فى الظلمة يتحسس جسدها .
وتركته يتحسس وهى متبقطة الحس متوترة الأعصاب . وهمس بها وقد تلاحت أنفاسه .

— اعلمى ..

وببساطة وحزم أجابته :

— التقود .

ومد يده يجذب ثوبها قائلا فى حدة .

— اعلمى يا بنت .

وبإصرار أجابته :

— قلت لك التقود .

وجلسها بصف نحو المرائش وهو يقول *

— بعدنى .

— لا .. أريد التقود أولا .

وانته توفيق إلى جاكته اتى قدف بها على أحد المقاعد وهو يروم قاتلا .

— يا بنت الرغضى .. ظننتك عشيمة .. أثاربك ساهية .

وقدف إليها بقطعة عصية وانحست سيدة فالتفتها من فوق الأرض ومحصنها فإذا بها خمسة قروش ..

خمس قروش .. أهلكنا يدهون .. يا سيدة ؟

إنك فى حاجة إلى .. حتى قرش . ولكن لا يجب أن تسلمى بسهولة . إنهم لا شك يدهمون أكثر من ذلك ..

عاس قال لها الكشة منك شلى فى وجهه تبركة ولكنه كذاب ابن كذاب ونظرت إلى توفيق وقالت باستحفاف .

— شلى *

وسألت توفيق فى دهشة وضيق :

— ماله .. قليل ؟

— لا يتقع .

وجرها توفيق إليه يتحسس صدرها وراد تلاحق أنفاسه وقال لها راجيا :

— ياقه .. بلاش ساكمة ..

— قلت لك لا يتقع .

وانته توفيق إلى جاكته وأخرج قطعة عصية أخرى وقدف لها بها قائلا :

— خدى .. الله يخرب بيتك

وأخذت سيدة القطعة الأخرى .

نصف ريال يا سيدة فى المرة

لو عاملت علام بيد السر .. لأصبحت ذات ثروة . ولكنك كمت

معتلة لقد التيمت . وأصبح هو صاحب الثروة .

ولكنك نعمت يا سيدة . والإنسان لا يتعمم بسهولة

وأقبل توفيق على الوجهة ..

وبدا كأنه يريد أن يأخذ بكل ما دفع . بالنصف ريال كله . وتركته سيدة

ببعض ما يشاء ..

فمت وعرق . ثم استلقى كالقتيل ..

ومع ضوء القمر للتسلل من شيش النافذة .. تسلل النوم إلى عينيها ..

واستيقظت سيدة قبل الضحى .

لمب ثيابها المتناثرة وعرجت إلى الصلاة فم تجد سوى لوحظ . وقد حسنت

على المائدة تحسى فحجما من الشاى .

وقالت لها بصوت بهجة التماس .

— صباح الخير يا ست لواحظ .

— خير عليكى يا حبيبتى .. تعضلى .

وجرت سيدة مقعدا وجلست لهالة لواحظ وتسايلت وهي تلتفت حولها :

— أين الجماعة ؟

— خرجوا .

— وتركونا وحدها ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— والشقة ؟

— بغلقها ونصرف .

— إلى أين ؟

— كل إلى مطرحها

وبدا الشرود على وجه سيدة .

إلى أين متذهبين يا سيدة ؟

لا بد أن يكون لك مطرح .. كما قالت المرأة ببساطة .

فتحت هؤلاء الثلاثى يتجهرن فى الأجساد . لا بد لى من مطرح يرحس فيه أجسادهن .

وغير معقول أن ندهى إلى الست فاطمة لتجد لك المطرح الذى تبيعين فيه جسدك .

سحرية .. وأهية سحرية .

ترى ماذا تقول السيدة الطيبة عن طريقك الخاص الذى يوت أد تسلكيه ؟

طريقك الخاص الذى تركت من أجله المأوى الآس .. ونرت من أجله على اللجام الذى كان يوصع فى عنك . وانطلقت لتحققى حياتك الخاصة .. وتنبى مستقبلك المزهى .

طريقك الخاص يا سيدة قد أنضحى طريقا عاما ..

لا يبعثك يا سيدة .. فهذا خير ألف مرة من جحر أرم مصور . العلى الملىء

بالنساء والضعينة ..

ماذا يمكن أن تقول عنك أم مصور ؟

لتقل ما تقول .. فهو ما ما ستجمع ثروة . وستدلهاهى وابها .. إذا كانت لم

تستطع أن تقارن السيادة بمحدودها الصيقة .. مستارس السيادة على أوسع

مطاق ..

ستصبح سيدة هالم ..

لا بل ستلقى اسم سيدة من سجل حياتها .. ستلقى لها اسما .. ككل

هؤلاء السيدات .. سيلة .. سامية .. ليل ..

وانطلقت سيدة ترسم معالم المستقبل الوردية .. وجذبها لواحظ من عليائها

وهي تقول :

— يا لله يا حبي بيتا .. الوقت تأخر .

تأخر عن ماذا ؟ .. ليس لدى سيدة ما تنفله . ليس الزمان مشككتها ..

ولكن المكان ..

إنها تريد مطرح ..

وهي تحتاج إلى دليل ..

وسألت لواحظ فى تردد :

— إلى أين متذهبين ؟

— إلى البيت ..

— هل عندك بيت ؟

وأجابت لواحظ فى دهشة .

— عندى بيت ؟؟؟ طبعاً عندى بيت ..

وصمتت لواحظ برهة وهي ترقب سيدة فى شرودها لم سألها .

— وأنت . إلى أين تذهبن ؟

وهزت سيدة رأسها

— لا أعرف .

— أليس عندك بيت ؟

— لا . ليس لي أهل .

— لا أقصد بيت الأهل .. بل بيت الشغل .

— بيت الشغل !!؟

— أليس ذلك بيت تعملين فيه ؟

— لا .

— ألا تعملين مع أحد ؟

— لا .

— إذن كيف تعيشين ؟

— لا أعمل .

وبدا المصعب على وجهه لواحظ وقالت لها متبرمة :

— اسمعي يا بنت .. أنا لا أحب الملاوغة .

— لست ملاوغة .

— تقولين إنك لا تعملين ؟

— أجل .

— توهيق قال بنت مرقعة . وبنت طليت القنود قبل أن ترقدى معه

— أجل صمت .

— إذن أنت لست هاوية .

— إنها أول مرة أقعلها

— ولماذا طليت القنود سلفا ؟

— لأني خشيت أن يعضحك على .

— إذن أنت تعملين بشود .

— قلت لك أول مرة أقعلها .

— وماذا أوقفك على الرصيف بعد نصف الليل ؟

— تعاركت مع زوجي وأمه .

— وهل يدفعك هذا إلى الخروج إلى الشارع لتصيد الرجال ؟

— لم أخرج لأتصيد الرجال ..

— خرجت لماذا إذن ؟

— هججت من البيت — بعد أن طلقني .

— ولماذا طلقك ؟

— لأني رصت أن أبقى معه .

— ولماذا ؟

— لأنه أخذ مصاغى وتزوج على .

— وسهل عليك أن تقعي عن الرصيف وتركبي مع أول رجل ؟

وهزت سيدة رأسها وقالت في بأس :

— بعد أن صلي على علام ما فعل .. كان سهلا على أن أفعل أي شيء .. رقدني

مع علام لم تكن أقصبل من رقدني مع توهيق . كان توهيق أشرف .. دفعني ما

أعد . لم يراعى ولم يهتني .. ولم يرمي لأمه لتسبني .

وتهدت لواحظ وقالت :

— الدنيا لا ترحم أحدا .. لكل بهواه

وترددت برهة ثم تساءلت :

— ما اسمك ؟ لم أعرفه حتى الآن ؟

— صيدة .

— وأين كنت تعيشين يا صيدة قبل الزواج ؟

— كنت أعمل في بيت ماس طيب .

— وأين أهلك ؟

— ليس لي أهل .

— لا أم ولا أب ؟

— ولا أخ ولا أخت .

— وفريدين اللعاب معي ؟

— هل أستطيع ؟

— لم لا ؟؟ جرى حظك .

— وهل أنت مبسوطة ؟

— قمت لك لكل بلواه . ولكن . ماشية بالطول أو بالعرض

— سأذهب معك .. هيا يا .

— اشرفي فنجان شاي .. وكلل لقمة .

وخادرت سيده البيت مع لواحظ .

تقدمي يا سيده إلى قدرك ..

ما دمت قد عطلت . عسى العسير أن تعودى القهقري .

جرى حظك كما قالت لك المرأة ..

عوصى طريقك يا سيده .. وعيشى حياتك .. فلملها لا تكون سجيناً

جديداً .. تلقى بنفسك في غياهبه .

(٢٩)

صاحبة مهنة

تقدمت سيده بإصرار في طريقها الخاص أو العام . بعد أن حففت من
سحب الزوجية في الميصة الذي شذت فيه السيادة والحريّة . فلم تجده به سوى
البلدة والاستعداد . وبعد أن قررت ألا تعود القهقري إلى لحام الخدمة مهما رف
وحا .

ذهبت سيده مع لواحظ إلى بيت الشغل لحرب حظها وحملها ترام مرة ٨
من حقائق شبرا .. عبر المخطط إلى شارع كلوت بيت دى البواكى والأعمدة
الصغيرة وتوقف التراء في إحدى المخططات فجدبت لواحظ سيده من رسمها قاتلة
في عجلة .

— يا لله يا سيده .

وهبطت سيده من الترام وراء لواحظ لتواجه السلام العربية التي تؤدي إلى
أحد أرفق الشوارع الضوايل . وقد تربعت عليها إحدى تعرض سابقها الضوايل
المكسرتين . وتدعو المارة بالتفصل لتسبابة .

وأحست سيده لفتة بانقباض .

إلى أين تذهين يا سيده ؟

تبحثين عن الحرية . والسيادة . اللتين عجزت عن الحصول عليهما في كل
ما مر من سنوات عمرك .

تبحثين عليهما .. ها * وبأى نفس ؟

لا يبيم المكان يا سيده . ولا يبيم النفس

المهم أن تجديهما

فأى مكان . تجدى به حربك في التصرف . وغارسى فيه قدرته على
السيادة سيكون مكانك المفصل ومترك اختيار .
وأى شيء تدعيه يا سيده .. نرى يكون كثيراً . من أجل الحصول على الحرية
والسيادة حتى ولو كان الثمن جسدك يا سيده ؟؟
جسدك !!؟ ولم لا ؟ وأى شيء قللكين سواء . حتى يكون لك الخيار في
التعامل ؟

ثم إنك تعاملت به من قبل
مرة .. بقرش .. دون أن تدري كي .. قيمته الحقيقية
ومرة .. بعد أن عرفت قيمته الحقيقية . وأيت إلا أن تقدر به بقدره .. معن
الروح . فدعيت به إلى هلام ظلمته . ولطش الصبغة . ولطش معها .
كل أمل في الحرية والسيادة . وكفى بك إلى أمه تسومت الهوان
ماذا لأن في أن تعامل به .. من أجل .. أمل جديد .. في الحرية والسيادة
ولكن هل ستحصلين عليهما .. هذه المرة حقاً يا سيده ؟
هل تصبرين ؟
وأى ضمان هناك في هذه الدنيا لأى شيء ؟
ليس عليك إلا أن تجرى ..
جرى حظك كما قلت لواحظ .. وبها طابت — عى رأى المثل — يا اتد
عور .

تقدمي يا سيده ..
ماذا ورايك حتى تخشى عليه ؟
ومن ورايك حتى تخشى منه ؟ ..
ليس لديك يا سيده سوى هذا الجسد . محوصى به المعركة . معركة الحرية
والسيادة . فقد فرضه التقدر عليك ..
قوتك بجاديتيه .

نحرك الأبصار به في الطريق . برجرجة صدره . واهتزاز ردهيه
فرست عليك .. جاديتيه .. ولم يعد الناس يروى من قدر لك غيره
فلماذا لا تتعاملين به ؟ ..
صاحب مأكية الطحين . وصاحب عربة التاكسى . يتعاملان بما
يملكك . ولو كانت لك مأكية طحين أو عربة تاكسى . لتعاملت بهما مع
الناس .

ولكنك يا مسكية لا تمكين عو هذا الجسد .. وسيلة لتعامل .
وتعالى من جورها صيحة تهليل وتصفيقة إعجاب .
— يايت يا لى زى الملبس .
وجلبوه صوت آخر :
— أموت في الكورع .
ودلعت بها لواحظ من رفاق إلى رفاق . وسفن نبوت الحقيقة قامت
وكاكرين . قد غطت واجهتها ستائر وجسدت أمامها سوة لا يستر أجسادهم
سوى قميص رقيق شفاف يتبادس الحديث والوداد . واشترت مقدسى
واحانات .. يتشاعل أصحاب برص مقاعد ورش الأرض وبياب بعضها جس
بعض الرجال يدخون الشيئة واستقرت بعض السوة في استرخاء يتهدل
شعرهم وغلاً لأصابع وجوههم .
وملاأت أنف سيده رائحة عيط من العفن والأنداس والعرق والخمر
والدخان

ومن جديد عاودها الاتقياض .
أما تجدين الحرية والسيادة يا سيده ؟
وكرهت أن تعود مرة أخرى إلى الخلفهاتى لا تتنبى .
ها . أتى أى مكان .
أتى إلى ستأخذين الحرية . وستعرضين السيادة .

عائلي يا سيدة ..

وتوقفت لواحظ أمام أحد البيوت . حجرى المجددات يشرف على صفحة عربية . أعرض من الرفاق . ويشمل طابقه السفلى مفهى تنتشر المقاعد فيه بعرض الفسحة حتى تكاد تسد الطريق .

وصعدت لواحظ الدرج . وتبعها سيدة . وقبل أن تصل إلى باب الشقة في العابق الثاني انخرص طريقهما رجل طويل القامة عريض المكبي والكمبي يمشي جسده الصمغ جدياب بلدى يجمع أمامه كرشه البار ويلف رأسه بلاسة بيضاء صفراء الفوش ومن فتحة الخنياب يمدو الصدرى المنحط وقد عنتت فيه كتية ذهب تحمل ساعة الخشب .

وسعل الرجل سعة اصطباغ القوة والرجولة ثم ألقى التحية بطريقة متعالية

— صباح الخير يا ست لواحظ .

— خير عليك يا معلم أبو زيد .

وأحد الرجل يحاول إطالة الحديث ليلقى مرید من العظرات الماحضة على وجه سيدة وجسدها .

— أين كنت ليلة أمس ؟

وردت لواحظ بالقتصاب وهى تحاول أن تفسح الطريق الذى سده الرجل بحسده .

— كان عندى شغل .

— بيانى ؟

— أجل .

وعاد الرجل يتحسس جسد سيدة بعينى هتيتى

— ومن هذه ؟

وأعست بظرات الرجل إلى سيدة فردت بمحاولة أن تسى الحديث .

— صاحيتى .

— تشرقا .

ومد يده بمحاول أن يصفاح سيدة ..

ومدت سيدة إليه يدها مأتقاها فى يده .. وقال متنعها

— أهلا وسهلا .. اسم الكرم ؟

— سيدة .

— عاشت الأسمى يا ست سيدة . نورى الخلل .

وسمحت لواحظ صوتا يطر من داخل الشقة متسائلا :

— من تكلم يا أبو زيد ؟

وصاحت لواحظ فى قلق وهى تدفع أبو زيد من أمامها .

— اصبح الطريق يا معلم .. ودع البت فى حالها . المعلمة توحيدة ..

وقاطعها أبو زيد فى غير اكترات :

— ماها المعلمة توحيدة ؟

— إذا خرجت سترانا .. و ..

— وماذا إذا رأنا . نحن لم نكفر هل نجمة الصبوع مجموعة ؟

ومرة أخرى تعالى صوت توحيدة من الداخل :

— أبو زيد ..

وصاح أبو زيد فى غيظ :

— ماذا تريد من أبو زيد يا وية . كأن عيبك عمرى اسمك أبو زيد ؟

وسمع وقع خطوات راحمة متعائلة وما لبثت أن بدت المعلمة توحيدة كتنة شحم بيضاء يحد أسفها حلحال دحل فى طيات لحمة السمى ويحد أعلاها كور من الشعر للصبوغ بالحنة الحمراء .

ثم يكذب وقع بصرها على لواحظ حتى انطلق من شعنها سيل من الأسئلة لا ينتظر جوابا :

— أهى أنت ؟ أين كنت حتى الآن ؟ ومن التى معك ؟ وماذا أوفعكم

مع سلامته ؟ مائت جها يا أبو زيد ؟
 وهبط أبو زيد المرح وهو يرمط قائلا
 — يا بهى هو الكلاء حرم ؟ لقد أصبح الإنسان يعيش في سحر ؟
 وصاحت توحيدة ناهرة :
 — ألا يعجبك سحر يا أبو زيد ؟
 وأجاب أبو زيد وهو يمدحها بها المرح ليتحد مكانه المتعاد في ركن المنهى
 — انتبهيا ..
 واستدارت توحيدة إلى الداخل تنبهها لوحظ وسيدة . وألقت سيدة نظرة
 حاططة على المكان . فوجدت صالة صبيحة تنوسطها كنية وبصعة مقاعد
 أسيرطي ولي المواجهة مائدة تطل على سور وصحت على حائط صبيحة قلل تاترت
 في قاعها بصع بموالت وبجوار العبيبة وصحت بعض أحسن ربحان وعتر وبنت في
 إحداها ليلالة تسلفت حافة المائدة
 وترهت العظمه توحيدة على الكنية وعظفت حشب الكنية تحت ثقبها
 ونظرت إلى سيدة نظرة فاحصة وعادت تسأل
 — تبقى من سلامتها ؟
 وردت سيدة ببساطة :
 — نعمي سيدة
 ولم يعجب الرد للعلمة توحيدة ونظرت إلى لوحظ كأنها هي المعنية بالسؤال
 — حكايتي إليه ؟
 — عايرة تشتغل .
 وعادت توحيدة تتفحص جسد سيدة ثم قالت وهي تير رأسها .
 — وماله
 ثم وجهت السؤال إلى سيدة
 — سبق لك الشغل يا شابة ؟

— لا .
 — نعمي عشيمة ؟
 وأحابت لوحظ :
 — لا يا معلمة .. دى تمجيك .
 ونظرت توحيدة إلى سيدة وأصحت لها مكانا بجوارها قائلة .
 — قرى يا شابة . اقعدى ..
 واتحدت سيدة مكانها بجوار توحيدة ومدت توحيدة كلها تتحسها
 كأنها بصاعة تتحصها وقالت متسائلة
 — احكي لي يا . قلت لي اسمك إليه ؟
 — محسوت سيدة
 — حليكى برحى أحسن والا إليه .
 — أمرك يا معلمة
 — نعميى قول لي إليه بقى حكايتك ؟
 وقصت عليها سيدة حكايتها ..
 وفي النهاية هرت المرأة السمية رأسها ومصصت بشفتيها ل أسف وقالت :
 — عشة علب
 وتهدت لم أردت تسمي
 — كنه محصل بعضه . المثل يقول نام على الحب اللى يربحك . وهو احد
 يتقلب على الحب ده مرة . واحب ده مرة . سكن الأرض هي اللى ما
 تترجش عمر السن آدم ماتت يستريح فوقها بقا . حيا يحصل نيران نعاية ما
 تلمه جودها . ويعطى . أى حب . حابر بجه .
 كلام لا يرخ يا سيدة
 وضع دلت .. صليك أن تجرى الخباب الآخر . فعلمه يكون أفضل من
 الخباب الذى جريته .

واستقرت سيدة على الخاب الجديد . باسم مرجس .. في بيت الشعل
مع رميلات لها . روبة . وعليات . ونحية ورور . وأخريات - جرس
ودهن ..

ومع الأيام ذهب عنها ما كانت تشعره من استحياء . واستعراب والتحد
الأمر طابع العمل البحث .. بكل ما فيه من سيات وحسنت
استخرجت ترخيصا رسميا من الحكومة . كصاحب أى حانوت . أو
مقهى .. أو عربة . وأصبحت تمارس مهنتها كأى صاحب مهنة . بكل ما في
المهنة من منافع التعامل مع الناس . بما يحتمون من متاعجات . ومساوىة
وغرائب في أعماقهم .

ونجحت في مهنتها .. فقد مارسها بغير ما تحدث من موانع . بحسبها -
الدى حملت عنه مد أن بنت بروراته وهي بعد طعنة تعلم في أرقعة السيدة بين
المدبح والخليج والسد البرالى .

ومع ذلك . فكثيرا ما سألت نفسها وهي ترقد في إحدى حجرات بيت
توحيدة .. في آخر الليل .. على فراش غلا .. من الصلابة .

كثير أصبحت يا سيدة . بثوب مرجس الذى أحكمته على حسدك
لتخفيه . لكل طالب *

أبى أنت من الحرية .. والسيادة ؟

الحرية !! والسيادة ؟

إنك لم تعودى تلتكبر من نفسك ومن وقتك . ما يحبك حتى من التصحر
فيها .

طوتك أيامك التى تعلم في أعقاب ليلائك . ولياليك التى تطويها أيامك .
حتى م بعد بك ما يجر إلى الحرية . أو يرق إلى السيادة .. حتى ساعات الرقود
التي كنت تملكها في أشد أيام الاستعداد في حياتك .. مع لم عباس . حيث
كنت لا تنفون مع نفسك إلا وأنت على فراشك في أرض المنطرح . حتى هم

الساعات قد حرمت منها ..

ليس عندك ساعات محددة للرقاد .

ليس لك فراش خاص يا سيدة . ولا حتى في مطبخ . لأن فراشت هو
مكان عملك هو مفتقى رباتك ليس من حقك أن تخل فيه إلى نفسك
فقد أصبح مكانا عاما . من حق الرباتى التعامل معك فيه ، في أية ساعة من
ساعات الليل أو النهار .

وبصاعتك .. جسدتك . نفسك . لا تستطيعين التصرف فيه بإرادتك أو
التحكم فيها حسب رغبتك

بت وجة .. لكل من يشئ

من حق الرباتى أن يخاروك ..

وليس من حقك اختيارهم . أو الفاصلة بينهم . أو رفض من ندمه
نفسك وقبول من يروك ..

لا خيار لك في الأمر ما دام قد اتفاق ودفع ثمن - فالمسألة معاملة -
وعليك أن تسلمي البصاعة

ومع ذلك فقد سارت الأمور طبيعية

واعتمدت عملك كما يعتاد كل إنسان عمله . بكل ما فيه من مشقة
وتسلي .

وحياتك الجديدة .. على كل ما فيها من غرائب م تعد مع الأيام غريبة بعد ما
عرفت كل ما فيها ومن فيها .

عرفت أن أبو زيد هو ريق المعلمة توحيدة .. وأن عمله هو الجلوس مهرا على
المقهى أسفل البيت الذى فتحته توحيدة له لكي يصبح معلما .. على أن يمارس
عمله الحقيقي ليلا مع المعلمة

والمعلمة تصرف عليه كل ما يدخل لها .. ولا ترصد له طلبا ما دام لا يلمح
بذله .

فإذا ما نصب عليه لا ترى إلا نور
وأبو زيد عليه فارعة ورأسه فارعة ..
أعصه الله في جسده .. أخذ من رأسه ..

ومن أجل هذا تعودت المعلمة صبطه بين آونة وأخرى متلبسا بمسلمات بعض
أو نحسب .. أو محاولات التباهي بمسوة البيت ولا سيما الجديدهات من ..

وقد كان أبو ما قدمت واحده سيدة من تحذيرات هو :

— خدى بالث يا سيدة .. قصدى يا مرجس .. من المنال على عينه أبو زيد
أصله راجل عليه فارعة . ويبش . والمعلمة يمكن تسامح في أى شيء .. إلا
أبو زيد .. يعنى تسمسرى في العلوس .. ممكس . تاعدى موعد من ربو
بره .. ولا تعطيا العسولة ممكس .. لكن أبو زيد لأ ..

ولقد حاول أبو زيد معها مرارا

فقصها من صدرها مرة وعلى في السب . واحتضنها مرة أخرى وعلى
المسألة .. ودعته يمتص وهرت منه في جرع قاتلة

— حل عني يا معلم .. بلا مصاب .. إحننا مش حمل المصمة

ورد عليها أبو زيد في حيط

— ومن سيرف المعلمة ؟

ثم يتركها ساعطا ليهبط إلى مقره في القهى .. يذبح شيشه ويسمى
الطاوله .

وعرفت سيدة المعلمة توحيدة بكل ما عيا من مشاقصات المرأة . سر
المصعب وطية القلب . والعباء والسكر . والحنان والكرامية
وعرفت سيدة الكثير من الرياض . تلاميذ وجودا وموظفين وغبارا . عن
ومعروحين ..

واشتقت صمم من التفت بعاس . بين أنه عاس
سمعت على الباب جفا فافتح ووجدت أمامها عاس برأسه الصم

وشعره الأكرت وشارب وريق على بروز شفته العليا .

وغفر عاس فاه من الدهشة وهو يصيح :

— من ؟؟ سيدة ! .

وهضت سيدة صائحة :

— عاس !!

— مش مقول .. ماذا تفعلين هنا ؟

ونظرت إليه سيدة وأجابت في تحد متسائلة :

— وماذا يعملون هنا يا ماس عاس ؟

وهض عاس صاحكا وقال في حماس :

— حلو .. جرت يا سيدة كما حلال لك .. ثم استقررت أحمرا في موضعك

الحقنى .

وصمت برهة وهو يحدق فيها وأردف قائلا :

— كنت أعرف .. أن اللقاع لا بد أن يستقر بك هنا .. أجل يا سيدة هنا

مكائنك — حرام أن تضضى حياتك سدى .

وتهدت سيدة ثم قالت له في هدوء :

— وعدين . ماذا تريد الآن ؟

— أكن تدعلى ؟

— لماذا ؟

— لأصل ما يفعله الناس

— هل معك نقود ؟

— معى يومات .

— من أين حصلت عليها ؟

— اشتريتها بعلوسى .. اتصحي يا سيدة وبلاش طاشة .

واتصحت له سيدة الطريق فدخل وهو يقول .

— ماذا تنظري ؟ . هيه ؟ .. أنا لا تملأ حتى المعلمة تملأها .

— إذن انتظر حتى تأتي المعلمة

— ليس لدى وقت للانتظار .. تعالى بها .

— أين البون ؟

ووضع عباس يده في جيبه وأخرج دفترًا صغيرًا ألوح لما به . وكانت سيدة تعرف أن المعلمة توحيدة قد صنعت دفاتر بها بوابات محصنة لبرائات المستديين ولكنها لم تكن تعرف أن عباس من هؤلاء البرائات المستديين وإن أدركت من طريقة إقواله على ذلك أن أنه ليس عربيًا عنه . ولا سيما عندما أقبلت نحوه ورور لتتفقد به :

— بيلك يا عباس أين كنت خلال هذه الليلة الطويلة ؟

ورد عليهما عباس في صداقة وبغير كلمة :

— الدنيا تلاهي يا توجة .

وردت نحوه وهي تغمر بهما :

— ما حبا كان من تلاهي الدنيا يا عباس .. !

ورأته يقبل على سيدة فتسألت :

— أنت تعرف نرجس ؟

— نرجس من ؟

وأشارت نحوه إلى سيدة وأردفت قائلة :

— أمهل يحي داخل حديق عليا له ، ومن غير لإحم ولا دستور ؟

وتسألت عباس في دهشة :

— قصدك سيدة ؟

— هو أنت عارفها من أيام ما كانت سيدة . بقي ما لمعللكش .. عي

إذنت

ولمعت نحوه وعظ عباس إلى سيدة مستأثلا :

— وكان بقيتي نرجس ؟

— ولية لأ

وهو عباس رأسه وقال ساعرا :

— والله اتجنرنا يا سيدة .. الله يرحم عشة العراغ .

وتبدلت سيدة في صبر نافذ وقالت :

— اسمع يا عباس . لا داعي للكلام الذي ليس له لزوم ..

— أنفضيت يا سيدة ؟ .. قصدي يا نرجس .

— ولماذا أنفضيت ؟

— حلفت على . طول عمرتنا اصحاب .. هل لذكرين آخر لقاء لنا عي باب

حارة السيدة ؟

— عندما كنت أشتري اربادي ؟

— مالمصيط .. م تسمى يا سيدة .

واقرب عباس منها ووضع يده على ساقيها فلم تحرك ساكنا وعاد يتساءل

— لم تقول لي .. ماذا قدف بك إلى هنا ؟

— هم الدنيا

— كيف ؟

— حكاية طويلة ..

— إحك لي .

— ليس هذا وقته . وانت ما هي أخباركم ؟ . كيف حال خالتي أم عباس ؟

ومنتهى البساطة رد عباس

— تعيش أنت

وأحدثت سيدة بقوله وصبرت على صدرها وهتفت قائلة :

— خالتي أم عباس ماتت ؟

— حد ستري

— فقد يرحمها ويحس إليها .

ثم عباس . بكل ما فيها من قوة وعف وقسوة وجلد . قد انتهت هي لأحرى إلى لا شيء . راحت كإراح أنوها . وسى محمد . أنها كانوا . وكان حلقهم وقدرتهم . ومهما كدوا ومهما جوا عما هم إلى لا شيء .

وكل شيء . حولك . بما فيه أنت مآله إلى لا شيء !

ومع ذلك علمت أن تخصى عمار الحياة .. وتحصدى شوكا لم ترعه . وتواصل الحصاد بصرار . ويدهم الشوك يدهم وقدميت وتسوأم الحصاد . وكأنك تسير إلى شيء .. مآله في النهاية إلى لا شيء ماتت أم عباس ..

وكم تمثت لها دنوت .. في ساعات العذاب الذي سامنت إياه . كانت توظفك برخصة من قدمها في ظهرك .. أو جعدة من يدها صماتك . وكان اليوم لديها وتلك يا سيدة .. كان نعمة تصيبها وما زال حتى الآن . ثم الراحة والاسترخاء .. دون أن تفعل أي شيء . منعة ما بعد نعمة .

كم تصورتي لأم عباس شئ أنواع الموت .. تصورتي مرة وهي تبوي من فوق السطح . ومرة تصعب تحت عجالات الترام . وأحسيت راحة كبرى وأنت تنفصم لمصمت بها بالوجع . ومع ذلك كنت تخشع ألا يمع بها سقوط من السطوح ولا دهس بالترام ..

ومع ذلك .. انتبهى صدرك عندما أعبرك عباس أنها ماتت ..

ألا الزم قد مسح سيناتك من دهشت . وبما ما كان من حقد عليها في قلبك ؟

ثم لأن أسية الموت لا تعدو أن تكون أمية . مروح بها عن بعضنا . دون أن نعرؤ على قبول تحقيقها بالفعل .

رحم الله أم عباس . لقد أديت في حق سيده . وبكيا لا تمث سوى

الرحم عليها ..

ورد عباس مرددا قول سيدة :

— الله يرحمها .. ذهبت وتركتني .. لا يمس . في الحياة

وردت سيدة متسائلة :

— كيف .. وأين أبوك ؟

— أنت تعرفين أبي وسخافته .. يريدني أن أعمل .. ويأني أن يعطى مليما

واحد . بلا عمل ..

— ولماذا لا تعمل ؟

— أعمل ماذا ؟

— تعمل ما يريد .

— يريدني أن أجلس في المطبعة من طاعة الشمس إلى اندس

— ولماذا لا تعمل ؟

— ولماذا أعمل ؟

— لكي تحصل على القود .

— ولماذا .

— لأجل أن تحيا .

— ولكن لن يكون هناك وقت للحياة .. سأذهب إلى البيت متعبا .. لأنام

ولكني أستيقظ مكررا . وتصبح القود التي أخذتها بعد ذلك لا قيمة لها .

— أليس لديك وقت للراحة ؟

— أبى يعمل ليل نهار . إنه يحب المصيبة أكثر من أي شيء .

— ولماذا لا تفعل مثله ؟

— لأنى لأنى لأحب المطبعة .

— هذه هي مصيبتك يا عباس .. قال لك أبوك مرة .. يجب أن يحب الإنسان

عمله .. لا يكتفى لكي ينجح أن عمله . بل يجب أن يحبه .

ونظر إليها عباس متأملاً وقال :

— وهل تحب أن تخدمك يا سيدة ؟

— أتعلم ..

— وهل عجمت ؟

وهزت سيدة رأسها بالنفي وقال عباس متسائلاً :

— ولماذا ؟

— لأنه لا يحب .

— كيف ؟

وصمتت سيدة برهة وبدت عليها الحيرة وهي تحاول أن تبحث عن الإجابة

لما لم تستطع أن تجيب عمتك يا سيدة .

ألم تروى نفسك . أن هذا الجسد يمكن أن تتعامل به كشيء منفصل عمت

كأكية الصحن أو عربة الأجرة ؟ . ولكنه يا سيدة ليس كذلك ..

إنه شيء أعز . شيء يستحق معاملة أفضل ..

لا يمكن أن تتعادي مهاتته ..

أو تحي مهة عرصه ..

إنه يحتاج إلى تكريم .. وتقبل . وإعزاز .

من أجل هذا لا تستطيع أن تجيب عمتك .

تقبله للحاجة أجل . ولكن تحببه .. لا .

لشد ما حدثتلك التجربة . في الحصول على الحرية .. والسيادة . ما أبعد

التجربة عينا .

إنها تستطيع أن تحقق لك أشياء كثيرة إلا الحرية والسيادة .

ومع ذلك لا تمكن سوى الصبر ..

علم بعد أنما كنت إذا مواصلة التجربة . وهي بعد تبحث التوقد وتستطيع أن

تجمل القرش فوق القرش . تصبح مرة أخرى صاحبه ثروة .. وهذا

المرّة .. ثروتك أكبر .. ولن يستطيع أحد بعد تجربة عمام .. أن يتحدث

وبلغتها منك .

ومد عباس يده يمدّها من ذراعها وهو يمدّ تسألوه :

— لم تقول لماذا لا تحب عمتك ؟

— لأنه لا يحب .. وكفى ..

— بل لأنه ليس لك رجل ..

— ماذا تعني ؟

— كل امرأة يجب أن يكون لها رجلها .

— لقد حصلت تجربة رواج لا أريد أن أكررها .

— لا أقصد رواجاً .

— ماذا تقصد إذن ؟

— تقصد أصرف عليه كما تصرف توحيد على أبو زيد ؟

— ليكن .. ماذا في ذلك ؟

— يفتح الله .

— لماذا ؟

— لأنني لست كتوحيد — توحيد معلمة — وأنا بأخوتك مستعدة في

القرار ..

— ولكني سأفعلك .

ونظرت إليه سيدة في سخرية وتسايلت :

— أنت ؟

— ألا أعجبك ؟

وردت سيدة صاحكة وهي مستمرة في سخرتها :

— مكانش يتن .. يا عسى .

— طول عمرك .. ليس لك في الطيب نصيب .. هيا بنا ..

وسحبها إلى داخل الحجرة

ومدت سيده يدها قائلة :

— إيدك .

— على ماذا ؟

— على الیون ..

— بعينى .

— لا يا حبي .. ليس هناك بعينى .. الدفيع مقدما .

ومد عباس يده إلى جيبه فأخرج النحر وقطع سه ورقة وسلمها إليها ودخل
الألبان الحجرة .

(٣٠)

عملية تزوير

في آخر الليل . وبقايا رواد الحى يتأهلون في الطريق . وصيحاتهم المضمورة
تختلط بصياحهم . وأبو زيد يصعد الدرج لا تكاد أقدامه تقوى على حمل
جسده الضخم .

والمعلمة توحيدة تجلس متربعة على الأريكة وقد بدت الحية في قدمها وغرس
الحلخال العصي في طبقات الشحم المكدسة في سابقها .. وأمامها اصطفت
صياتها يقدمن إليها حساب اليوم .

وانتهت لواحظ وجهالات ونحية ورور . وجاء الدور على سيده .

وصاحت بها توحيدة :

— وانت يا روح أمك ؟

وأحسست سيده بلهجة الخصومة في سؤال توحيدة . ولم تستغربها . فقد كان
العبي أبو زيد مصرا على أن ينافا .. على حد قوله « بالذوق أو بالعامة » . ولم
يكن يحول بينه وبين أسلوب العامة . سوى خوفه من توحيدة . ولكنه لم يكن
يترك فرصة تلمت دون أن « يقط « بها « قطرة » . تحسب « .. أو قرصة .. أو
قبلة

ولم يخف الأمر على توحيدة .

وشى به إليها .. رميلات سيده .. اللان لم يعجبن . أن بت معصومة
كسيدة .. تبذل في عملها الذى مارسه منذ سنوات . وخبرته وبرع فيه
ومع ذلك ما فتت مد أن حلت بالبيت تلطش الیون إثر الیون . حتى أبو
زيد . المقروص أنه راسى ومتودك .. قد أدارت رأسه . وسال لعابه عليها .

ولم يكن بها في ظهرها ما يجيرها . ومع ذلك كان لها بخت ..

وعلمت لواحد على نجاح سيدة بقولها في شيء من السحرة :

— والله وعلقت يا سيدة .. يوه .. قصدي يا رجس .. ما تأخذميش يا

احتى .. فلست أنسى يوم التقطاك من على باب حارة الميصة .

وأدارت رأسها متحمسة :

— ناس لما بخت .

ولم تكن سيدة نفسها تحس بهذا البخت ..

على النقص . كان عشا يتقش كاهلها . وينقص ظهرها .. ويلهبها بقايا ما

يمكن أن تصحها إياها لحظات الفراغ التي تسترقها من أيامها وليلاتها .. من حرية

الاسترخاء والتذكير والشهود .

ولم تكن تحس بمدى ما تحصل عليه من نصيبها في العمل .. وما تجمعها من

قروش فوق قروش .. فقد كانت لطفتها على أن تجد نفسها وحريتها وسيادتها على

وقتها وإرادتها . أشد من لغتها على هذه القروش التي تتجمع في درجها يوما بعد

يوم ..

ولكن رميلاتها .. كن يمسحها على القروش . وعلى الزبائن الذين أعذب

سهم القروش .. فقد كن يشعرون . أنها مدتهم من .. وأنس أول ما بكل ما

يملكون من دراهمة وخبرة وتجربة .

وهكذا التقى حسد الرميلات لسيدة .. بحرف توحيدية وغلقت بها .

ولم تكن سيدة تعرف كيف تنجب خصومتين أو تنفيا .

لم يكن لها يد في إقبال الزبائن عليها .. ولا كان لها ذب في لغة أبو زيد عليها

وردت على توحيدية تحاول أن تستر صبيها وهي تمد يدها بحصة نقود .

— غماية يا معلمة

وراحت توحيدية تمد النقود ثم هفت متسائلة في ضيق :

— هذه حصة فقط ؟

— أجل .. وثلاثة بوبات .

— من ؟

— من الشاويش جاد وفرج انتشى وعباس .

— عباس من ؟

— عباس ابن المعلم برعى .

— الولد الصالح ؟

— أبوه صاحب مطبعة .

— أتعرفينه ؟

— أجل .. كنا جيرانا في السيدة .

وتناولت توحيدية البوبات الثلاثة وأعدت تنميصها وقد بدا عليها الفلق

والخبرة واسترسلت تقول :

— الشاويش جاد أخذ دفتر منذ أسبوع .. ولم يحضر سوى مرتين .

مجهوم . وفرج انتشى اشترى دفترين أول أمس . برصه مجهوم .. ولكن

الولد عباس . وأخذ دفتر منذ ستة شهور .. وبدأ لي أنه استهلك في أسبوع

واختفى بعد ذلك . مدة طويلة .. وهو يعود اليوم .. ومعه يوه ؟

وردت نحية وروو مضجرة :

— ربما كان قد تبقى معه منذ أن أخذ الدفتر .

والفتت لواحد إلى سيدة متسائلة :

— هل كان معه بوبات أخرى ؟

وردت سيدة :

— لا أدري .

وتسألت لواحد :

— ألم يشتر دفترا آخر بعد ذلك ؟

وردت توحيدية :

— ثم أرته وحها مند بصعة أشهر .
 ثم هرت رأسها في حيرة وأردعت محاولة أن ترجع ذهبها :
 — حائر معه بقايا الدهر القديم .
 وسبت المناقشة وأوت كل إلى مصجعها . وصوء للمجر يسئل من مائدة
 المهر
 وبعد أيام عاد عباس . واستمتع بالرقدة . وقدم اليون .. وبعد أيام
 أخرى .. عاد ثانية ..
 وفي هذه المرة أمسكت به توحيدة وصاحت به وهي تمسك باليون :
 — اسمع يا عباس .
 — نعم ؟
 — من أين لك هذه اليونات ؟
 — اشتريتها .
 — من أين ؟
 — وصحت عباس في سحرية وأجاب قائلا :
 — يعني حاشريها من أين .. من الدرر ؟ .. والا من الموصلة ؟ .. يونات
 باسم فعلمة توحيدة .. اشتريتها من أين .. إلا من المطمة توحيدة .. على من
 ورج ؟
 — تكلم عدل يا عباس أنا عارفك .. وعارفة وحيدك ؟ . من أين هذه اليونات ؟
 — فست لك اشتريتها .
 — ولكني لا أذكر أي بحث إلا دهرا منذ ستة شهور .
 — ليكن .. اشتريته منذ ستة شهور .. فلما في ذلك ؟
 — ولكنك حصرت بما فيه الكفاية .
 — كفاية أو غير كفاية .. أستحسبسي ؟ . بيني وبينك اليونات .. ما دعت
 أقدم لك اليون . فليس لك عندى شيء .

وعادت توحيدة تيز رأسها في حيرة ثم استقرت على نتيجة بدت لما أنها مرضية
 وقالت لعباس :
 — لابد أن تكون قد سرقتها
 — وهي أنني قد سرقتها ؟
 — سرقتها من ؟
 — ماذا يعنيك أنت ؟ أليس المهم أنك قد قبضت عليها ؟
 — المهم ألا تكون قد سرقتها من هنا .
 وبدت على وجه عباس علامات العصب لكرامته المهانة وصاح مهددا
 — عيب يا مطمة .. عيب .. عمن باسم عندنا شرف .
 — شى الله .. يا حى شرف ؟
 وانتهت المناقشة . بعد أن انصرفت توحيدة أن تولد عباس الصامع لا بد أن
 يكون نطش دفعا من أحد الزبائن الكروديات .
 ولكن الأيام مرت .. بمزيد من القلق والحيرة .
 راد الزبائن في بيت توحيدة ..
 ولكن التقديرة لم تزد ..
 بل رادت اليونات ..
 ونظرت توحيدة إلى صبياتها في آخر الليل وهي يسلمس إليها مع التقديرة حصة
 من اليونات . وقالت في عيظ
 — أهدا معقول ؟
 وأخذت تقرر اليونات واحدا بعد واحد وهي تكلم .
 — أهدا يوناتا ؟
 وتحال صوت أبو زيد يصيح في سحرية :
 — لأ .. يونات مرورة
 وعاد يصيح في سحرية

— أحصلك توحيدة الأصل .

وصاحت به توحيدة ماهرة :

— اتبيل ..

وانطلق دهبها بهكر .

أمعقول أن يكون أحد قدور كل هذه البومات ؟

وعادت تنظر إليها .. وتفحصها .

كيف ؟ .. ولماذا ؟ .. وأين ؟

وعجأة تذكرت كلمة قالتها لما سيدة .. فسألتها بحدة :

— هل قلت إن الولد عباس لديهم مطبعة ؟

وبساعة ردت سيدة :

— أجل .

وصاحت توحيدة وهي تمسك بكتف سيدة في عطف

— هو الصلال ابن نصلاني . هو الذي رور البومات في مطبعة

ليس هناك غيره .. سأبلغ النيابة حالا .. سأعرب بينه وبين أبيه .

وخلعت سيدة كتفها من قبضة توحيدة وهي تقول :

— غير معقول .

وردت توحيدة صارخة :

— معقول وصعب .. أنا أعرفه النصاب ابن النصاب .

وصاح أبو زيد :

— بأولية اهدى .. اعطى . أية بومات تلك التي سيرور بها ؟ . هل تصير

أن بوماتك تستحق التزوير ؟ .

— بمير الله العظيم زورها الولد عباس . أنا لم أبيع كل هذه البومات .

وصاحت تسأل تحية ورور :

— من الذي أعطاك هذه البومات ؟

— لا أذكر ..

— تذكرى

— ناس لا أعرفهم .

واستغلت إلى لوائحظ .

— وأنت ؟

— أبو سريع .. والمعلم رضا .. ورجل لا أعرفه .

وخبرت توحيدة كفا بكف وصاحت :

بالنصاب ابن النصاب .. لا يكفيه أن يستعملها لنفسه . بل يجر بها

يأخذ كدنا وعرقا .. ونفقه لأخته .

وعاد أبو زيد يصيح محاولا تهدئتها :

— بأولية اعشنى .. هو معقول ؟ ..

وقاطعته توحيدة صارخة :

— امسكت أنت .. لاسن والنسى .. والى نى النسى ..

وهتف أبو زيد قائلا :

— مسكتنا . خلاص .. قومى بلنى البابة .

ولم تجب توحيدة . وساد الصمت برهة ثم أطلقت تهينة فائلة

— معلش .. الصباح رباح ..

وفى اليوم التالي . قدم عباس . غالى الدهن عن كل ما حدث ..

كان يوم جمعة .. والحلى قد اكثظ بالحمود . الذين عرخوا بهم في مسحة

أو تصريح ٢٤ ساعة . والذي راع من ثكثاته وانطلقوا يملأون المقاهى

والبارات وحجرات البيوت .. ووراهم . دوريات البوليس الحرقى تمسك

لغاريس من الثكثكات بلا تصاريح . أو الذين يثيرون الشعب

وعبر عباس المقهى .. بكل ما حواه من صحيج وصباح . ولمح أبو زيد

بجلس في ركة الحناد . وأمامه صبي المقهى يروح ويعلو كالذكوك حاملا

العلقات . وألقى عباس التحية من بعد على أبو زيد .

واستقبل أبو زيد التحية بتهنئة عالية وهو يصيح الأصمى الشهيرة .

« آتست يا نور العمود .. آتست » .

ولم يعرف عباس ماذا يعنى أبو زيد بقوله . ولا أدرك سر التحية المخارة التى لقيه بها . ولا استطاع أن يفهمها إلا على أنها نوع من إعجاب الرجل به وأفدرك أن مسوة البيت لا بد قد حدثه حديث تقدير عه وعى كماله واستمعته الطرب . وأصدا به نوع من الحماس جعله يقترع السلم صارت لك حصة يا عباس .

أبو زيد نفسه أبدى إعجابه بك . وحياك فى حماس وقال لك « آتست » وأبو زيد رجل يعرف أقدار الناس .

وعى قريب يتحدث عنك الحى . وتصبح لك رفيقة تمحك بقودها وتمحك سيد زمانك .

ليست سيدة بالطبع . فسمحت ومكانك قد تجاوزت سيدة وأكرم من سيدة .

قد تكون المعلمة توحيدة نفسها . ولم لا ؟ ..

لا بد أن تكون سمحتك قد وصلت إليها .

فألقى أبلغ أبو زيد قدرتك لا بد أن يكون قد أبلغها

بل .. من يدرى . ربما يكون الرجل الضلع . نفسه .. قد أبلغ وهو لا يدرى أنه يدفع إليها بما لى . قد يظوه من فوق عرشه ..

وانتصحت أوداج عباس . وهو يصور نفسه .. مكان أبو زيد .. حالاً على مقدمه المختار بالمقهى . لا عمل به إلا نوحى المحورة وشرب الشاى والريقة على عباد الله . وهو جالس مرهوب الجفان ..

ولكن هل يستطيع أن يملأ مكان أبو زيد ؟ بصحامة حسده . وغلف عتقه .. وهو يبدو بموارء كالخرافة .

المسألة ليست مسألة حجم يا عباس .

ليست حمداً صرحاً . وعتقا علياً . وكركشا مصحاً .

بل مسألة جرأة .. وهولة ..

وعباس .. سيد من يقترع عليها .

ادخل يا عباس . وانمع صدرك . واورن عطلاتك .

ودخل عباس ..

عبر الباب . ليحد توحيدة فى مراحته . مترتبة على الأريكة

وطرت إليه توحيدة ورقعت حاجبها . وهمت من أعمالها :

— جيت يا عباس .

حلو !!

إن المرأة تنظر يا عباس .

توحيدة نفسها . وليست البت سيدة . ولا لواحد . ولا تحية وروور

إذن فلا بد أنها عرفت

فرحت يا عباس ..

حلال عليك أمك داعبالت ..

خش على توحيدة .

عاملها كالمعلمين . لا كالطلاب .

وتقدم عباس يتأهل فى ثقل . وقال متحدثاً من أنه :

— صباح الخير . يا مرة .

وعدة وعلى غير توقع . وثت توحيدة بقل ما يسمعها جسدتها من فوق

الأريكة .. ثم هجعت على عباس وهيشته من عتاقه .. وهى تصبح .

— مره . يا جبر يا ابن الجبر يا ضلالى يا ابن الضلالى .

الله !! ما هذا ؟! ماذا حدث ؟!!

فأذا نهجم المرأة عليه وتطبق على رفته ؟

وعادت المرأة تصيح .

— طلع اليونات .. يا نصاب .. يا ابن النصاب .. طلع ..

اليونات ١٢؟

وقعت يا عباس .

كان يجب ألا تعود .. بعد آخر مرة ..

بعد أن شكت في اليونات .. ولعب الفلار في عبا ..

وتذكر عباس كيف أقدم على طبع اليونات في المطبعة .

بعد أن طيق أبوه الخناق عليه بعد وفاة أمه . وأنقسم ألا يعطيه نقودا إلا إذا

عمل .. ومررت أيام وجيب عباس خال .. والأرمة مستحكمة . وذات يوم عثر

في جيب بنطلونه على أحد يونات توحيدية ..

فرجت يا عباس ..

ولكن أي مرح هذا .. ستذهب مرة .. ثم تعود إلى سابق عتقك

ونظر إلى اليون . وعطرت له فكرة ..

لماذا لا يطبع مثله في المطبعة ؟ ..

ليس أسهل من عمل أكلشي من اليون الأصلي ونحو المسألة بعد ذلك .

وفي غفلة من أبيه .. بعد أن يصعد إلى البيت . يتفق مع عبده حارس

المطبعة .. وهو لا يعرف القراءة والكتابة . ويكره أنها ورقة حجاب .. تدفع

الحسد . ويطبع بها ما يشاء ..

وفي يوم جمعة ذهب أبوه إلى الحسين .. وغلت المطبعة إلا أنه ومن عبده .

وكان قد اتفق معه على إعداد الأكلشي ضمن عشرات الأكلشيات التي تدفع

إلى الزبكو عراف .. ووعده أن يحسبه واحدا على ألا يخبر به أحدا حتى لا يصبح

معفوله في صد الحسد ومنع العين ..

وهكذا حصل عباس على عشرات اليونات ..

ولم تعد لديه بعد ذلك مشكلة ..

فتح أمامه بيت توحيدية على مصراعيه .. دون حاجة إلى أبيه . ولا إلى

العمل .

بل من يدري .. ربما .. استطاع مع الوقت .. أن يستقر هناك .. كأحد

البلطجية المشاهير .. مع إحدى المملكات ..

واحتاج ذات مرة إلى نقود .. فبدأ يبيع اليونات لمعارفه وأصدقائه بمصف

النس .

ولم يكن يخطر بباله أن المسألة يمكن أن تكشف . فاليونات متقة التزوير

وليس من المفضل أن يشي أحد الذين بأعهم اليونات به .. فيصح نفسه ..

والهوى .. وقد توهم أنه بلغ منتهى أملة .. يدور أن المسألة قد كشفت .. وأنه

خائب في داهية .

من أجل هذا قال له أبو زيد آتست يا نور العيون ..

كان الرجل يعرف ولا شك ..

وعادت توحيدية تصيح به :

— أي اليونات .. قل يا صانع يا ابن الصانع .

وحاول عباس المقاومة . فاقفل العصب وصاح وهو يحاول الخلاص من

يدها :

— أي يونات يا معلمة ؟ ..

— اليونات التي رورينا .. يا حرامي يا ضايع

— عيب يا معلمة .. عيب .

— أبدا .. لأن أتركك إلا في الوليس .

وأحس عباس أن المرأة مصرة على قولها وأنها مقتنعة تماما بما ارتكبه . وليس

أمامه وسيلة غير أن يتخلص منها ويسلم ساقيه للربح

وقال في لهجة مستسلمة :

— إذن دعني رقتي .. سأعطيت ما لدى من يونات .. ولنصنع ما تشاءين .

(نحن لا نزع الشوك — ج ٢)

وكان النسوة والزبائن قد تراحموا حوله بعد أن أثارهم العجبة والصراخ وقالت توحيدة وهي تزيد من قبضتها على حثاقه :
— لهذا لن أتركك إلا في البوليس
وتصور عباس ذهابه إلى البوليس . ثم انتقل البوليس إلى المطبعة والقبض على أبيه بتهمة تزوير يوانات للدعارة في بيت توحيدة بوجه الحركة .
يا بهار أسود .. ماذا يقول أبوه .. الذي لا يترك عرضا إلا وأداء في وقته ؟
ماذا يقول الناس عنه وهو عائد من الذكر طول الليل في جامع الماوردي عدم يرويه مقبلا بالحديد مجرورا إلى قسم البوليس .. لأنه زور في يوانات دعارة ؟
ليس فقط للاستعمال الشخصي ..
بل أيضا للتجارة بها .. ومناصفة التت توحيدة في ررقها .
يا وقضت السوداء يا عباس .
ماذا يقول أبوك عنك . وماذا يقول الناس عن أبيك ؟
ومعجأة دفع المرأة في صدرها بكل ما يملك من قوة .
واحتل توارن المرأة وهوت على ظهرها .. ولكن يديها لم تفتنا عنق عباس .
بل خلفا مطبقين عليه في استائة . ووجد نفسه يهوى خوفها ..
وعلا صوت توحيدة .. وصراخ البنات .. وضجيج الرجال ..
وصاحت توحيدة وهي مارالت تطبق على عنق عباس ..
— يا شاويش .. يا بوليس .
وسمع الصراخ في الطريق .. فاندفع الناس إلى السلم .. واندفع أبو ريد يمشق طريقه وسط الناس .
ووصل أبو ريد إلى الميكاد . وكانت توحيدة قد جهت من وقتها ووقفت وسط الصالة مسكة بخناق عباس وهي مستمرة في الصراخ .
— يا شاويش . العصاب ابن الصواب . يورر اليوانات ويتاجر بها وأقبل أبو ريد على توحيدة يحاول تهدئتها :

— هدى يا معصنة هدى . أما سأقول أمرك .
— أمك . البوليس .
— ماذا سيفعل به البوليس
— يسجنه .
وكان فرح هدى صبي الهامى قد أقل من الداخل بعد أن سمع الصراخ وعرف الموضوع فصاح مؤبدا توحيدة :
— أجل يسجنه بتهمة التزوير . تزوير أوراق رسمية وصاح به أبو ريد .
— رسمية له .. الله يخبر بيتك .. دي يوانات دعارة .
— وماله . برصه تعتبر أوراق رسمية .. إنها بمثابة صك . أوليصال . تقفل حقا قبل العير
وعادت توحيدة تصيح .
— البوليس لن أتركه إلا في البوليس
وقال أبو ريد محاولا التهدئة
— يا ست توحيدة .. التركه لي .. أنا سأرقعه لك علقه .. يحسم بها طول حياته
يا بهار أسود .. ومهيب يا عباس .
هذا الرجل أبو ريد يحاول أن يخلصك من البوليس بعقبة تحسم بها طول حياته .
وحديث المقارنة يا عباس
بين عصبية أبيك .. في أخي .
وعلقه أبو ريد .. التي تستغل تحلم بها طول حياته ..!
وكلا الأمرين .. أحلاهما مر . يا عباس .
ولم يدع على توحيدة أنها قبلت أن تنوح عن البوليس . بالعلقة التي عرضها

أبو زيد وعادت تصيح :

— أبدا . البوليس . لازم أتيته في التحشية النصاب ابن النصاب .

واستطاع الصبيح والصرّاح . والرحام خارج البيت أن يستجلب أحد رجال الشرطة . وبدا في التسم رجل طويل القامة مبروم الثوارب . وهو يحاول إنساح الطريق قاتلا :

— وسع منك له .. خلونا نشوف عملا .

— ووصل الرجل إلى الصلاة ..

وكانت توحيدة بجسدها السمين شبه العاري هي أول ما لفت النظر فأقبل عليها وهو يكاد يلتصق بها قاتلا في صرامة :

— في إله يا حرمة ؟

— النصاب ابن النصاب .. زور اليونات ..

— أي يونات ؟

— يونات المعامة ..

— المعامة هنا يونات ؟؟

— أجل .. للزبائن المستديمين .. يشعرون حقارت يونات بعضهم .. سأريك إياها .. يا شلويش .

ثم التفتت حولها صالحة :

— بت يا لودحظ .. بت يا نحية .. هاتوا يوبين فرجوههم للشلويش .

وفي لمح البصر . أقفلت تحية بأحد اليونات وسلمته للعسكري وأمسك العسكري باليون يفحصه قاتلا :

— هذا اليون للمعاملة ؟

وردت توحيدة :

— أجل يمكنك أن تستعمله بدل النقود .

ورد العسكري وهو يضع اليون في جيبه :

— فهما .. وماذا حدث ؟

وعادت توحيدة تصيح :

— النصاب .. زور اليونات .

— واستعملها في المعاملة ؟؟

— ليس هنا فقط .. بل وباعها أيضا .

— هكذا ؟

والفتت إلى عباس وهو يقول في صرامة :

— زورت اليونات وبعتها .. فوت قلبي على القسم .

ودفع عباس أمانه من عنقه وهو يصيح :

— فوت يا نصاب .. يا حرامي .. يشارك أسود .

وصاحت توحيدة في تشعب :

— اسجنوه يا شلويش .. لازم يات في التحشية .

— امشي يا حرمة .. ستأخذ العدالة جراها . سعمل اللازم

ومدت توحيدة يدها يربو آخر للعسكري وهي تقول :

— عد هذا . يون من اليونات الأصلية التي رورها النصاب إليها

للمعاملة .. بدل النقود .

وأخذ العسكري اليون ووضعها في جيبه وهو يقول :

— مفهوم .. مفهوم ..

وصاحت توحيدة وهي تودع العسكري وسط الرحام :

— كبر عيوك يا شلويش .. خلل عيكت .. ما نعملش تكليف

واستمرت الضحكة والرحام في الصلاة بعد أن انصرف العسكري بعباس إلى

قسم البوليس .

وكان أبو زيد قد انتهر فرصة انهماك توحيدة في الحادثة وإصرارها على تسليم

عباس لبوبس وجر سيدة إلى إحدى الحجرات وأعطى عليها .. يحضنها ويحاول أن ينامها عوة

وصاحت سيدة

— عيب يا معلم . عيب بلاش مصباح .. ستودينا المعلمة في داهية ..

— ممنون أبوها . في داهية .. في داهية .

ودخلت نحية فوجدت أبو زيد يختص سيدة وهي تحاول الخلاص منه فهتعت ساخرة :

— ما شدة الله .. فرصة يا معلم .

لم أسرع إلى المعلمة توحيدة وهتفت بها :

— تعالي يا معلمة شوقي . حاتلاكها مني وإلا سين ..

وجدت المعلمة من يدها ..

وكانت سيدة مارلت تحاول الخلاص من ذراعي أبو زيد

وهبت توحيدة في سيدة كالإعصار :

— لم يعد لك بقاء هنا . يا بورية . يا بنت النور .. ياما قاتلوا في عهد . ولم أصلقهم .. ولكن أنا أستاهل .. لي هدمك .

وبالله وربي عرض كمالك .

ووقف أبو زيد ينظر إلى توحيدة حائقا وهو يقول :

— لماذا تطردنيها ؟

— ليس لك دخل .

— كيف ؟ إنها غير البهائم اللاتي يعملن عندك .

— قلت لك لا تدخل فيما لا يصيك .

— هل تعارفين مني ؟

— أأنا مني . من هذه السحلية ؟ .

— إنذا لماذا تطردنيها ؟

— هذا شغل

— ولكننا لم تفعل شيئا .. أنا الذي حضنتها .

— أنت رجل عيك قارعة .. ولي حساب معك بعدني ..

— وما لها هي ؟

— واحارت توحيدة .. ماذا تقول .. هل تقول إنها تخشى على نفسها من .. وصحاة هناها ذهبا إلى نعمة يمكن أن تكون ستارا تطردها مهتعت .

— إنها شريكة عباس ..

— كيف ؟ .. إنها لم تعرفه إلا هنا .

— كذابة بنت كذابة .. لقد قالت لي بعصمة لسانها . إنيهم كانوا حجرات في شيدة .

— وماذا يعني أن يكونوا حجرات ؟

— يعني أنها متفقة معه .. وأنها يشاركان في الكروبوات

وظفرت سيدة إلى توحيدة في حيف وقالت :

— سمعي يا معلمة .. سأذهب من هذا البيت .. لأني سأقتل لم يعد لي عيش

فيه . ولكن لا ضرورة . لأصالح الهم . أنت تعرفين أني لم أعرف شيئا من

اليومات إلا منك .

— كذابة أنت تعرفين أن عندهم معلمة

وظفرت سيدة إلى امرأة . ولم تعرف كيف تحب

إذ المرأة تعرف جيدا أن م تشاركت عباس في تزوير البوت .. ومع ذلك تأتي

أن تصدقها

وأحسنت أن الدموع تنهم بأن تطعم من عيب ولكنها كرهت أن تظهر بمظهر

الصعف ، وقالت وهي تتلع ريقها :

.. انتصيا يا معلمة .. سأترك لك البيت .. وكأنت في عندما أتيت إليك ..
كله هم ..

ومطر أبو زيد إلى توحيدة قائلا في عبط :

— يا ظلمة .. لك يوم ..

وردت عليه في حق :

— انخرس انت .. في حساب آخر معك ..

وخرجت توحيدة إلى الصلاة وكانت الرحمة قد بدأت تخف وذهب كل إلى حال سبيله .. وهبط أبو زيد مرة أخرى إلى المقيى .

وانسكت سيدة في حرم ملابسها . وهي تقول أن تبحث في دهب عن مستقر جديد .

ووصل إلى أديها صوت أقدام تصعد السلم ثم نير الباب وتدخل الصلاة .

وسمعت صوت توحيدة تذهب في دهشة مريحة .

دلال .. أهلا وسهلا . أليس أنت طوال هذه المدة ؟ . طلت أنك مسيبي

وكبرت علينا .

وسمعت سيدة صوتا .. على طول ما باعدت بيها السون وبه ما زال ربه جينا في أديها .

— أزيك يا توحيدة . والي وحشاش . وبقي في شهر . وأنا أتوي

زهارتك .. ولكن المشاغل تلهي .. واليوم انتبزت الفرصة .. وعزمت على أن آتي إليك .

— قلت نسمي كبرت دلال عليا .. ربنا أعطالما .. وتركتنا وظهرت على

وجه الدنيا .. ونسيتنا .. في المحور .

— أنا أنساكم ؟ . ما عاش الذي يساكم من مات فدينه تاه يا توحيدة

— طول عمرك أصيلة يا دلال .. اتفضل .

عجبا .. يا سيدة ..

دلال .. مرة أخرى ؟ ..

روجة أهلك الطعوب .. التي كانت تثير الحارة بمشيتها ؟ ..

والتي انطلق من صدرها على ميهي النحاس . ساعة دخول أهلك إلى البيت

محمولا على الأعناق ..

أهه ربح دعمت بها إليك في هذه الساعة ؟ ..

وكيف يمكن أن تلقى وجودك في هذا البيت ؟ ..

لوعلى الأصح طردك منه ..

(٣١)

في بيت دلال

خرجت سيدة من الخمرة تحمل صرة ملابسها وقد لفت بقودها في مدبل
ورصته في صدرها . لتجد دلال تجلس مترعة على الأريكة بجوار توحيدة
والقربت منها محبة لتقول ببساطة .
— العواف يا حاتني دلال .
وبعزت إليها دلال ورصعت حاجبها في دهشة وردت دون أن تعرف من
تكون :

— العواف .. يا شابة ..

لم نظرت إلى توحيدة وتسايلت قائلة :

— تبقى مين بسلامتها ؟

وردت سيدة قائلة :

— أنا سيدة يا خالة .. ألا تذكريني ؟

ورفعت دلال حاجبها في دهشة وتسايلت صائحة :

— سيدة ؟ أنت ؟ غير معقول ..

— أجل أنا سيدة

— سيدة بنت جابر ؟

— أيوه أنا

— يا سلام يا ماس حقيقة الدنيا صغيرة ومادا أتيت بها يا سيدة

واضعت سيدة وأحابت

— الدنيا يا خالة دلال

ونظرت إليها دلال نظرة حيرة فاحصة وقالت :

— احبوني يا بنت وادورقي وبقيتي ألسطة .

— كتر حيرك يا خالة .

وكانت توحيدة ترتقب الحمار في دهشة بعد أن فوجئت بمعرفة سيدة لدلال

ولم تبيت أن تسالمت قائلة

— اب تعري الت دي يا دلال ؟

— أيوه يا توحيدة .

— من أين ؟

— ما هي دي سيدة بنت روجي جابر .

— ألقى مات في الذكر ؟

— أجل .

— الله يرحمه

وصرت توحيدة كما بكف وعادت تقول :

— مني قلت لي إذن فهذه ابنة روحك احاج جابر

— تصدق . لم أرها منذ أن مات احاج . صد كانت صغيرة وأحدها الحراج

برهي صاحب المطبعة الذي كان يعمل بها جابر .

— إذن فقد كانت تعيش عند الرجل صاحب المطبعة

وتسايلت دلال في دهشة .

— هل تعرفه ؟ .. إنه رجل طيب

— أعرف ابنة عباس . النصاب الصلاي .. هل تصدقين أنه زور البومات

التي عملتها كترباتي المستديرة ؟ . ولم يكفه أنه يستعملها لنصه بل راح يتاجر

فيها

ولم تستطع دلال أن تحصى صحتها وتسايلت في دهشة .

— زور البومات ؟

— تنصوري ؟

— علقتك

— لماذا ؟

— لأنك عملت تقليد البونات .

— للتسهيل وحياتك .

— للتسهيل والالتكويش على الرباى ؟

— يا حتى يا دلال .. أصغتك غافقة ..

وعادت تيز رأسها وتنظر إلى سيدة في غمظ قائلة :

— المهم أن البت الساهية .. كانت تعرفه جيدا .. وتعرف حكاية

المطبعة .. وادعت أنها لا تعرف شيئا .. هل تصنفين أنها لم تكن تشاركه ؟

ونظرت دلال إلى سيدة متسائلة في استكثار :

— أكنت تعرفين يا سيدة ؟

— أنطس في نظري يا حالة دلال . ما كنت أعرف شيئا .

وقالت توحيدة مؤكدة :

— لا تصنفها .. ومن أجل هذا صممت على أن تترك البت .. أنا لا أستطيع

أن أبقى على من يظن أن .. ويسرقنى .

وعلمت دلال قائلة :

— لم يكن يصح منك هذا يا سيدة .. المطعة توحيدة معلمتك ..

وردت سيدة مقاطعة دلال في غمظ .

— المسألة ليست مسألة بونات .. المسألة مسألة أبو زيد ..

وتسابقت دلال في لفة وهي تحاول أن تكشف المزيد من المعلومات :

— ماله أبو زيد ؟

— تعار عليه مى ..

وصرخت توحيدة في حدة :

— مشر .. انمرى .. قطع لسانك من اللعالم أب أعدد منك بسا

سحلية ؟ .. يا إمرة مصدية .. امشى اطلعى برة .

وردت سيدة في غمظ :

— طالعة .. أنظرين أنه لا يوجد سوى بيتك في الحى ؟ .. الشغل على قدام

يشيل .. أنا لست عرافلية يا معلمة ..

وصاحت بها توحيدة :

— طبعاً .. فحت . وصوتك على لكن الحق عن أنا الى صمكتك هى

آدم .

ونظرت سيدة إلى دلال وقالت مودعة :

— عن إنك يا حالة دلال .. خلعتك بعافية

وسألها دلال وهي تمحصها فحصر حير لصعقة طيبة بكرة أن نعمت مه

— ولكن أين متدعجى ؟

— الدنيا واسعة يا حالة

وحشيت دلال أن تخرج سيدة فلا تعرف كيف تصيدها بعد ذلك ، وحشيت

كذلك أن يمشى ما يسهر توحيدة أنها تنوى أخذ سيدة بعد أن طردتها .

ولم تلبث أن قالت بغير اكتراف .

— على الصوم .. ابقى أسألى يا سيدة ..

— حاضر يا حالة دلال ..

— البيت في شارع كوم الدكة مرة (.) الدور الثالث اسألى على شقة

دلال . ألب من يملوكسى ، وأبها يوجد تليفون من سهل

حفظه (.) وكثرت رقم التليفون (

وبعد أن أدلت بكل هذه المعلومات المفصلة عادت تقول بغير اكتراف :

— ابقى فوقى .. والا أسألى .. إذا احتجت لأى شيء .

— كتر خيرك يا حالة ..

وَحَسِبْتُ تَوْحِيدَهُ أَنْ دَلَّ . تَوَيُّ أَنْ تَأْخُذَ سَيِّدَهُ . وَإِنْ كَانَتْ تَدْعِي عَدَمَ
الْإِكْتِرَامِ بِهَا . وَبَدَأَتْ سَيِّدَةً تَحْمُو فِي عَيْبِهَا . وَهَمَّتْ بِأَنْ تُرْمَعَ لِيَتَقَبَّهَا
كَارِهَةٌ أَنْ تَحْمِلَهَا مِنْ دَلَالٍ مِثْلِ هَذِهِ الْبَسَاطَةِ وَلَكِنَّمَا بَدَّرَتْ أَبُو رَيْدٍ . وَهَمَّهُ
عَلَيْهَا . وَحَطُّورُهَا عَلَيْهِ . وَعَادَتْ تَعْبُصُ لِحَاطَرِ عَنِ دَهْجِهَا بِشِدَّةٍ وَتَقْتَمِصُ فِي
عَيْطِ بَصَوْتٍ بِتَعْتِ مَسَامِعِ دَلَالٍ .

— انْجَبَى بِهَا —

وَلَمْ يَدَّ عَلَى دَلَالٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ شَيْئًا وَاسْتَمَرَّتْ فِي حَدِيثِهَا لِسَيِّدَةٍ :

— عَلَى الْعُيُومِ رُبَّمَا يَهْدِيهِ ، وَتَجَسُّسُ الْعُلَمَاءِ تَوْحِيدَهُ تَرُصِّي عَمَلِكَ .
مَصْرُوكٌ عَلَى أَهْلِهِ حَالِ إِيَّاهِ . وَالظُّفَرُ لَا يَخْرُجُ مِنَ اللَّحْمِ
وَوُجَّهَتْ سَيِّدَةً

وَوَدَّعَتْهَا رَمِيلَانِهَا حَتَّى بَابِ الْبَيْتِ ..

وَوَدَّعَهَا أَبُو رَيْدٍ بِصِيحَةٍ مِنْ مَقْعَدِهِ عَلَى الْمَقْهَى قَاتِلًا :

— مَعَ السَّلَامَةِ يَا رَجُلَ .. عَسَارَتُكَ .. لَقَدْ خَرَّبَ بَيْتَ الْوَلِيِّ كَأَنَّ السَّبَبَ
وَعَلَى بَابِ الْخَيْرَةِ انْتَفَتَحَتْ سَيِّدَةٌ بِأَحَدِي عَرَبَاتِ الْكَرْوِ وَتَحْمِلُ بَعْضَ سَوَةِ أَحَدٍ
وَقَدْ عَدَدَ مِنَ الْكُشْفِ الْغَطِّي فِي الْخَوْصِ الْمُرْصُودِ وَقَدْ تَعَرَّضَتْ لِجَدَاهِ وَأَمْسَكَتْ
بِالْصَّاحَاتِ ، وَأَمْسَكَتْ أُخْرَى بِالْطُّفْلِ وَأَخَذَتْ يَشْدُنْ .

— سَالِمَةٌ يَا سَلَامَةً رَحَانًا وَجَمًّا بِالسَّلَامَةِ ..

وَصَاحَتْ رِيَابَاتُ الرَّاغِصَةِ وَهِيَ تَبْصُرُ سَيِّدَةً تَحْمِلُ الْغُلَّاسَ فِي يَدِهَا -

— عَلَى فَيْنٍ يَا رَجُلَ ؟

وَأَجَابَتْ سَيِّدَةً بِسَاطَةِ :

— مَخْرَاجَةٌ ..

— رَاحَةٌ فَيْنَ ؟

— لَا أَعْرِفُ ..

وَسَأَلَتْ زَكِيَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ الْطُّفْلَةَ :

— وَمَا هَذِهِ الْعَصْرَةُ ؟

— مَلَابِيسِي ..

— وَلِمَاذَا تَحْمِلُهَا ؟

— لِأَنِّي تَرَكْتُ بَيْتَ تَوْحِيدَةٍ ..

وَهَمَّتْ رِيَابُهَا وَكَانَتْ تَعْمَلُ عَدُوَّ تَوْحِيدَةٍ مِنْ قَبْلِ وَتُرْكِيهَا

— رِيَابُهَا تَلَبَّ عَلَيْكِ .. وَإِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ ؟

— لَا أَدْرِي !

— إِنْ دَعَاكَ مَعَنَا ..

وَصَاحَتْ رَكِيَّةٌ فِي حِمَاسٍ :

— أُرَكِّي ..

وَحَشَرَتْ سَيِّدَةً جَسَدَهَا بَيْنَ أَجْسَادِ السُّورَةِ لِلْمُكْدَسَةِ عَلَى الْعَرَبَةِ ..

وَصَاحَ الْعَرَبِيُّ بِالْحِمَارِ :

— شَيْءٌ .. شَيْءٌ يَا بَنَاتِ الْكَلْبِ ..

وَوَصَلَتْ سَيِّدَةٌ إِلَى الْبَيْتِ الْجَدِيدِ ..

لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ بَيْتِ تَوْحِيدَةٍ ، مِمَّنِ الْعَمَلِ وَمِمَّنِ الْعِيَةِ وَمِمَّنِ الْحَقْدِ
وَمِمَّنِ الرِّبَايَةِ وَمِمَّنِ الْخَوْرِ الْخَافِ وَالْفُيُوسُ مَعَارِبَةُ الَّتِي لَا يَسْتَرُ سَوَاءَهَا سَتَرُ
مِنْ رَقَّةٍ تَوْحِيدَةٍ .. أَوْ مَحَاوَلَةِ عَفَاقٍ أَوْ رِيَاءٍ . كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهَا جَوَافٌ حَشَشَ .
خَلَعَ عَنْهُ رِدَائُهُ وَتَغَيَّرَ مِنْ طَلَاثَةٍ

وَفِي لَحْظَةٍ عَصَبَتْ تَدَكَّرَتْ دَلَالٌ . لَمَّا لَا تَذْهَبُ إِلَيْهَا . فَقَدْ تَجَدَّدَ عِنْدَهَا شَيْءٌ
جَدِيدًا

شَارَعَ كَوْمُ الذِّكْرِ عَمْرَةً كَمْ ؟

سَمِعَتْ الْهَمْرَةَ يَا سَيِّدَةً . لِأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذِي دَعْوَةَ دَلَالٍ مَأْخُذٍ أَحَدٍ . وَمَنْ تَعْبَى

عَمَلِكَ أَهْدَى فِي حَاجَةِ إِيَّاهِ

وَلَكِنْ نَادَا لَا تُخْرِسِي

مرة كم يا سيدة ؟ لقد قالت ذلك إن ألف من يملوك على شقة دلال .
ولها تليفون أيضا ؟

عجيب أن يكون عليها تليفون ..

لا بد أن تكون دلال قد اغتت ..

ألم تقل لها نوحيدة .. كبرت علينا .

لماذا لا تذهب إليها ؟

لماذا لا تجرب ؟

واستأذنت سيدة وخرجت متجهة إلى بيت دلال . بعد أن استصرت من
رميلاتها عن شارع كوم الدكة .. كيف تصل إليه .. وأى ترام تأخذ ؟

ووصلت سيدة إلى الشارع .

شارع مليء بالذكاكين والناس والعمارات .

مرة كام يا سيدة ؟

عجبتك قوية يا سيدة .. لا تذكرين رقم البيت .. ولا التليفون

أسألي ..

نسألين من ؟ ..

يو أنها تجد مكوجيا . لا استطاع أن يدخلها . فليس هناك من يعرف البيوت
كالـمكوجية ولكنها لا تجد أثر المكوجي .

لو تابع كازورة .. أو جوار ..

ولكنها لا تجد أثر لهذه الذكاكين ؟

غريب هذا الشارع .. حوائثه كلها تباع أشياء لا نعرفها .. ولا يمكن أن
تكون دلال ربوة لها .

ها تابع سجاير .. قد يعرفها ..

واقتربت سيدة منه ..

— المواقف يا معلم ..

ونظر إليها البائع نظرة فاحصة
— الله يعافيكى .

— وحياء والدك ، تعرف بيت الست دلال ؟

— ماذا تشغل ؟

أجل . لماذا تشغل الست دلال ؟ مشككة وألجأت سيدة .

— بتشغل . ست !

ونظر الرجل إليها بحيرة قائلا :

— لا يا حتى .. لا أعرف بيت الست دلال !

وسارت سيدة تتطلع إلى البيوت .

لو أن دلال تطل من المائدة . أو تقف في الشرفة !

وفي صحنى في الشارع بدأ صانوت عصير قصب وتوقعت سيدة ،

واقتربت من صبي يمسك بمشعة في يده :

— تعرف يا شاطر بيت الست دلال ؟

وبساطة أشار الصبي بأصبعه إلى أعلى .. قائلا

— أهو عندك هناك ، في الدور الثالث .

وانتهت سيدة إلى مدخل البيت الذى أشار إليه الصبي وبعد خطوة كانت

تطرق باب الشقة .

وفتحت ها فتاة صغيرة عجماء ذكرتها بعفسها وهي تعمل عند أم عباس .

وتسألت سيدة .

— الست دلال موجوده ؟

— بقول لها مين ؟

— سيدة .

ووصل صوت دلال عاليا من الداخل :

— مين يا بت يا رهرة ؟

— واحدة اسمها سيدة .

وتعال صوت دلال مرجية .

— أهلا وسهلا ..

وأقبلت دلال من الداخل ترحب بسيدة .

كان لقاء دلال حارا .. أحر مما يمكن أن تتوقع سيدة !

لقد جعلتها تشعر أنها شيء هام ..

واسمرت دلال في ترحيبها الحار ..

— حصوة عذرية يا سيدة مصت مدة وأنا أنظرك . أير كنت طول هذه

مدة ؟

وردت سيدة وهي تجلس أمام دلال على مقعد كبير مخمض . وتسترق

نظرة فاحصة إلى ما حوها ..

— نكبت فتاة اسمها رينات كانت تعمل معي عند توحيدة

وقاسمتها دلال قائلة :

— أعرلها .. رينات على سجة عشرة !

— أعل هي . وعرفت أني تركت توحيدة فألحت على للذهاب معها إلى

بيت كوكب ..

وعادت دلال تقاطعها :

— كوكب المشيطة ؟

— أجل هي .

— ياخني بلا هم .. من توحيدة لكوكب يا قلبي لا تخزن .. ما اسخم من

سیدی إلا سنی كله يحصل بعصه يا سيدة لأرم تخصني من أنواعه ده

لأرم تشوق نفسك مستفكك

وعادت سيدة تسترق النظرة الفاحصة لما حوها

الأنات يبدو شيئا آخر .. غير ما تعرفت عليه عند توحيدة وكوكب ..

شيئا أنظف وأحر .. وهناك صور معلقة على الحائط .. صور شجر وورود

وفاكه . تبدو أغنى كثيرا . من صور أبو زيد وتوحيدة المنقة فوق الكبة

الاستاسولي ومصيدة عليها زهرة بها ورود . وبخارها يلعبون وعلى النوافد

والأبواب ستائر قطيعة .

والبيت لا يبعج بالحرارة والصجيج ليس هناك من يدخل ويخرج ويعسو

صوته . كل دقيقة بل سيكون يشعل البيت لا يشوبه غير أصوات حذقة

ونواب تمتع وتمتق بين آوة وأخرى

ونظرت دلال إلى سيدة قائلة :

— إن شاء الله تقمدي معاها على طول . ورب يتوب عليكى من المم

والعرف .

وأخابت سيدة مترددة .

— ولكى لم أعمل حسابى .

— حسابك في ماذا ؟

— أعني لم أحصر ملايى ..

— لا يهم .. أنت تختارين إلى ملابس جديدة . من هنا ورائع متصحين

شيئا آخر .

— وقطعتى الصبغة والفرش .

— إدر ادعى لإحصارهم وعودى فوراً .

وعادت تنظر إلى حشد سيدة بفرتها الفاحصة الزائرة .

— السعل هنا شيء آخر يا سيدة وأنت أهل به سأعرف كيف

توصفت . اللهم عايزة ملك الحلحة . بالله يا حبيبتي لا دعنى لتصبيح

لوقت

وبدأت سيدة عمدها الجديد في بيت دلال جديد شكلا ، وإن لم يتغير في

جوهره . عن التعامل بنفس البصاعة

ارتدت ميعة ثيابا جديدة .. وتغير مظهرها تغيرا يمكن أن يصعها في مصاف
لؤلئك الذين تحترهم دائما .. أسادا !

تعلمت كيف تلبس وكيف تزين
وأصبحت ثيابها تفصل لها عصبها ..

شيئا آخر .. غير الجلابيب .. أو القماتين الجاهزة ..

أصبحت تذهب إلى غيابة عدها سيدات أوقات .. وأصبحت تمشي
بروفات مثلهن !

وارتبتك بالطبع لم تكن تعرف كيف تصرف وكانت هناك كلمات
جديدة عليها .. ويطقتا خطأ في أول الأمر وثارت الصحن منها

ولكنها تعلمت كيف تطفها ، وتعلمت كيف تصرف مع هؤلاء الناس
الجدد الذين أحدثت تعامل معهم في وضعها الجديد .

أعيرها يا سيده أصبحت .. سيده !

هكذا بهاملك الناس . وهكذا يتحرم عيت أن تتعامل معهم
ولفت يا سيده .

شكلك في المرأة . يؤكد ذلك .

لوقلت إن أهاك .. جابر بك .. لما كذبتك أحد ..

لوقلت إن مرحوم كان عده أطيان وإنك تركت المفردة لتروحي من
علام بك صاحب واهور الطنج ومصنع الكازورة . وإنك تركته لأنك لم تطيقي

عشرة أسرتنه .. الشلق لما أكر أحد عليك قولك . وما أتموك بتجاوز
الواقع .

فقط تعلمين طلق بعض كلمات وجاهل . بالمرسية

وليس ذلك بالعسير عليك .

ليس عسير . كطقت كلمة الكور .. الذي حاول حمدي وصبيحة عينا أن
يعمداك طفها .. أنت تستطيعين أن تقولي بوجور . وبوسوار .

الاس من حولك يقولوها . صليك أن تتعلمها
ودلال بعضها تعلمتها .

تبريت كثيرا بالطبع ، وإن كان أصلها يعلب عليها .. عندما تعمل ، أو
تسترحي ، ولكنها عندما تتعامل مع الناس . تلتزم الأدب والألفاظ المسموعة .

هكذا يحتم الشغل يا سيده . وأكثرت لها دلال المرة بعد المرة . أن لا شيء
عسر على بني آدم ..

ليس البوصة تبقى عروسة .. والتكرار يعلم الحمار ..

ولم تكن سيده بوصة ..

بل كان جسدها غير ما تملك . وأحكمت عليها اللباب .. فضجل ..

وعلمها الانكشاف والتقليد والتكرار أشياء كثيرة فترفت كيف تتكلم وكيف
تصرف .. وكيف تتعامل ..

وكان الزبالي من نوع جديد ..

شيئا آخر غير لعبة الكرة .. والجنود .. والسحرة .. وصبية البقالين ..
يتدفقون في طواير . يؤدون مهمتهم في حماس وعجدة ، ثم يصرفون .

أناس هم ورن . يأتون فرادى أو شلل .. يطرقون الباب في هدوء .
ويدخلون في ديب ويخلصون كالصوف ثم يتفلقون إلى الطحرات يشربون

كأف أو يشربون عصا في رحرحة واسترخاء .. ويصحبون
ويخرجون .

وهم يرتدون ثيابا محترمة .. يكتأبن ذهبية في الصدري .. ودياس أيقية في
الكراتات ويكبه ويخلصون كل هذا ويحدود . كزبالي توحيدة . مجرد

آدميين . أو حيوانات

وبعضهم يتحدث في التلويح ليقول إنه آت .. ليسأل إن كان هناك أحد ثم أن
النكاح حال أو ليسأل عن علامه لتحلوه وبعضهم يدق التلويح ليسأل

عن الست .

وتردد دلال . ويغور حديث خاطف ..

— أهلا وسهلا سعادة اليه (أو اليها أحيانا) . حاصر .. حاصر . من عيه . بكرة الساعة التاسعة تكون عندك . أجل . أجل .. أعرف المواعيد في شقة سليمان ماشا . حاصر .. إذا لم تكن هي . سيكون شيئا أفضل .. هناك . أشياء جديدة .. تعجبك .. أجل أعرف مراجك جيدا . وهؤلاء لا ينصرفون إلى البيت ولكن ترسل هم ايضا . من الباب

هؤلاء هم العملاء احدد ناس . محترمون . لهم وزن وكروش . وروحات

ونجحت سيدة في التعامل مع عملائها الجدد .. في بيت دلال . كما سبق أن نجحت مع عملائها القدامى .. في بيت نوحيدة وكوكب

وتوطدت علاقاتها مع رميلات حديثات . رارت رميلاتيا الأوثان بضع مرات .. وراعتها بعض بضع مرات . ثم انقطعت الصلة

ولم يعد لغروش قيمة عند سيدة . بعد أن بات التعامل بالحبيبات . ولا عادت قطعة المصاع . القديمة . ذات أهمية . بعد أن تعددت الهدايا . وبعد أن تعلمت هي كيف تنصيد الربوب الموء . وكيف تحصل على ما تريد براءة وبساطة .. وكيف يجعلها إياه بحماس ورضا .

وتتعد تعامل سيدة .. من الباب للباب .

جرس الشبوع يدق واحديث الخاطف يجري . وتعلق دلال التليمون بكلماتها المأثورة (من عية الاثني) ..

وباختصار تصدر تعليماتها ..

« بكرة الساعة عشرة عند عبد الوهاب بك » . أو « البارحة الساعة ٨ في شارع التوفيقية مرة كذا شقة كذا » ..

ولغت سيدة في ثلاثة أرباع شوارع قلب القاهرة . شفق أبيه هادئة تدق

حرسها . ويفتح الباب وتدخل في هنيهة ثم يعلق وراءها لتجد حياة أخرى ..

الكؤوس .. والطعام .. والضياف .. والحظ .. هيصة ما بعدها هيصة .. ودات يوم .. دق الجرس ..

وتاولت دلال الساعة . وصحتها سيدة نجيب في حماس وترحيب ..

— أنورك أهلا وسهلا أهلا وسهلا . حمد الله على السلامة . أين كل هذه العبة يا سعادة اليه ؟

وأجاب الصوت الآخر على الشبوع :

— أهذا .. جاني دور .. ولدت فيه مدة ..

— سلاحتك يا به ألف سلامة .

— الله يسلمك .. ماهي أعيادك أنت ؟

— الحمد لله رصا ..

— كما تريد أن تجلس جلسة

— تحت أمرك .. حتى ؟

— اليوم في المساء .

— في أية ساعة ؟

— سأكون موجودا في الساعة

— بضع المواعيد ؟

— أجل

— عيه الاثني

— ستر من من ؟

— حاجة جديده . مستعمل مرارحت

— ذر هاس قبل ؟

— لأ .. انكبا متعجبك جدا . حاجة عن العرو

— إدد ما تنظر الساعة الثامنة

— بالدقيقة ستكون عندك .

وتلقت دلال إلى سيدة قائلة :

— اصمعي يا رحىس الهادة الساعة الثامنة تكوني في العوان الذي

سأذكره لك راجل لقطة .. مغاول مليون ومحبوح . ولا يجه القرش ..

وأملتها العوان . وأحدث تشرحه هاجم أردت قائلة

— شدي حيك معك إدا بسلطيه حاييتش أوي . يده سائه ونس

سقوط قيمة عده . فاعمة ؟

وردت سيدة .

— فاعمة يا حالة دلال .

وفي المساء ولقت سيدة تلفي نظرة أحيوة على عيسها في المرأة بعد أن ارتدب

لباها .. وترتبت وتعطرت .

أهده أنت يا سيدة ؟

مغول ؟

ولم لا .. مادام هذا وجهك وجسدك .. علا هذا أن تكوني أنت .

أنت يا سيدة ؟ كل هذا قد أصبحته ؟

.. وعلى غير إرادة ولا توقع .. تقز حمدي إلى ذهب .

مادا يمكن أن يقول عندك لو رآك ؟

بل مادا يمكن أن يكون نصيبك منه .. لو أنك أحبته هذا الكيان أكان يمكن

أن يبادلك .. بعض مشاعرك ؟

أكان يمكن أن يقبل عليك ؟

م لا .

إنت هذا الكيان لا تقصين . عن أية محلوقة يمكن أن يكون هاجدر عنه أو

عده غيره من الناس .

ن هذا الكيان يا سيدة

بصرك العواص وتوبك الأنيق يحكم عن جسدك لحص

لا كدش موش على رأسك ولا رائحة مطبخ نوح من ثيابك

ونك كيانك الفاحر حاء من حرا

حاء بعد أن فقدت ما هو أهم منه

كلت عاتيا يا سيدة

كنسه وفقدت قدرك الذي بعيره لا تكونين أكثر من بصاعة

بالسنة حميم الذي تتعاملين معهم ومن يجه حمدي .

ونك يمكن أن تتعامل معك حمدي . حتى كبصاعة ؟

وهل تقصين أنت ؟

و لا

إنت كنت قد أنحت كيانك لكل مشتة يدع الثمن

فلا يكون من حقتك أن تمنحه لمن لم تنتهي في حياتك عن غيره

فلا يكون من حقتك أن تربيته في حصه برهة .

بعد أن تمزع في أحصاء كل من لا يربطك به أدنى شعور من مودة أو

حاج

أجل من حقتك يا سيدة .

وبلا حجل

فد عاد من حقتك الحجل في عملية باتت مهنتك .

لقد مارسها كمهنة .. بعير حجب .

ومن حقتك أن تمارسها كهواية .. أيضا بعير حجل .

ولكن م هذا كله . ومادا جر كل هذه الأمان السرابية إلى ذهنت ؟

أأذن شكلت أعصابك لحيت لو تعامبت به مروه من أجل مصت ؟

دعي عت الأمان الحسقاء . واسعدى الشبهان عن نصت

يل العمل يا سيدة ليس هذا وقت الأمان المهاد

وهبطت سيدة إلى الدرج

وعلى باب مادت

— تأسى

وبعد دقائق كادت تقع أمام العوان

وتقدمت في ثقة ودحت الأساسم وصعقت الرر ووقف الأساسم في

المور المطلوب

وفتح باب الأساسم .. ووقفت بهررها لتبحث عن رقم الشقة

ثم صعقت الرر

وفتح الباب

وتلقاها رجل يرتدي الصديري والبنطلون طويل أكرش أسمر

الألف .. مبتلى تماعيد وجهه مع سواد شعره المصبوع

وعطف بها مرحبا

— أهلا

ولم يكن وجهه غريبا عليها .

أجل من رأته

نور بك

نجل هو بعينه

لأعطى نور السباك الذي كان يعمل عنده عصوة ابن أم عصود في الثاوي

والذي فتح الله عليه وقدك وفتح ذكاه في مبداء السند

إذن هذا هو نور بك

هذا الذي يجب أن تيسر كل جهده لإرضائه

ولم لا ؟

نفس مينا ولا تيمه القود ؟

ادخل يا سيدة

ادخل

هذا هو عملك

وهذا الكنان المعطر الجميل هو بصاعتك وهو موهبت وهو

سلاحك

فأقدمي يا سيدة أقدمي

أقدمي

(٣٢)

ساعات الذنوب

أُفئت سيدة على أنور بك .. فقد يدها إليه في رقة :
وهفت نظرة الرجل المبهورة إلى وجهها وجسدها .
تجملت يا سيدة !!

لم يعرف الرجل بعمر شك .
وكيف يعرف يا غيبة !!

رائك يصعب مررت وأنت تدهين إلى الخانوت تصطحبيه إلى البيت لكي يسمع
البالوعة أو يركب جلدة لثحية أو يصلح ويور الحمار
كأن هو أعجف يعلو شباب وجهه ويديه .

وكنت صعلوكة حافية القدمين بعد أن تركت القيقاق وراء الباب حتى لا
يصايفك في المجرى .

كيف يتخطر بياله .. أن المصحاء الحافية ذات الكفش تعطو أمامه إلى البيت في
حواري الماوردي وهو يحمل وبور اللحام وحقية العلة الخشبية التي حوت
القصدير والاستوبه والعربيات والجند .

كيف يتخطر بياله . أنها هي نفسها .. الفاتنة ذات الصدر الشحدي والخفس
المعوف ولردف المكبر . تخطو إليه في ثبات وكبرياء ..
يتقدمها عطرها الموح ليعلى عن أنثى أصيلة قادمة .

لم يميزك الرجل يا سيدة

ولكنك ميرته رغم كل هذه السنين الطوال ورغم كل ما كسبه إياه يد

النعمة

ميرته لأن كل ما تمع به .. إنما هو إضافة إلى كيانه الأصل .. طبقة شعوم
علت بدمه . وكشرش تكور أسفل صدره . وتجاويد أسفل عييه ولعد تحت
دفعه وقميص حريري وكتبة ذهبية في الصدرى تتدل على كرشه .
وكل هذا لم ينف ملاحظه الأصبية . أنه العريس الذى يتلأ نصف وجهه
وعياه الصيقتان . وحاجباه المقروبان ولون جسده المسخ . م تحفه طبقة
الشحم تحت الجلد .. ولا الثياب فوق البدن ..

أى إسماعيل يراه .. يعرف أنه الأسطى أنور .. يوايز الجازر نصلح ..

أما أنت يا سيدة .. فمحتاج المرأة لكي يعرفك .. أن يقدر له هذه هي سيدة
كماضلت مع دلال ..

وليس هناك ما يمنعك إلى أن تقولها للرجل لتعرفه بتحقيقك وتجهدي
دعه في تذكرك . لو عرض أن لك من القيبة .. في ماصيك ما تجعلك بك بقايا أثر
في ذاكرته .

إسنى يا سيدة ما كنت .. وما كان .

وادخل عليه .. باعتبار ما أصبحت عليه .. وما صار إليه .. ترجس هامم ..
وأنور بك ..

وهو .. بعد مء .. سائب الكف ..

وأنت .. قد أصبحت مه .. بمجرد الاقتراب ... ودون أدنى جهد ..
موصع الرضا والتقدير . وأثقل عليك بمحكي في شوق وهمة . وقد تهمل
أسارىه .. وهتف بك :

— أهلا .. وسهلا .. أهلا أهلا

— أهلا بك مساء الخير

— مساء النور . عى النور .

ومد يده تحسب دراعها . ورمت على ظهرها . فثلاث :

— أهي كانت تحفك دلال طوان هذه المدة . والا لم يكن قدر المقام ؟

وصحكت سيدة . وأمرها أن تصعد المرحل في مقام لا يصل إليه
وأجاب قائلة

— أهدا لم يكن هناك نصيب لتلقى من قبل .

— منذ متى عرفت دلال ؟

— منذ بضعة شهور

— لا بد أنها عرفت بعد أن مرست . لعد مصي على ستة شهور لمرتب

العرش . عقب بوبة قلية .. يصحى الأطباء . بعد ما ألبس أى جهد

— سلامتك

— الله يسمعك . الإنسان يظن يشطح في الحياة .. دون أن يعرف أن جهنم

حدا حتى يدق له حرس الخطر .. فإذا عيائه تكاد تسرب منه

وكانت سيدة قد مرت بمدخل وصعت فيه شائعة . ومقعدان . أقصى بها

إلى صالة رحبة وضع في ركن منها بار أبيض عليه أرفف صنعت عليها رجالات

مختلفة الألوان والأحجام . وفي ركن آخر مصعدة مستديرة وفي جانب من

الصالة أريكة كبيرة حوها بضعة مقاعد مريحة . وعلى أحد طرفي عنقت صو

لسيدات عاريات وشبه عاريات .

وفي بين المدخل باب يدا كأنه يؤدي إلى مطبخ وحمام صغير وفي الناحية باب

مواير وم تمشق في أنه يعصى إلى حجرة النوم

وأشار أنور بك إلى الأريكة

— تفضل

واستقرت سيدة على الأريكة العربية المريحة التي تبدو أشبه بعراش وثر

صغير . وأحدث تلقى على ما حولها نظرات فاحصة .

كان كل ما حوها يوحى بالفنى والأناقة ..

بغير جدال .. ليس أنور بك .. هو الذى فعل هذا ..

إنسان له ذوق .. صعه له ..

هذا الورق الذى كسيت به الجدران . والصور والزهريات والتمائيل

يوحى هو آخر .. غورما يوحى به بيت دلال .. يوحى بأن صاحبه معه نقود .

وقادر على الصرف بل وأكثر من ذلك يريد أن يصرف .

وتساءل أنور بك

— تشرى به ؟

أجل . عادات تشرى يا سيدة ١١٢

الرجل يبدو أنه في عو عجلة من أمره . ليس لديه مهمة معينة يريد أن

يحبها ولكنه يريد جلسة ..

يريد مياطرة .

يريد جلسة على رواق .. يشرب ويمر .. ويتسلط ..

وسيدة تكره مثل هذه الجلسات .

أولا لأنها تريد أن تسمى مهمة .. وتأخذ الثمن

وثانيا لأنه ليس هناك من يستطيع أن يجدها بحسنة . هجعة . ورها .

ومع ذلك صاحبها هذا يستحق أن يجتمع . من أجل ما يمكن أن

يذنه . وليلة معه . قد تكون أربك .. من عشرة ريال . وعليها أن تمشى

معه وتريحه

وأحابه باحة .

— أمرك .

— ويسكى ؟

— أجل .

— أنا أشربه بلماء .

— وأنا أيضا

ودع الرجل وعاد بكأسين . ثم عاد إلى البار ليحمل أطباق صغيرة .

حوت أصاغا من المكسرات المملحة

وهجت سيدة لتساعد الرجل وهي نراه يعمل الأطباق

وتسأله الرجل :

— إلى أين ؟

— أساعدك .

— لا .. لا .. استريح أنت .

ولكن سيدة أصبحت على المساعدة . وأحدث ترص الأضياع ثم دعت إلى المطبخ .. وأعلنت تنصرف كأنها صاحبة بيت ..

وأسمع الرجل تنصرفها .. وقال ضاحكا :

— بعض اللواتي يدين كخدمات .. لا يعملن هذا بل يصرون دائما

أن يتصرهن كسيدات .. حقيقة المسألة . مسألة أصل ..

وضحك سيدة ..

أصل !!

أى أصل يا غبي ؟

من له أصل في هذا البلد ..

من ليس له جد .. يوشم على باطن رصغه .

أصحاب الأصول . عرباء .. ولقد كانوا في بلادهم بلا أصول ..

والأصول تتطور مع الزمن ..

أنت بلا أصل ..

أبوك بالكثير سبلك ..

ولكن أبوك سيصبح أصيلا . ابنك . ورعا باشا .

والذي كان له أصل .. سيمتد العطل ثروته الموروثة . وسيصبح ابنه عدا

بلا أصل . ومع ذلك ما دمت تصر على أنها مسألة أصل . فليكن لك ما

تريد ..

ورصت سيدة الأضياع بأناقة على المصعدة . ثم جلست على الأريكة

واصحة ساقا على ساق

ولمح أنور بك باطن ساقها وقد انصر عنه ديل ثوبا . وشاعت في بعض
البيحة ..

هذه لك يا أنور ملكك .. تعمل بها ما تشاء . تستطيع أن تنزع عنها
الثياب هورا .

ولكن الأطباء . محوكون من الجهد . قلبك لا يحصل . ماذا تبقى لك من
الحياة إند ؟

هذه هيبات متعنتك .. بعد طول الكد .. توشك أن تحرم منها .

ولكن .. لماذا الجهد ؟

ليس حتى أن تجهد نفسك لكي تستمتع ..

ورفع أنور الكأس إلى شفتيه .. وأزدد نصمها في شمعة طويلة قائلا :

— في صحتك .. يا جميل .

ومد يده فأحاطها بذراعه وضمها إليه متسائلا :

— لم أعرف اسمك بعد ؟

— رجبس ..

— قرى يا رجبس .. قرى ..

ثم رفع بقية الكأس إلى شفتيه وأطلق تنبذة طويلة قائلا :

— هذا كل ما تبقى لنا . يا رجبس .. بعد طول الجرى .. رسبنا على

خشوش .

— كيف ؟

— الأطباء منحونا من كل شيء ..

وعاد يملأ الكأس ثانية وهو يردد :

— ملعون أبوهي .. كله إلا هذا .. قرى .. يا بيت ..

ومد يده فنجس صدرها قائلا :

— ما شاء الله ..

ورفع الكأس فأفرغها في جوفه مرة واحدة وهو يقول :
— حسارة . أنبا الزماد على كبر .

ورفع كأسها قائلاً .

— اشرف يا برجس ..

ورشعت رشعة وهي تردد في صوت خافت :

— أنت ما زلت صغيراً يا أنور بك لماذا تقول هذا ؟

— استهلكنا العصر بسرعة يا برجس . كنا نريد أن نأخذ أكبر قدر من الدنيا .

— وأخفئته !!؟

— أجهل .. ولكن .. يا كبير قدر من العمر .

ومد يده إلى أنور ثوبها يحاول فكّه . وهو يقول .

— لماذا لا تجلسين على راحتك ؟

وأكملت سيدة بنت الأرزار . وحديث الثوب من فوق جسدها فألقته عن أحد المقاعد . واستراحت بجوار الرجل ..

ومد الرجل ساقه وأرغى جسده على الأريكة .. قائلاً :

— يبدو عليك بيت حلال يا برجس .. سهّل على المرء أن يستريح إليك ..

اشرف

ورفعت نرجس الكأس إلى شفتيها ورشفت رشعة .

وعاد الرجل يقول :

— أعزينا من الحياة الكثير .. ودعنا الكثير .

وصمت الرجل برهة قبل أن يسأها فجأة :

— هل تصدقين أن هذا الخالص أمانك . كان سبباً في المازودي . كنت

أصبح الخبيثات .. وأسلك بوابير الخار ؟

ودهشت سيدة من تصرّخ الرجل . وهمت بأن تقول . إنها نعرفه جيداً

جيداً ولكنك كرهت أن تكشف عنها . وتظهرت بالدهشة قاتلة .
— غير معقول

وبسط الرجل كفه الخشنة العليقة قائلاً .

— ومن يصلح الخبيثات . وتسليط بوابير الخار . في المازودي . انقلب

إلى حاسوب في السيدة . وبدأت أمارس عمليات مقاولات صحية . على

الصيق .. ثم خدمت شريكاً في إحدى مقاولات الحكومة . ومن يومها تعينت

مهمة أكثر حيوية من المقاولات الصحية . مهمة لأزمة لكل مهنة . يريد صاحبها

أن يربح منها جيداً .. مهنة الرشوة .

ومد يده يتحسس ساقها ورفع القميص قائلاً :

— لماذا تصابنين عشت بها القميص ؟ .. ألا يبدو جسدك أجمل بدونه ؟

وبساعة جذبت القميص فخلعته عنها

وتهد الرجل قائلاً .

— أجهل هكذا أفصل .. إن جسدك جميل جداً .. قلت لك إن الرشوة ..

حرفة . لأزمة لكل من يريد أن يشق طريقه إلى الثروة .. الحصول على المعاش

يحتاج إلى الرشوة . يرمى علينا المعاش بقدرة قادر . قادر على الارتشاء ..

وسهّل الصعاب وتبدّل العقبات . وفي كل خطوة .. تحتاج العملية إلى

ترتيب . وتسليك . في استلام الخافيات . وفي القياس .. بقدر ما ندفع ..

بقدر ما نأخذ . ومع الزمن .. امتلأت . ورددت قدرتي .. وأصبحت أفسر

على أن أعوض أكبر الخاسرات .

ورشعت سيدة رشعة وقالت تملق على قوله بعد أن رأته يخلد إلى الصمت .

— كل هذا من الأعمال الصحية ؟

— صحية . وغير صحية . لقد أصبحت مقاولاً عموماً .. أقمت مشآت

كاملة . كان آخر ما أقمته مستشفى ومدينة للعصاب . وبها فيها . صال .

عشرين ألف جنيه .

وتسألت سيدة في دهول

— عشرين ألف جنيه ؟

وصحبت أنور وأجاب وهو يلعب بالكأس إلى شمتيه .

— كثير ؟

— طبعاً .. كيف تعدها .

— أعدها ؟ .. ولماذا أعدها ؟ .. إنها تصاف من بره بره .. إلى الرصيد في

البنك ..

— وماذا تفعل بها ؟ ..

وصحبت الرجل برهة وهو يتأملها في شرود وأجاب كأنما يحدث نفسه .

— ماذا تفعل بها .. يا أنور ؟ لم يعد لديك ما تريد عمله .. دون أن تفعله

أكنت وشربت وخصمت . وبليت للولية والأولاد قصراً . واشترت رتبة

الكبوية .. ولم يعد لديك بعد ما تريد ..

ومد يده يتحسس صدرها وجدها إليه حتى لاصق جسدها جسده ونجم

قائلاً :

— لم تعد النقود هي المشكلة . وإنما القدرة على ممارسة ما تجلب النقود

أصبحت النقود تحلب المرء من النقود وما زلنا نعيش في الطريق .. بعد العمل

يحتاج إلى بعض الجهد . ولكنه مع ذلك يحتاج إلى نقطة .. وإلى أعصاب . لو

تركنا الأمر لمي حول ليهوني وأهمل كل شيء .. لا أستطيع أن أغمض لحظة

واحدة .. الحركة مستمرة .. وكما حدثت الناس يجب أن أحضر حديثي

يجب أن أحضر كل من حولي . كل من أتامل معهم .. وهذا الجهد يحتاج إلى

عين متفتحة .. وأعصاب مشدودة . اللحظات التي أستطيع أن أغمض فيها

عيني وأسترعي . هي اللحظات التي أعصبيها ها .. والهدية ها . محدودة

الخيال واصحة بلعالم .

وتسألت سيدة .

— ويتكث ماذا لا تسترخي فيه ؟

— البيت ؟ .. إنه منصفه عمل آخرى .. ليست رياستها لي ولكنها ليست أم

عده .. امرأه ضيق . ولكنها تمارس مودها في البيت ممارسة كاملة . وليس

عدي وقت ولا أعصب صافيتها على الرياسة .. ليس أمامي سوى هبون

مشروعاتها والتمتع على تحويلها وتعبها ما يخصني بها

ورشف من كأسه رشقة وترخي ذراعها على جسدها قائلاً وكأنه يستترك

أمرها ما

— ثم .. إذا لا يستطيع أن يمارس الذنوب . في البيوت . إن كل أعمالها في

البيت تنسج بالشرعية . وإذا كنت لا تصبر فإن للذنوب لذة . بل إنها — يبي

وبيتك — أمتع ما في حياتنا

— أمتع ما في حياة الذنوب ؟

— لأستف أجعل ؟ لا تصدقني صافيتي . الذي يحاول أن يوهو العبر

بأنه يصنع .. يرعد ويستمتعون بالشئ على بصراط .. إن حب الخطيئة .

إحدى مركبات الإنسان وتقوم به يحتاج إلى عصب . وعصا أجمه ومع عصبه

بذلك يقبل متحمداً لم العصباء لقاء متعة الخطيئة كلمة لخطيئة دائما ترجع

عند المؤامرة في قرارة نفسه .. ولا يردعه إلا الصبر والخوف . الشئ الوحيد

الذي يأخذه الإنسان لنفسه . من كل جهده في الحياة . هو ساعة ذنب أو

هيكه . يسومها . نحن نكد ونكدح . ونقيم البيوت ونشئ الأسر وربي

الأولاد . كل هذه واجبات نتوهم أنها حقوق .. الحق الوحيد هو حق في

الاسترخاء وأن فعل ما تريد هو سوا . وهي دائما تريد شيئاً غير أصولي

رغبتها الخاصة دائما بروايت .. يتحتم عليها أن تسرقها في عجلة من

المتجمع . وأن يسترد يستار يتوقف سمكه وقلته على حجب الخطيئة على ما

كملت من أدوات الرعب .

ورشف الرجل ما تبقى في كأسه السادسة ثم قال صاحكا وهو يصرها إليه .
 — قرفى يا رجل . قرفى يا حنوة . يستمتع بما حمله لنا الرمن من قدره على
 ممارسة اللذوب .
 واستسلمت سيدة لأحضان الرجل .
 أراحتة بكل ما تخلل من قدرة على الإراحة .
 لم تكن تشعر له بالمعصاة أو التحدى كما كانت تشعر الآخرين غيره . بل
 كانت أميل إلى العصف عنه .. والمهم له كان صريحا واضحا .
 وأعفى الرجل عن ذرايعها وعنت حشرة أنفاسه . في شحور متقطع .
 وأحسنت بالتسليم بسرى في ذرايعها من نفس رأسه عليها فسحبت
 ذراعها ببطء .. ولكنه استيقظ فجأة .
 وحدى فيها برهة كأنه يحاول أن يسترجمها إلى ذاكرته . وعندما ذكرها ..
 وذكر أين هو .. نهض بجذعه الأهل متسائلا في لفظة :
 — كم الساعة ؟
 وبهرت سيدة إلى ساعتها بحيرة .
 — الساعة التاسعة
 — كاد الموعد أن يصبح
 — أي موعد ؟
 — موعد مع الرجل الذي سيشرق على استلام آخر دفعة من الديار . يجب
 أن تسرع حتى لا يصبق بالانتظار . إن موعدى معه في الساعة . في المكتب .
 وهبى الرجل وقد رالت عنه كل مظاهر الاسترخاء
 وبعد خففت كانت سيدة تقف وقد ارتدت ملابسها وصعقت شعرها ومد
 نرحل يده يشد على يدها وقد علت شعته انتسامة راحية وفأر ها وهو يرب على
 ظهرها في رفق وحان .
 — أنت إنسانة مريحة .

وأجابه في إخلاص .
 — وأنت رجل طيب .
 — عفر الله لنا ساعات اللذوب التي تريها من كدح الحياة
 ومد يده فأخرج محفظته ثم أخرج من بجمع وورقات كبيرة قائلا .
 — خذى ..
 وأسكت سيدة بالورقات الخمس وعنت عليها رقم ١٠ — ولم تصدق عيب
 وتساءلت في دهشة .
 — هدى ؟
 — أجل .. إنك تستحقين أكثر منها ..
 — ولكننى لا أأخذ أكثر من ثلاثة جنيتات
 — قلت لك خذها ..
 — هل تطلع لمن هكنا دائما ؟
 — لا أذع أكثر من خمسة . وأحيانا عشرة
 — ولم إذن أعطينى كل هذا ؟
 — لأبث أرحمتى ، وليس من سهول أن يجد الإنسان من يريحه
 — هل تريد أن آتى إليك ثانية ؟
 — بل لن ترى سواك . ادعى لآل فى عجة .. ومرة أخرى
 سجلت مدة أطول .
 وعبرت سيدة باب الشقة وانحدرت على الدرج . وهى ما رالت تعبق
 نورقات الكبيرة بأصابعها .
 محسوس حبيبا يا سيدة
 فى ساعتى ؟
 مربى من محمد . بعد طوف الكد في إدرة نرحمه وفى كتابه القصص
 والروايات . فى بعضه أشهر . تأخذه أنت فى ساعتى ؟

وبلائى جهد ..

لا شيء أكثر من الاستسلام ..

لو سرت هذا المعدل . فى حياتك . فحصل على ما يهرب من ألف حية فى الشهر

هذا هو الجنون بعينه ..

ولكن أمعقول أنك ستصادهم مثل هذه اللقطة كل يوم ؟

قال عنك الرجل إنك مريضة ..

ولقد بذلت مع غيره جهدا أكبر . ولم يقل عث كذبت

لا شك أنه حالة خاصة .. لا تتكرر .

لقد قالت عنه دلال إنه مراء . وبه سائلة .. ولكنها لم تتصور قط أنها سائلة إلى هذا الحد .

ترى هل تستطيع لإراحتك فى المرات القادمة ؟ ..

وهو سيواصل الإغداق عليها بهذا القدر . ثم إنها فقط حلالة المرة الأولى ؟

وعبرت باب العمرة . ووجهه البوابير النوبين تنصع إليها ماحمة

ولصحت وجهها الذى شح منه صهد الكؤوس الثلاث التى ارتشعتها وبع الطريق الباردة ..

وسارت تطرق أرض الرصيف بكعبها . وكانت الخواصت قد أغلقت

أبوابها . وقل عبور المارة فى الطريق .. وبين آتية وأخرى غرق عربة بجوارها .

وعادت تتحسس الورقات الكبيرة التى تطلق عليها بكعبها .

أصبحت ذات ثروة يا سيدة .

هذا الميع الذى فى كعكك يهوى كل ما جمعت من كعكك طوال سى عمرك ..

مد أن بدأت سرقة البقالين عند أم عباس .. حتى محتلت مركزك فى بيت دلال .

تستطيع أن تعمل ما تشائين يا سيدة . بقودك . ست كصاحبة هذا

مدى أن الرماح على كبر . إن لديك النقود . والقدرة إلى الاستمتاع بكل ما تحببه النقود

واستحقها الطرب . وملأها الشوة .

شوة الكؤوس الثلاث تشع فى رأسها . والأوراق الخمس تشع فى كعبها

الدنيا ملكك يا سيدة .. تقارصين فيها كل ما حرمت منه ..

فى صباك كنت تتوقين إلى البيض المفلل والسجق على الصبابة النحاس بمقرش البقدوس فى الدكان ذى المرابا فى شارع السد .

كنت تتوقين إلى مشط ومرتأة .. وزجاجة عطر ..

وأنت الآن تمكيني شراء كل ما على الصوفى من سجق . وكل ما فى

الخواصت من عطور . ماذا تريدن يا سيدة ؟

كل شيء تستطيعين الحصول عليه ..

حتى الحرية ؟؟؟

والسيادة ؟؟؟

حرية .. فى أى شيء ؟

وسيادة على من ؟

حررتك فى أن تفعل ما تشائين وقتها تشائين .

ومن الذى يملك هذا ؟ ..

ما دمت تملكين . أى عمل . سأنت عاصمة لقتضيات المعمل ومتطلباته .

كل ما تملكه . هو حريتك عندما تحدين بمسك حريتك فى مراعاتك

ولكل إنسان حق المراء .. وحق الحرية فى المراء .

وأنت الآن تملكين بعض المراء

وتملكين حرية التصرف فى هذا المراء

والسيادة . يا سيدة

ليست مضافة

السيدة بالشعر

بمارسها منك من يدفع الشعر حث

ونمارسها يدورك على من تدفعين له الشعر

حريثك إذن يا سيدة وسيداتك .. نغدهما حاجت .. وحصولت هذه

الحاجة

وبالاستعاء المطلق .. نمارسين الحرية المطلقة .. ونحررين من آثار سيادة

الغير عليك . وباحتياج الغير إليك . نمارسين السيادة عليه والنحكمه فيه .

وكلمنا امتلأت كفلك .. ازدادت قدرتك على السيادة . وفدركت عن

التحرر .

شيء واحد لا تنطبق عليه كل هذه المقاييس والمعادلات ..

شيء يكمن في صدرك في قلبك .

حين يستيقظ بين آومة وأخرى ليدركك حرمان مكبوت تخالوئي

أن تغلق أمامه الأبواب وتوصدي الطرقات

وتجمل إليك والوقت يمر . أنه صبر حتى انتهى ولم يعد له وجود

وبكى في ساعات الرقاد وقد خلوت بمسك تصحين إلى النجوم في

ليلة صيف . أو تكورين بمسك تحت المعاء في ليلة شتاء . يستيقظ حين

ليدفع بالعائب .. إلى صدرك . تصفيه في رفق . وتوسدين رأسك عن

صدره حتى نمى

هذا الشيء يا سيدة .

لا سعتان لأحد عليه .

لا قدرة لحريثك على نصيبه

ولا قدرة لسيداتك عن إحصاءه

(٣٣)

ضاع السراب ...

وصلت سيدة إلى بيت دلال . وقد أجمعت الورقة ثمانية مسميق بها طاهر

والحقبة سوى ورقة واحدة

ودقت جرس الباب ، صمتت فارهرة الخادمة ..

وسألها سيدة .

— أين منك دلال ؟

— في الداخل .. مع ضيوف ..

ولم تكذب سيدة تحضر إلى الصلاة حتى أقبلت دلال من الداخل لتقول ها في

هذه .

— بنت حلال أتيت في موعدك . عندنا جماعة حصروا مبد نصف

ساعة . وليس هنا أحد من البسات سوى عذيلة ..

ولم يكن سيدة تشعر برغبة في ممارسة أي جهد .. كانت تود أن تخلو إلى

نفسها

وكانت تحس بعد الخطة التي حققتها برح من الاستعلاء والاستعاء أكتمها في

عصها الكؤوس الثلاث التي شعثت في رأسها !

ونظرت إلى دلال وردت في ملل وتبرم :

— أما متعبة يا حالة دلال !

— مغلش يا سيدة .. تحمل .. إنهم تلاميذ ولبن يطولوا .

وأجست سيدة والخمسون جيبها في حقيبتها أب قد كبرت عمل العمل مع

التلاميذ فأجاب مستكرة

— تلاميذ إيه يا خالة .. احنا حانقو !!

— مغلطش يا سيدة يا اختي . غدا يصبحون موظفين قدر الدنيا .. من يلزمي .. قد يصبح منهم للدير والوزير ، ويدكروك بالخير ..
وردت سيدة ساحرة :
— عندما يصبحون مديري أو وزراء . يغلطها ربما ..
وأجابت دلال راجية :

— ادخل يا سيدة ربنا يديكي . إل منهم تميد بوليس . قد يصبح بعد مسوت مأمور وعندما ومعهم أحرى الحقوق قد يصبح وكبلا لسياسة وأجابت سيدة مستسلمة :

— حاضري يا خالة دلال سأدخل ..

وقبل أن تغطو إلى الداعل سأبنا دلال .

— ماذا فعلت مع أمور بك ؟

— رجل طيب .. وعنده القلب

— انهم ماذا أعطاك ؟

— عشرة جنيهات ..

— شاطرة .. لا بد أنك بسطته ؟

— بصى ..

— عندما يرصى بدفع عشرة . وعندما لا تمجه الواحدة .. يعطيا

خمسة ويقول فما شئني لي على الست دلال !

وصحكت سيدة قاتلة .

— لم يرسل إليك سلاماته .. والحمد لله

ولم تذكر لها ماذا أعطها .

محسود جيبها يا سيدة ؟

لا بد أن يكون الرجل قد قد وعه وهو يعطيا لك ..

ولذلك سأنته وماشته وأصر على أن يفتحك إياها ، وأكد أنك تستحقين

هذا كبر يجب أن تخرصى عليه

لنهم الآن أن تنسى من هؤلاء التلاميذ !

ودفعت الباب ودحت الحجر

وولفت سهوة . مشهوة !

هذه ليلة عجيبة يا سيدة .

غير معقول . أبنا .

على أحد المقاعد الكبيرة في الحجر ، كان يجلس حمدي ، ويجواره عديلة ،

وعلى المقعدين الآخرين جلس صديقاه صلاح وطلعت

كان طلعت يرتدي ثياب البوليس .. الياقة الملطقة والبنطون المشدود دا

الشريط الأحمر . وبدا كأنه قد أزداد طولاً وعرضا .. وبدا صلاح قصير كما

هو ، ولكنه أكثر امتلاء ..

وبعد نظرة عابرة على الصديقين ، استقر بصرها على حمدي . احتشوش

وجهه وأعرض مكياه ، وبدا أكبر حجماً ، ولكنه ظل مشرقاً كما تعودت أن

تره

وتملكها ارتباك شديد .. وتراجعت مشاعرها محتلصة متناقصة .

الفرحة يلقائه .. والحجل من وصمها الذي تنفاه به . والبهمة عليه .

والخوف منه .

وفي رحمة المشاعر المتناقصة المتصارعة .. برزت اللهمة عليه . أبرر بما بشوة

الكأس في رأسها . والخير الراسب في أعماقها .. هتفت به « حمدي ! »

ونظرت إليها في دهشة هائقة : « سيدة .. مش ممكن ! »

وردت سيدة وأتفأسها تتلاحق . انيك يا سي حمدي ..

ورد حمدي مأخوفاً : انيك انت يا سيدة ..

وهتفت بها طلعت في صيحة صاحكة :

— سيدة .. بحرب ينك . والله طستك شيئا هاما . فإذ بك سيدة !
وهتعت عذيلة في دهشة .

— هل تعرفون رجس ؟

وردت سيدة لتختصر الطريق .

— يعرفوني عندما كنت سيدة . وكنت أعمل في بيت حمدي بك .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، قهرت عذيلة عن حجر حمدي واحتصته قائلة

— أموت في حمدي .. لماذا لا تأتي إلينا دائما ؟

وصاح طلعت :

— لأنه خشيتم !

ثم جذب سيدة من يدها وأحاط بحصرها بدموعه بعض قتالا .

— والله زمان يا سيدة طول عسري يعني عيت ، قري يا بنت !

وأقبلت دلال .. فهتت طلعت .

— وتبني المعلمة بخا من مصيبك يا عم صلاح طول عمرك تحب

العناق .. حلال عليك يا عم !

وهتعت عذيلة من عرق حجر حمدي وحرقته من ذراعه إلى إحدى

الجبرات ، وجذب طلعت سيدة من ذراعها قتالا

— يا لله يا بنت يا نلى رى امور افورق وحويتى وبغيتى على المكسر ..

وأجست سيدة أن فرصة العمر توشك أن تنفت

أقبل العائب للمعوس من لثاقه .. يا سيدة .

وسيلذهب بعد ذلك إلى غير عودة

ينك وبسه ما بين طلفتين متصادتين . لتأقهما كتمع البرق حلال كل

هذه المسيرة الطويلة بين الاطلاق والاستقرار

ليس هناك ما يربط بينهما سوى شعور أحق . منح ديوب

لم يكن بك أبدا ما يشدك إليه . أو يؤهلك له ..

كتب له . كآلاف الكائنات الصعبة به ..

وما عرفت يوما .. ما يمكن أن تصحبني إليه مع . أو تأمل منه فيه . ومع

ذلك لم يشك هذا عن الصموح . مجرد الصموح . والأمر مجرد الأمر

وتدعيت مشاعرك . كظاهرة طبيعية . ليس لها دخل بما جرحها أو من

جرحها . ولكنها تدفع لتصب في مصب . لا يحس بها ولا يابها .

وفي لحظة من اللحظات حطة مصيبة خاطئة كتمع البرق ، يتبع القدر

فرصة لقاء ، بهر تمهيد ولا غصير . وبهر تخير ولا انتقاء لا تخير في كيف

يمكن أن تقع من مصه . ولا أى أثر يمكن أن تتركه في قلبه .. ولا أية ذكرى

يمكن أن تخلفها في دمه .. لقاء غثوم بهر بديل . بما أن نفسه كما هو ، أو

تقصه . وهي تشعر أنه لا يمكن أن تعرض عنه ، لأنها تتلف عيه ، ولأنها

يمكن أن تمنح نفسها به نسبة العمر ، ولو للحظة . ولأنها تستطيع أن تمنح به

حمدي أقصى ما يمكن أن تمنحه لإنسان من منعة على ظهر الأرض

ومن أجل هذا غررت أن تقبل على اللقاء ، وألا تترك الفرصة تفلت .

وقبل أن تتحرك عذيلة لتجذب حمدي إليها صاحبت سيدة .

— انتظري يا عذيلة .. إنهم كلهم في ضيائتي ، إلى أدهومهم للعشاء .

وللسهرة .. بأكلها على حساني ..

ونظرت دلال في دهشة إلى سيدة كأنها قد جنت ، وصاحت ساخرة :

— ما شاء الله . مدمنى هذا الكرم . هل أنت حمل ما تقولين ؟

وردت سيدة في تحد :

— وأيوها يا معلمة !

— الظاهر أن الملع الذي قبضته بقرصك في يدك !؟

حمدي بك يحرق سابق .. طول عمرهم أنصافهم على ..

— وبذا ألحرج على وجه حمدي ، ونظر إلى صديقيه في قلق وصيق

وهتت صلاح :

— والله العشرة طمرت فبك يا سيده !

وقال طلعت :

— خلاص يا عم حمدي . حاسسهر الليلة تبعك ، ولي عصر بعد ذلك إلى

هنا بدونك !

وقال صلاح :

— هل تظن أن الدعوة مؤبدة ؟

وردت سيده .

— أنا في خدمتكم دائما ..

وأجاب طلعت وهو يجرها إليه في حماس :

— عشت يا سيده .. والله أصيلة .

وتخلصت منه سيده وصاحت صاخبة الخادمة :

— زهرة ..

وأقبلت الخادمة فأمرها قائلة :

— حصري السفرة .. بعد إذفك يا حاتلة دلال

وتسايلت دلال وهي ما زالت في دهشة من تصرف سيده .

— ومن سيد لك العشاء ؟

— سأطلبه بالتليفون من الخاق . هل هناك ما يجمع ؟؟

ورفعت دلال كتفها في استسلام قائلة :

— أبدا . الفعل ما يحلو لك .. ما دمت ستدفعين الثمن .

وقالت سيده مؤكدة :

— قلت لك السهرة كلها على حسابي يا معلبة !

— انتبهنا .. أنت وشأنك ..

ونظرت سيده إلى الأصدقاء الثلاثة .. وكان حمدي ما زال واقفا تحت تأثير

الدهشة من لقاء سيده ونصرفه ، وكانت الحيرة والقلق والتصبق لا تزال بكسو

وجهه :

وقالت سيده :

— ماذا تشربون ؟

وأجاب طلعت بسرعة

— ويسكي بالصوصا !

وأردف صلاح :

— وأنا مثله

ونظرت سيده إلى حمدي وقد بنا مطرقا صامتا وسأته .

— وأنت يا سي حمدي ؟

ورد حمدي :

— أنا ؟ .. لا شيء ..

وقال طلعت محتجا :

— يا أخي .. إلى متى ستظل هكذا عشيما ؟ اطلب شيئا ..

وأجاب حمدي وقد بنا عليه القشود :

— متشكر ..

ورد صلاح :

— اطلب واحدا ويسكي وسأشربه أنا !

ولم يعب حمدي ، وقالت عذيلة صاحكة :

— سأعرف أنا كيف أجعله يشرب ..

وقال طلعت :

— لا فائدة . كان غورك أشطر ..

وخرجت عذيلة تعد الكؤوس ، ونظرت سيده إلى حمدي ، وقد بنا في

شروده واجها ، واقتربت منه واتخذت مجلسها على مقعد مجاور وسأته في صوت

شبه هامس .

— هل صابقت شيئا ؟

وهر رأسه ، وقال وهو يحاول أن يرسم على شفطه ابتسامة :

— أبدا !

— هل صابقت وجودي ؟

— أدهشى !!

— وأنا أيضا أدهشى وجودك كنت آسر من توقع رؤيته .

وصمتت برهة ثم أردفت كأنما تحدث نفسها :

— وأول من أغشى رؤيته ..

ولم يرد حمدي بل استمر في شروده الواجم .

وهادت سيدة تتسائل :

— وكيف حال العائلة كلها ؟

— بخير .

— وعشت الكبيرة ؟

— لا بأس بها . أصيبت بالنسكر ..

وردت سيدة في جزع :

— سلامتها ألف سلامة . وكيف حالها ؟

— ماشيه بالأسوئى . تعلمت إعطاء الحق من أجلها .

— والست صحيحة ؟

— تزوجت ودعت مع زوجها إلى أسبوط

— والست الكبيرة تعيش وحدها ؟

— عمتى تزورها دائما ، وابنتها كوثر تكاد تقم معا .

— كوثر بنت أميرة وحقة وطيبة . لا بد أنها كبرت الآن ؟

— بلى .

— كانت تبدو دائما أكبر من سبها هادئة وعادة

— إنها تؤنس وحشة نأى . وتجمعها .

— وسيدى الكبير . كيف حاله ؟

— مات ..

وارددت سيدة رفيقا ، وقاومت دموعا همت بأن تصفو من عيبيها وقالت في

هبة حريه

— الله يحرمه ، كان رجلا أميرا .. هذه موت مني محمد .. لست أنسى مظهره

يوم وفاته .. ربما أراه .

وأقيمت عديلة تحمل صبية صفت عينا الكؤوس ، وأعطت كأنما لطعت

وشغرى لصلاح ثم أقبلت على حمدي تقول صاحكة .

— أما أنت فما تكفل بك ..

ثم قالت لسيدة وهي تحاول أن تأخذ مقعدها :

— ذهبي لي يا مرجس ..

وكان حمدي ما زال يبلو مطرقا شاردا

وأردفت عديلة تقول :

— مالكم تجسسون هكذا كأنكم في عزة ؟ . اتركه لي وسأعرف كيف

أمره .

ونظرت إليها سيدة قائمة في حرم .

— إنه صبي يا عديلة !

وردت عديلة مسخرة .

— وورثته من أبي ؟

— قلت لك إنه صبي !

— سأشرب معه هذه الكأس

— أنه لا يريد أن يشرب .. فحمدي الكأس وادهى

وصاح طلعت يستحث سيدة

— تعالى يا سيده بشرب في صحنك ..
وقالت عبدله صاحكة :

— طلعت يه يريتك يا سيده ..
— اذهبي إليه أنت ..

— ولكن حمدي بك كان جالساً معي ، وهو يريدي

ونظرت سيده إلى حمدي وأحسنت أن عليه أن يقول شيئاً يحسم به المناقشة
ولم ينطق حمدي أ ..

حمدي .. لا يجب أن يتحدث أحداً ..

لن يقول أبداً لعبدله إنه لا يريدها ..

ولن يخلصها هي أبداً ..

هي وعبدله عنده كآلاف الناس . لا يميزهم عنده سوى حاجتهم إليه ..
وقدرته على معانوتهم

ميرغا عنده . أول مرة . حاجتها إليه وهي تقف وسط الناس عقب سرقها
من البقال وهم يوشكون أن يمتكوا بها وميرها بعد ذلك كل إحساس مه بأها
تحتاج إلى عونه .. عندما كانت تحمل السلال في الطريق إلى المداين . وعندما
كانت تنقل عليها السجاجيد عند التنفيض .

ولكن هل يمكن أن يمس الآن مدى حاجتها إليه ؟

هذا الحسد الذي أدلته الحاجة . والذي تمرع هواناً بين أحضان ببيعة
كريمة ..

تحتاج مرة واحدة .. إلى أن يأنس بين أحضانه ..

إلى أن يستقر في هدوء .. بغير هوان ولا مثلة ..

أن يكرم مرة واحدة .. بالأحتواء في ملاد يمس فيه بالأمان والسلام

ولكن .. أنى له .. أن يدرك منها هذا الاحياج .

بل أنى تخونق على ظهر الأرض أن يهيم مشاعرها كإساسة . ها احتياجات

إسكان .

أنى له . ولا إلى مخلوق على ظهر الأرض أن يدرك أن احتياجاته له . احتياج
بأن تمر نفسها بعد ضل . وتكرمها بعد ضل مهانة . أنى له أو
نعيه أن يدرك هذا . من مخلوقة تنجر جسدها وتعرضه بين الكؤوس
في بيت دعارة .

لم ينطق حمدي

لأنه لم يدرك هذا ..

كانت سيده تتساور في نظره مع عبدله ..

وهو يكره أن يخلد أيا ميسا ..

وكان على سيده أن تقول شيئاً تحسم به الأمر وهي ترى عبدله مصرة على

الجلوس مع حمدي ..

ونظرت إلى عبدله وقالت في فجأة حارمة ناهرة :

— قلت لك إنه ضيفي ، اذهبي وكلمي لماسة !

وأطلقت عبدله ضحكة مقهقة وقالت في سحرية :

— إبدن فلقد اشترته بالعشوة !

ورفع حمدي حاجبه في دهشة وبدا عليه الصيق والعصب

وشعرت سيده بما يمكن أن يتركه قول عبدله من أثر في صممه .. وأحسنت

بالدم يعل في عروقها وبلا وعي وثبت من مكانها وطوحت دراعها ، وابهالت

بكمها على صدع عبدله في صممة رت في الحجرة صالحة في عصب

— يا مجرمة أ ..

سقطت الكأس بالنصبية من يد عبدله ومرت لحظة دهول ساد انصمت

الحجرة ، ثم وثبت عبدله على سيده وأمسكت بخناقها صالحة :

— يا بنت الكلب .. أنا المجرمة ..

وقصر حمدي ففصل بيها في سرعة الرق ، وجرت دلال عبدله بعيداً وهي

توصل قدوس سيدة بالشام المتقاة دلال تقول في دهشة
 — إنه ده يا بنت منك لها .. اتجتمت .. والا جرى لعلكم حاجة .
 وأقبل طلعت وصلاح يتساءلان في دهشة عما حدث .
 وأحس حمدي أن عليه أن يحسم الموقف فظفر إلى ساعته . وقال في لحظة
 حاسمة بخولا أن يتألف نفسه
 — الساعة جاورت العاشرة ولا بد أن أنصرف
 وصاح طلعت .
 — تنصرف .. لماذا ؟
 — لأن لدى موعدا .
 — موعد ؟! الآن ؟
 ورد حمدي في إصرار
 — أحي .
 — ويكث لم تخبرنا به من قبل
 تذكرته الآن
 وقال صلاح وهو يحس أن العشوة والسهرة الهاني توشك أن تطير :
 — ماد حدث يا حمدي ؟
 وهو حمدي رأسه في إصرار قائلا
 — لا شيء .
 وتساءل صحت
 — هل ستصرف من أجل هذا القوم الذي رن على صدع عذبة ؟
 وأردف صلاح صاحكا
 — الظاهر أنه ليس لديه فكرة . هذه أشياء طيبة جدا
 وقال صلت مشاركا صلاح في صحكته .
 — صبعة تعوت ولا حد يموت . احس يا أحي . احس الله شهيدك

ومد صلاح يده محارلا حذب حمدي ليحسه فوق جعد

— اجلس واغري عين الشيطان .

ولكن حمدي .. لم يجلس . ولم يصعلك . بل استمر واقفا وعلى وجهه محائل
 التجهم .

وأحس طلعت بالبأس منه فقال وهو يدرك أن يندفع نحو السهرة

— لا فائدة .. ضاعت السهرة

وقال صلاح :

— صاعت لماذا .. سأبقى أنا إذا أراد حمدي أن يصرف ويبصرف

ورد طلعت وهو ينظر إلى سيدة قائلا :

— وسأبقى معك

وكانت سيدة تعرف أن حمدي لم يبق

وأحست بأن شيئا يدمي في داخلها

من الشهاب . وانطلق في سبيله

لا عائدة .

لوح له به القدر ليذمي الفرح المتكتم ويكاد يفرح اسمعيل

بعث به إليها . ليذكرها بصالتها أمام نفسها رغم ما توهته من

إحساس بالسادة . وبعبوديتها لمشاعرها . رغم كل ما تحبته من حرية

وبمحرها أمام رعباتها . رغم الأوراق الخمس التي صحت أوداجها .. وملأها

كبرا

وسار حمدي تجاه الباب وهو يقول في هدوء :

— عن إذنكم .

وصرت دلال كف بكف وهي تتسائل في دهشة دون أن تدري سببا

حدث -

— حقا . ليس لك في الطيب نصيب

ثم أردفت وهي تغمض بشفتيها .

— حد بحرم نفسه من سهرة وعشوة بلاش ؟ .. مع بات رى اللور حقا بطلوا ده واسموا ده .

ثم التفت إلى طلعت مستائلة .

— هو الجدد ليه اللي زعله ؟

وأجاب طلعت ضاحكا .

— لأن سيدة طفت عذيلة كفا .

— طيب وهو ماله ؟

— لأنه هو السب

— اشمسي ؟

وتطوع صلاح للتفسير :

— لأن عذبة كانت عايرة تلغشه من سيدة .

وعادت دلال تسأل لى نفس الدفعة :

— طيب وده شيء برعل ؟

ورد طلعت ضاحكا :

— وسيدة عايرة تلغشه من عذيلة

واردادت دهشة دلال وهي تسأل محاولة للمريد من الاستفسار

— حلو !! . ويعندي ؟

— عذيلة لقيت على سيدة .. سيدة لطشتها كف .

ونظرت دلال إلى حمدي وهو يتجه نحو الباب وعلقت ساخرة .

— ده لارم سره باقع .. لى ترصيه غير المعلمة دلال بنفسها ..

ثم صاحبت صاحكة .

— خليك يا ابني على حسابي أنا ؟

وأحست سيدة بما يمكن أن يحس به حمدي من هذه المناقشة العجيبة الدثرة

حول .

وكان حمدي قد وصل إلى الباب الخارجى ودون أن ينلمت ورايه ودون أن

يعنى بكلمة على كل ما قيل قال فى هدوء :

— تصبحو اعل خير .

وزدت دلال :

— وانت من أهله يا روحى .. ابقي غوت .

ولحقت به سيدة عند الباب وصوت عذيلة يصيح :

— الشبحى به يا احتى ..

ثم قالت مارحة .

— لارم واحد عليه من أيام ما كنت بتسبحى اللاد وتعدى على طشت

التصيل ؟

وخرجت سيدة وراء حمدي وهي عتف به :

— سي حمدي

والتمت إليها حمدي وقد بدت انفرارة فى وجهه ورد عليها :

— أبوه يا سيدة .

— أنا متأسفة يا سي حمدي

ونظر إليها حمدي نظرة شاردة وكأنه لا يراها . وعادت تقول .

— لم أكن أقصد أبدا شيئا مما حدث

— حصل خير .

وتنمتم بصوت همس وكأنها تحدث نفسها .

— طشت أن أستطيع أن أتحدى القدر مرة .. ولكنى كنت حقاء .

ونظر إليها حمدي نظره عاجزه حبيب وكأنها تقف أمامه أول مرة . وهي

مسلة بسرقة البقال والباس يتصايحون من حولها .

ولم يسألها هل مرتقت ؟

ولكنه سأفأ في هدوء .

— ما الذي فعلت إلى هذا الطريق ؟ .. لماذا ؟

وطلعت زهرة حرة

ولم نسأله .

ومادا مات أبوك ؟

وتركتك صعاء ؟

ومادا لم تحبسي ؟ .. أو تترك مرة واحدة .. ألى ما أحببت في الدنيا غيرك .

ناد، كل هذا ؟

من ما برع الشوك في حريقه ؟

ولكنها لم تقل شيئا من هذا

ما العائلة 114

وتخست باحتصار

— قدوما .

ونظر إليها نظراته العظوف التي نظر بها إليها يوم أن قالت له : أجل . إني

سرفت .

وتساول حمدي وهو يمسك بكفها في كفه :

— هل أستطيع أن أفعل لك شيئا ؟

وتحت لو استطاعت أن تسأله أن يأخذها معه كما سأته أول مرة . ليأخذها

من الصباغ .

وأحست أنها على استعداد لأن تبعه كما تبعته أول مرة . مجرد .. نابعة .

وتصايل أمامها مجأة .. كل ما اكتسبته من روثي .. وانكشفت في مصها

كل مظاهر .. الحرية . والسيادة .

ولادت بالصمت فلم تعلق بكلمة

وشد حمدي على يدها قائلا

— تصبحي على خير

وقبل أن تفلت يده من يدها تساءلت في مررات حزينة :

— هل أستطيع أن أزررك يوما ؟

ونظر إليها حمدي مؤكدا :

— بالطبع

— ولي تغيرهم بشيء عسى ؟

وهر حمدي رأسه مؤكدا :

— مطلقا .

وقبل أن تفلت يده من يدها أحست رأسها ومستها بشمتها وأحس حمدي

بقطرات دمع تندی أصابعه .

ومسح يده برقع ثم تحسس رأسها في عطف وقال .

— إذا احتجت إلى أي شيء . فتعال إلى .. بيتنا مفتوح لك دائما

وهرت رأسها بالشكر

وهبط حمدي على الدرج . ووقفت نصت إلى وقع خطواته يتباعد .

أفلت الطيف يا سيده .

وصاع السراب .

عودى إلى صبراتك الجافة .. لتضربي فيها باحثة عن حرية موهومة وسيادة

كادبة

البل يتدفق أسفل الكبارى . وجل انقطع يتعالى من بعيد وراء أمسية القاهرة .

وبائع الترمس يقف وراء عربته . والتفعل مرصوعة لكل عابر سبيل . والطعمية تطشطنش في ريت القلادة .

ظواهر . لا بأنه لها إفساد . يؤخذ بتلك الأحداث ذات الدوى ومع ذلك فهي أبقى من الأحداث ..

الحكام يتابعون عثرون الصحيح على عابرين الصحف .. وبعد أيام يدعون إلى حيث لا يعرف أحد .

والبل يتدفق والمقطم يرقب المدينة في صمت . وبائع الترمس يساوى لور .. ورشاش الزيت يتطاير كلما سقط فيه قرص من أقراص الطعمية .

والناس يسرون في الشوارع ، أو يجلسون على مقاعد المقهى أو يرقنون في الدور ..

والعابرين البراقة .. تضوى ثم تختفي ..

ولا يبقى من كل هذه الغلبة إلا ما ينفق الناس ..

« أما الزيد فيذهب جفاه » .

وأكثر ما يثير الصحيح ريد يذهب في الأرض جفاه . أما ما ينفق الناس .

مائل القليل .. ولا يدركه الناس أنفسهم . إلا بعد أن يطوى الرمز أصحابه . ومرت الأيام بسيدة . برصيد يرداد في البيت . كان صاحب الفصل الأول

فيه هو أنور بك الذي أخذ ارتباطها به يرداد مع الأيام عندما أخذ يألمها يوما بعد يوم .. يشعر أنه لم يعد له غنى عنها .

ولم تر حمدي بعد آخر لقاء . وإن واصل أصدقائه من ربائل البيت حمل أخباره إليها . وكان آخرها أنه تخرج في كليته وبدأ العمل في الصحافة في جريدة

البلاغ .

ورارها عيسى مرة ..

(٣٤)

طريق جديد ..

واصلت سيدة حياتها في بيت دلال .. مبهكة في أداء عملها بين البيت والشقق الخاصة الهادئة المظهر الصاحبة الباهن .

وتدقت النفود في يديها

وكانت تعرف قيمتها جيدا . تعرف كيف تحولها إلى مصوعات . كما علمتها سيدتها فاطمة عندما كانت تجمع أحرها شهرا بعد شهر .

وعرفت شيئا جديدا . اسمه البنك . يمكن أن تصبح فيه بقودها . ويدهر شيكات تصرف منها قدر ما تريد

وتعتمد من الثروة والكتابة ما أمكس من أن تقرأ عابرين الصحف . وتكتب اسمها في أسفل كل شيك .

ولم تكن تحس بارتباط كبير بينها وبين هذه العابرين التي تملأ ربوس الصحف .

مات ملك .. وجاء ملك .

سقطت وزارة .. وتألفت وزارة ..

كل هذا لم يكن يعنيا في شيء ..

لم تكن تحس أن شيئا مما حولها يمكن أن يتأثر بهذه الأحداث التي تقع إلى عابرين الصحف . وتتفجر على ألسنة الباعة كأشياء طلاقات القشكشك . دوى بلا

إصابة .

أكبر الظواهر . وأنصاعا . كان يبدو في موضعه وكأنه يبر كتمه بلا مبالاة .

ومحنت هي مبراته . وإن لم يباحاً هو . فقد أدركت أنه يعرف أنها تعمل في بيت دلال .

وكان مظهره جديداً عليها .

كان يرتدى بدلة كحلبة أليلة وطربوشاً أحمر مائلاً على أحد حاجبيه ويمسك منشة في يده ويصع قرنعة حمراء في عروة جاكته . وفي قدميه حذاء أسود ليصع فوقه جترًا رمادياً .

وقدمته إليها دلال بقولها باحترام :

— عباس بك البرعي .

ولم يكن القالب الذي وصفت عليه كل هذه الأبهة قد تغير في شيء اللهم إلا بعض امتلاء النعمة والراحة .

وأقبلت عليه سيدة وحيدة وهي تقول في نعمة لا تغلو من السحرة :

— أهلاً وسهلاً عباس بك .

وقالت دلال :

— أظن الحكاية معرفة قديمة .

ورد عباس صاحبكاً :

— قديمة جداً .

وقالت دلال :

— إذن أضع منها أنا .. عني إنيكمنا .

ولم تكذب تخفي دلال حتى هتلت سيدة في دهشة :

— ما الذي فعل بك هذا يا عباس ؟

ورد عباس صاحبكاً :

— فعله من فعل بك هذا .

وأشار إلى جسدها من أسفل إلى أعلى . وهي ترتدى ثوباً ملتصقاً بجسدها . وقد فاح منها العطر ليلاً الحجرة .

ونظرت إليه سيدة بنظرة لا تغلو من الخبث وقالت متسائلة :

— أفهم من هذا أنك بدأت تعمل .

— أعمل في ماذا ؟

— في أي عمل . المهم أن تعمل .. وأن تحب عملك وتنقته . كما قال لك أبوك

— وهل أنت تعملين ؟

— أجل .

— وتحبين عملك . وتنقته ؟

— أحاول .

— آخر مرة قمت إنك لا تستطيعين أن تحبيه .

— مع الرمي اعتدته .. وروحت بحسى عليه .

— وبنت تنقته ؟

— أعتقد . وإلا لما أصبحت فيما أنا عليه ..

ورد عباس صاحبكاً :

— يبدو عليك أنك أتقنته جداً

وعاد يرمقها بنظرة الفاحصة

— بدا عليك العر يا سيدة . محنتهم ينادونك بمرجس هائم .

— كما ينادونك بعباس بك

وصحت سيدة برهة ثم عادت تتسائل وهي ترمق المنشة في يده ولحقاتها
العصر الآخر في أصبعه

— لم أخبري بعد من أين لك هذا ؟

— باحتصار . ورثت .

— من ؟

— هذه المرة أني .

— المعلم برعى مات ؟

— الله يرحمه .

— ألف رحمة .. كان رجلا طيبا . وحادا .. للأسف لم يورثك شيئا من حصاله .

— الحمد لله .. أورثني ما هو أفضل

— ماذا ؟

— أشياء قيمة لم أعرف بها إلا بعد موته .. بعضها في البنك . وبعضها في درجته .. غير بيت في الدراسة وحنة أرض .. لا أدرى أين ؟

— وماذا فعلت بها ؟

— ما لم يستطع هو فعله . اشترت عربة . وأخذت شقة على وش الدبا في شارع حورت عصمت فيها مكتباً واستراحة .. ولبست وعشت واستمتعت ..

— والمطبعة ؟

— ما هنا ؟

— ماذا فعلت بها ؟

— شعالة كما هي .

— من الذي يعمل بها ؟

— الأسطى عبد الرحمن .. وبقية العمال كما هم .

— أعني من الذي حل محل أبيك ؟

— أين ؟؟

— وأجاب في عيظ .

— في المطبعة . ألا تذهب إلى هناك ؟

— من أن لآخر أذهب لأخذ الإيراد . وهي ماشية

وتهدت سيدة قاتلة

— حقاً . مال الكثرى للرعى . حزن أبوك نفسه في الجحر لكي تظفر أنت بأمواله على وش الدنيا ..

وصحك عباس قاتلاً .

— قولى يا باسط .

— إلى متى ؟ . إلى أن تصرف الفرشين وتجلس على البلاطة

وعادت تظفر إليه في عيظ متمتعة .

— طول عسرك يا رجا .. وأنت ككده .

— يا منى حليها على الله . حد واحد منها حاجة قومي بها .

ونظرت إليه سيدة متسائلة في سخرية :

— معك بونات ؟

واندفع عباس مقهقها :

— انت فأكرة

— ماذا فعل العسكرى بك يومها ؟

— ذهب في إلى القسم . وشموى علقه . صحصحتنى .. قال لي

الباشجوش يومها وهو بيوى على بكفه : طب رور لك حاجة عدلة . مالفيش

غير البنات الوسعة دى التي ترورها .. وس يومها . ثبت

ثم هد يده إلى المظفة في جيب البطلون قاتلاً :

— لم تعد بها حاجة إلى البنات . معاً ما يكفى من البكوت .

وتمودت أن تراه بين آونة وأخرى وفي كل مرة تعرف أنه باع شيئاً مما ورت

يستعده في معاته .. حتى انقطع ما بينهما بعد أن تركت بيت دلال ..

واستقرت نهائياً في شقة أنور بك .

كانت ربابها لشقة أنور بك قد أعادت تتردد .. حتى أصبحت لا تكاد تجد

وقفاً لربان دلال

وفي ذات مرة دف جرس التبعون في بيت دلال

وردت دلال .. وعرف أنور صوتها نقاش :

— مساء الخير يا ست دلال ..

— عير عليك .. أملا وسهلا .

— أين ترجس ؟

— ترجس . ذهبت في مشوار .

— أين ؟

— والله ذهبت تقصى مصحة .

— ومتى ستعود ؟

— لا أعرف بالضبط ..

وتساءل الرجل في عصبية :

— لا يعرف أحد أين ذهبت .. ولا متى تعود .. شيء غير معقول . من

فصلت عندما تعود .. تضرب لي تليفون فورا ..

— حاضر . من عنده الآنين

ووصفت دلال السماعه وهي تعرب كما يكف فائله .

— الرجل انهبل .. حقا بطلوده واحموده .. هي البت مقطوعة له .

راحت لوين .. جت متين .. وراها شغل يا ادلعدي .

وعندما عادت سيدة قالت لها دلال في سخرية :

— الهروس .. سأل عليكى .

— من ؟

— بسلامته سي أنور بك .. لا يستطيع أن يصبر على نعدك

ونظرت إليها نظرة متبرمة ثم تساءلت في صيقل :

— كم بعصيكى على كل هذا ؟

— عشرة جيهات .

— لا بدعوا .. عطسى عشرين . ما دام قد علق بك هذا الشكل .

— كيف أطلب عشرين ؟

— كيف تقضى عشرين ؟ . كل تعبين العشرة

— ولكنه يصعبها في الشقة كل مرة

— قولى له إنك في احتياح إن تعود . والا حاتعمل بعصك عشرينه

— سأعمل جهدى

— أنا أوصحت لصالحك .. إنك ستستعبدى متى .

وهت سيدة بأن تحطو إلى الداخل عندما هتفت بها دلال .

— اطلبه في التليفون .. إنه في انتظارك .

ودقت سيدة التليفون .. ودارت عداثة قصيرة .

— أنا ترجس .

— أين كنت ؟

— في مشوار

— مشوار .. أين ؟

— شغل

— متغير

— آآ ..

— أحل .

— حاصر .

وتركت السماعه وانجهت إلى الباب فائله

— أنا ذاهبة يا خالة دلال ..

— شدى حيلك .. ما دام ملهوف كده . لن يرد لك طلبا .

وبعد برة كانت سيدة تقف أمام باب شقة أنور تدق الحرس

وتحرج الرجل الباب . وكان وجهه يبدو متجهما وسألها في عصبية

— أين كنت ؟

وردت سيدة في عصرية ممالة وعد آثارها أن يلتقاها مثل هذا التجهيم .

— قلت لك كنت في مشوار .

— أين ؟

— ولماذا تسأل ؟

— لأنني أريد أن أعرف أين كنت بالضبط .

— كنت في دامية .

— لا داعي لقلة الأدب .

— قلت لك كنت في شغل .

— أي شغل ؟

— ألا تعرف ما هو الشغل ؟

— قولي إنك كنت مع رجل .

ويتحد أحبات سيدة .

— أجل كنت مع رجل . ألا تعرف أن هذا هو شغل ؟

وبهذا التصق والعصب على وجه أنور بك وصاح بها

— من الآن .. أريدك أن تتي هذا الشغل الذي يتحدثون عنه بمثل هذه

البساطة

— أعطتك هرعتني بواسطته .

وصاح بها :

— أجل .. ولكنني أريد أن تنبه

— ولماذا ؟

— لكي تبقى هنا ..

— كيف ؟

— سأعطيك هذه الشقة . وسأعمرها لك من جديد . وأعطيك كل ما

تريدين .

وصحت الرجل برهة يتأملت أنعاسه ثم عاد يقول بنفس الخدعة .

— عل أن تتي كل علاقة لك بدلال . وبكل من تعرفين

— وماذا يجرني على ذلك ؟

— قلت لك سأعطيك كل ما تريدين . سأصعب باسمك في البنك ألف جنيه .

وسأكتب هذه الشقة بكل ما فيها باسمك . وسأعطيك في الشهر مائة جنيه

مصروف يدك .. عدا ثيابك ومصروف البيت وكل ما تحتاجين إليه .

واسترحمت سيدة في مقعدها ..

وانطلق ذهبا يفكر .

هذا طريق جديد فتحت أبوابه أمامك .

طريق . يرتبطك بهذا الحقوق اجالس أمامك . بكل ما فيه من حساسات

وسيدات ..

متصحين تاهية له .. بطريقة ما .

طريقة غير شرعية بالطبع .

ولكنها متصقت به ..

مستمتعين بكل حيراته .. ستكون لك اليد الطولى عليه .

ولكن ماذا يمكن أن يبقى لك من حيراته مع القطيع المتصق به .. أو انقبية

التي يتزعمها ..

أم عبده روجته .. ذات الوشم على دقها .. والأولاد التسعة . والأحفاد

الثانية عشر ..

ماذا يمكن أن تنال هي . من هذه القبيحة ذات الحقوق المشروعة ؟

هل يمكن أن تأمل في مركز شرعي . تدخل به في قتال مع القبيحة ؟

أم تبقى عشيقته . تسب كل ما تستطيع أن تسبه . قبل أن ينتهي بها الأمر على

رصيف الطريق .

على أية حال إنها فرصة .. يجب ألا تترك .

ومصروعها .. أولا .. وآخرا على الرصيف ..

المهم .. هو ما يمكن أن يكون في جيبيها . بعد آخر رمية على الرصيف .

ولكن هل يمكن أن تحمل السجن مع صاحبها هذا ؟ ..

ولم لا .. هو لو غيره .. سواء ..

المهم .. الثمن .

وهو من غير جدال .. أقدر من عرفت على دفع الثمن .

وعاد أنور بك يستحثها في شبه استعطاف :

— ماذا قلت ؟

وبطرت إليه في شروء قاتلة .

— ذهني أفكر .

والقرب منها أنور بك .. ونحوها فجئت إلى توسل قاتلا :

— سأعصمك كل ما تريدني إلى لم أعد أسمى عندك . ثم أعد أشعر

بالراحة إلا في جوارك ..

وصممت سيدة وقد رادها الشروء .

أمكن أن يكون هذا الجلباس أمامها بديلا لعمدي ؟

ولكن .. أين حمدي ؟ ..

ولمّا غاور أن نحقق به وجودا في حياتها . لتجعله موضع مقارنة مع سواء ؟

لمّا ترددت يا حقا . كثر وانتح لك كيف تحميم عن ؟

التي يا جريوة قبل أن تصعب القرصة .

التي واصل بعد ذلك ما نشأتني

ستصبح لك شقة فاحرة .. وستحصلين على كل ما تشائين من شباب

وحل .. وسيفي بعد ذلك في يدك مائة جنيه

حلم يا سيدة . ما حسرت يوما على أن نغمي به

وبطرت سيدة إلى الرحل ثم غنت في هدوء

— حسن ما بقي معك

وبلبل وجه الرجل وأقبل عني بعصمها إليه

ومد يده مفتاح الشقة قاتلا

— خذ مفتاحا معك .. وسيفي آخر معي

ثم جلس إلى المصدة وأخرج من جيبه دفتر الشكايات وكتب :

« دعوا لحامله مبلغ خمسمائة جنيه » وأمسى إمضاء لا يقل ركافة عن

إمضاءها . ثم مد يده إليها بالشيك قاتلا

— خذى خمسمائة تحت «خواب» دبري بها أمرك . اشترى ما تريدني

من الأثاث والشيء

وتناولت سيدة الشيك ببساطة في حقيبتها ثم قالت .

— ذهني أهود إلى دلال .. لأصفي موقفي معها

— وماذا لديك عددا ؟

— ملاهي ومصروعاتي

وبدا التردد على وجه أنور بك وقال في خشية :

— أحشى إن عدت إليها أن تدبر رأيت وتغير رأيت

— لا تخش شيئا لن يستطيع أحد أن يعير رأيي : لانت تصرفت

ومعاملك

— اطمئني .. سأفعل ما يريدك .

وعادرت سيدة الشقة عاتدة إلى بيت دلال

وتحت دلال الباب لتسأله في دهشة :

— عدت بسرعة !

— أحوي .

— لماذا ؟ هل تماركني ؟

— أبدا

— إذن ما الحكاية ؟

— نقد بئس أن أبقى معه

— وغدا لم تبقى ؟

— أبقى معه على طول !

— كيف ؟

— أعطاني مفتاح الشقة . وطلب مني أن ألتقط له .

— وماذا قلت ؟

— وافقت .

— تقطعين لأنور بك لماذا ؟

— لأنه — كما قال — لا يستطيع أن يستعصى على .

— وماذا سيفعلك .. سواد عييه ؟

— قال أنه سيفضي ما أريد .

— هن سيترجلك ؟

— لم تتحدث في هذا

— وغدا لم تعطيني منه ذلك ؟

— ولماذا اعديبه ؟

— لكي ترثه

وصحكت سيدة قاتبة :

— لم يظف به هي أن أرثه . وهو يقف أمامي كاخضبان .

— إذن ماذا سيفعلك ؟ سأأخذ مراحه منك ثم يقيث على الرصف

— يا ستي ... عندما يأخذ مراحه يحتملها الحلال

— اسمعي نصيحتي يا بنت هذا الصنف لا يؤخرني من يوم وليله . يمكن

منك فيلقيث في الطريق . لا بد أن تعصى شيئا في ذلك

— طعما سأعمل هذا . أنا لست عشيمة يا حالة دلال .. أنا صيكتك .

— وحتى ستهين إليه ؟

— الليلة .

— ولماذا هذه العجلة ؟

— لقد كان يرعب في أن أبقى معه . ولكي قلت له إن لا بد أن أعود

لأودعك .

— هيكي الخور .

ودخلت سيدة إلى حجرتها لتحزم حاجياتها .

وبالت ليلتها في شقة أنور بك .. أو شقتها .

ومنذ ذلك الحين .. استقر بها المقام في مقرها الجديد ..

أصبحت سيدة .. سيدة محترمة .. لها سفرجي وطباخ ..

وتم لها كل شيء لكي تصبح .. مدام أنور بك .. عدا وثيقة الزواج . وم

تخسر هي أبدا أنها في حاجة إليها .

لقد يسر لها الرجل كل ما تريد . وصحها أنقصي مما كانت تجسر على أن تحسب

به .

وكانت تكره أن تسب له أية تعقيدات يمكن أن تزججه في منزله بل بدلت كل

جهدها لكي ترجمه .. وتستره ..

وقدر لها الرجل ذلك .. فزاد إكرامه لها وتعلقه بها .

ذات ليلة .. سهر وأياها ..

وكان في حالة انتعاش بعد أن حقق صمعة كبيرة مع الجيش البريطاني بعد أن

أعلنت الحرب

وشرب الكأس ثم الكأس .. حتى انتشى .

وحلس يأكل . وبذل أن يضع القوطة على صدره .. وصع قطعة من ثيابه .

وقيل أن يهسر ليحصل يديه .. وضعها مارحاً داخل الصدري

وانتهت السهرة . وخرج عائداً إلى بيته في الجيرة .

وأُوت سيدة إلى حجرتها . تم ثيابها فاكشمت قطعة ناقصة .

وتذكرت أين ذهبت القطعة .

وعبرت صدرها بيدها صائحة :

— يا هار أسود .. ستحرب أم عمدة بيتك يا أنور

ولم تعرف ما يمكن أن تفعله .

وانتظرت برهة كافية لعودة أنور إلى بيته .

ثم نهضت إلى التليفون وطلبت غمرته .

ولحسن الحظ أجابها صوته وحسنت بسرعة :

— اصبر .. أنت نسيت حاجة داخل الصدري .

وأجاب أنور وقال متلجلجاً :

— أجل .. أجل ..

ثم وضع السماعة ..

وفي الصباح أخبرها أن أم عمدة كانت تقف أمامه وأنه كان يوشك أن يبلع

الصدري أمامها لتكشف ماذا يوجد بداخله وأنه ترحه رأساً إلى الخلف فألقى به

من الشباك .

ومد تلك الليلة راد تدبيره لها

أصاف ببساطة خمسمائة جنيه إلى حسابها في البنك وسمحها بالإصاف .

ورارتها دلال ذات مرة وأحسست بالنعمة التي ترضع فيها

وقالت وهي تبرز رأسها في حشد .

— شيء ما كان له . ربما داله

ثم أرادت بعد برهة .

— وانحوس ماوى يتحورك متى ؟

وقالت لها سيدة ببساطة .

— مش ماوى

— لو باقى عليكى حقيقى كان التحورك

— يا حالة دلال أنا لأأريد الزواج .

— حارة .

وخرجت دلال من عندها ذلك اليوم لتبدأ سلسلة من المشاجعات .

صبرت تبيعون لأن أم عمدة لتضربها أنها مائمه عن آدابها وأن روحها قد

تروح

تحدثت هي وصبياتها إلى بنات الرجل وأولاده . فتعبرهم أن أباهم تروح

وأه أنجب ونذا سيشار كههم الميراث

ومن يومها انتهى الاستمرار من بيت سيدة وبدأت الشغب

كل يوم مكالمه تهددها عنها امرأة بالقتل . وتسيبها بدفع الشتم .

واشتكت سيدة إلى أنور

وشكا أنور إلى سيدة . أن بيته انقلب إلى حجير وأن أم عمدة تكاد تحرق

وهي تسمع يوماً بعد يوم .. إشاعة جواره

وأن هناك من يتطوع لقتل أحمره معها

أنور ذهب

أنور خرج .

أنور دفع لها

حتى تحولت حياة الرجل إلى حجير .

وفي إحدى الأيام أقبل أنور على سيدة وقد بد عليه الحزن والوحيدة ليقول

ها - .

— أم عيده أصبحت بذخحة

وفي اليوم التالي ..

قرأت في وفيات الأهرام .

« توجبت إلى رحمة الله .. السيدة حرم المقلول المعروف .. الخ .

واحتلعت في نفسها الشاعر .. واضطربت الأحاسيس ..

هل أنبت وفاة أم عيده المتاعب ؟

أم بدأت بها متاعب جديدة ؟

(٣٥)

نهاية مرحلة

أقبل أنور بك على سيدة بعد بضعة أيام ، وقد بدا محطما مهموما ، ولم يبق
عندها سوى بصع دقائق أمصاها صامتة ثم انصرف قاتلا إلى ليدية بعض الأعمال
العاجلة لا بد أن ينهيها ..

ومع الأيام أحست سيدة أن الرجل أخذ يعتمد عليها ..

رياراته لما قد نشرت ..

وهنت عليها قد صاعت .. وعظاها ها قد تناقصت حتى أخذ الضروري
الذي لا غنى لها عنه ..

وأحست سيدة أن وفاة زوجها ، أحدثت تأثيرا عكسيا لما كان يمكن أن
توقع .

وشعرت أن أيامها معه أصبحت معدودة . وأن حياة الاستقرار التي
استمرت أنها يمكن أن تنتهي ، وأن عليها أن تعود مرة أخرى إلى حياة الكفاح بجسده
تقلبه في أحضان الزبائن ..

ودكرت مصيحة دلال لما بالروح . وأحست كأنها حلقة نجاة يمكن أن
تخلق بها ..

وفات ليلة وهو يجلس معها في صمت وشروء سألته

— إلى متى ستظل على هذا الوضع ؟

— أي وضع ؟

— الوضع الذي عر فيه ..

— لا أفهم ما تقصدين .

— كلام الناس كثير . و الخراف ينساجون . أين اليه ولماذا لم يعد يأتي إلى البيت ؟

— دعيها من كلام الناس ..

— كيف .. انهم ينهشونني بألسنتهم ؟

— وماذا تريدن ؟

— أريد أن أعرف موقفى منك .. إلى متى سأبقى هكذا معلقة ؟

ونظر إليها أنور نظرة طويلة ساهرة ، ثم قال فى هدوء :

— لست أدري ماذا جد عليك . البيت هو البيت . والقود هي القود

ماذا يفعل منك حتى تتدمرى ؟

وأجابات سيدة فى تروم وهي تحاول أن تجد مبعدا إلى مطلبها

— هل تستطيع أن ألقى العمر هكذا ؟

— وماذا ؟

وأعلنت لمحبها ترداد حدة وهي تقول :

— طبعاً .. ماذا يصيرك أنت ؟ بيت معنوح وامرأة تشتطرك . تأفى إليها وقتها

نشاء .. وتتركها وقتها نشاء !

ورد أنور فى ضيق وبرود :

— لا داعى هذا الكلام يا رجبى . دعيني أفضى اللحظات التى أنصباها فى

هدوء فالتعب لا تنقصى ..

و لم تجد سيدة بدا من أن تطلق طليقتها .. فقالت فى حزم .

— اسمع يا أنور .. الأمور لا يمكن أن تسير على هذا الحال .

وصمحت لحظة لتتفقد أعصابها ثم قالت :

— بصراحة . هياك عرساً تتقدم إلى

ونظر إليها أنور ونساء فى دهشة

— عرساً ؟

— أحل عرساً ؟

— عريّة ؟

— عريّة لماذا ؟ ألا أستحق أن يتقدم إلى من يريد الزواج منى ؟

— لا أقصد

— أم ترائى لأستحق إلا أن أكون عشيقاً ؟

— قلت لك لا أقصد .

وساد الصمت برهة .. قطعه الرجل بتساؤل فجأة

— وعن هؤلاء الذين تقدموا إليك ؟

— كثيرون !

— مثل من ؟

وبدأت سيدة تبحث فى دهبها عن شخص يمكن أن تدفع به الإشارة مشاعر

الرجل .. وكان أول من خطر ببالها هو عباس فقامت ببساطة :

— مثل عباس بك

— عباس بك من ؟

— عباس بك البرعى

— لم أسمع به من قبل !

— رجل من من الأعيان وله مطبعة كبيرة . وعدة بيوت وأحيى

ومصر إليها أنور فى هدوء وهن

— ولماذا لا تزوجيه ؟

و بحثت سيدة كأنه هوى يصغعه على وجهها

أهدأ هو مدى تمسكه به وحرصه عيب ؟

فقد حاولت أن ترضى هذا الرجل . ثم تقرد إلى الأمام . وتب تصعه فى مرمى

لا يخرج له منه إلا يعرض الرواح
ومع ذلك .. وجدته يتسلل هو ببساطة ويصمها في المارق ويبسها مادا لا
تتروخ عباس
وصاحت به في حدة
— هكذا ببساطة أقل رواحه ؟
— ألم يعرضه عليك ؟
— أجل
— ألم تقوى عنه به رجل من ؟
— أجل .
— إذن لماذا لا نقلبه ؟
وعادت تصيح لي حدة :
— وهكذا تصمي كأى سلمة في غاترية . تتذلف بها أدور شر
ومد أنور كفه فوضعه على كفتها وربته بهوء قائلا :
— لا داعي لأن تتوري هكذا . أن ما أقل لك شيئا ، ولم أقص مشي ، وبت
أنت التي صفت بهذا الوصع وبكلام الناس . وأن لست على استعداد لأن
أعبره .
— وصرحت فيه بحدة .
— ماد ؟
— لا داعي للصراع . نعدني بهوء ، وإلا تركت لك البيت .
وحصفت برحى من حدة صوتها ، وتسايلت في صوت أقل حدة .
— لماذا لا تستطيع أن تعبر الوصع ؟
— عبره إلى ماد ؟
— تتروخ
— أعدا معقول ؟

— لماذا لا يكون معقولا ؟ .. ما الذي يحدث ؟
— اسمي يا رجس . طوال هذه المدة التي عاشرتك فيها . لم تعنني هذا
الموضوع .. قلماذا تتوربه الآن ؟
— لأن لا أستطيع أن أصبح عمري معك . ثم أجد نفسي بمعك بلا
ماوى .. أجد نفسي على الرصيف !
— لماذا على الرصيف ؟ . إن لديك هذه الشقة ولديك نقودك في البنك ..
— إلى متى يمكن أن تعيشي بنقود في البنك . إلى أن يذهب شبابي ؟ .. ولا
أعود أجد من يعولني . حتى العمل الذي كنت أكل منه لفتني .. لن أصلح
له . بل لا أطيق أن أصلح له من الآن !
— لماذا كل هذا ؟ .. أنا لم أتخل عنك .
— ولكنك قد تتخل عني غدا ..
— لن أتخل عنك ما دمت حيا ..
— ومن يضمن لي حياتك ؟
— الأعمار بيد الله ..
— ولكن من حفي أن أطلب صمنا .. لا يمكن أن يصيح ما قصبت من
عمري معك هباء .. أنا أفني معك رهرة عمري .. وكل من حولك له ضمان من
بمعك .. إلا أنا !
— تتحدثين كأني أوشك أن أقضي غدا !
— لا أقصد هذا . أعطاك الله العمر الطويل . ولكنك أنت قلت إن الأعمار
بيد الله .
— وصحت الرجل برهة ثم مظر إليها متسائلا في هدوء :
— وبعد .. ما أخيرة هذه المناقشة ؟
— إما أن تتزوجني .
— أو ...

— تكذب لي ما يعادل ما يمكن أن أستحقه منك !

— هكذا ؟

— أليس هذا من حقى ؟

— وإذا لم أقبل ؟

— يصبح بقاى معك حقاقة .. وإضاعة لعمري سدى !

— وتروحين عباس بنت ؟

— عباس بنت أو أى ربال خير من بقاى معنقة هكذا .

— وتنتهى علاقتنا ؟

— طبعاً !

— أهذا هو الحل الوحيد ؟

— أعتمد هذا ..

— افعل ما يريحك ، وسأظل دائماً تحت أمرك .

وقام إلى المصيدة جهوء وأسرح من جيبه دفتر الشيكات وكتب في أحدها

رقما ثم أمضاه وأعطاه إياها قائلاً :

— حسدى ..

وتساقلت في ضيق .

— ما هذا ؟

— خمسمائة جنيه .

— لست أريد منك شيئا ؟

وحقيق أنور الشيك ثم وضعه تحت الزهرية على المصيدة قائلاً :

— حينه فقد بمعك .

وقبل أن يتجه إلى الباب توقف أمامها قائلاً بعد أن رفر زهرة طويلاً

— اسمعي يا مرجس أنا لا أشعر أنى بنت أهلاً هذه الحياة ! لم يعدنى مفس .

حتى للاستمتاع . لقد هدنى وفاة المرحومة . في بعض الأحيان عندما أحلو إلى

مفس أشعر أنى مسئول عما حدث ها . أنا أعرف أن الأعمار بيد الله ،

ولكن الصدمات التى أصيبتها أخيراً نتيجة الوشائات التى كانت تصل إليها قد

عجلت بنهايتها ، كال يفرعها أن أتروح عليها ، ولقد أقسمت هأن أن لم أعمل ولن

أفعل ولكنها لم تكن تصدقنى ، وكان الناس ينطوعون بسحديت عن علاقتنا ،

وعز رواجنا . وكانت حياتنا معاً في الأيام الأخيرة شراً من المحبم . وتأثرت

على البسات والأولاد ، وكنت أجس بهم كالمذب .. ومع ذلك فلم أفكر مرة

في أن أنسى علاقتنا معاً ، لأنى كنت فعلاً أحتاج إلى ساعات الراحة التى أفصتها

بحوارك ، ولكنى الآن أشعر أنى بت أعتمد هذه الراحة ها . وأن كل ما أحتاج

إليه هو شعاع من قمس في الشتاء . وبسمة رطبة في الصيف . في ركن

هادئ .. بعيداً عن الناس . لقد تصالحت احتياجانى من الحياة ، حتى العمل لم

أعد أحد فيه ما يشقى إليه .. كل ما أتمناه هو أن أفيق في هدوء ، وأن أسرح من

الحياة في هدوء

وأحسست سيدة أن شيئاً باطها يحاول أن يدفع الدموع إلى مقنبت . ولكنك

قاومت البكاء .

هذا الرجل رغم احترافه خدمة الناس يبدو مختصاً في حديثه . ورغم

خبروته الذى جمع به ماله . وقرر به من سبائك حارة لتاوردى إلى رجل الأعمال

وصاحب الأموال والعصارات .. بحس يهرط صمعه أمام دنوب العمر وقرب

الهاية

ولم تعرف كيف تحببه .

كل ما كانت تعرف . أن علاقتها معه .. قد أو شكت على نهايتها .

وإن عليها أن تطرق باباً جديداً من أبواب العيش .

وقال الرجل متنبها حديثه وهو يمد يده إليها .

— لقد عشنا أصدقاء ، وأرجو أن يعترف أصدقاء .. لن أنسى عشرتك الحسنة

أيذا يا ترجس ، كانت أياماً جميلة ..

ووقفت سيدة ووصفت بدعا في يده والمشارع تصطبب في دعها
هل تكرهه .. هل ترى له ؟

لقد منحها فترة مريحة من حياتها .

ومهما اتهمت من أنه ألقى بها على الرصيف فإنه لم يلقها تبس خاو . بل
يرصيد يمكن أن يبيها لها فترة أخرى من العيش النظيف المريح .

وردت سيدة حاولت أن تعبر عن مشاعرها المضطربة :

— كثر خيوك .. على كل حال .. مهما كان الأمر هل أنسى أفضالك عن .

— ولا تنسى أني موجود دائما .. وفي خدمتك دائما ..

ملجأ جديد .. يؤكد أنه في خدمتها

ومع ذلك عيبا أن تشق طريقها .. وحدها . وأن تسقط من اعتبارها كل
هذه الوعود بخدمتها .

وتركها أنوار ليلتها .

وكان عليها أن تدبر أمرها .. من جديد .

مهما كان معها من نقود .. فمسيرها إلى التفاد .. إذا استمرت حياة الراحة
والاسترخاء ..

ولكن ماذا تفعل ؟

هل تعود إلى دلال مرة أخرى ؟

مرسطة .. وقرى .

مهما كان وضعها مع أنوار وأنها كاد نوع تعينها له عشيقته أورمقة .

فقد كانت تشعر أنها تخضع بغير من إنسانيتها وتغلك قدرا من حريتها
وسيادتها ..

لقد دفع إلى نفسها بالخوض إلى الحياة الطبيعية المستقرة التي يحياها كل الناس .

حياة مهما كان فيها من متاعب . وهي حياة طبيعية . كل ما فيها على .

مكتشوف . لسبب ما تخشى أن تعلمه أمام المجتمع .. حتى متاعبه وآلامه .

بشرك فيها كل الناس .. وهي واحدة مبه

وهؤلاء الصغار . الذين تردهم عند الجدران . والذين يلجأون إليها أحيانا .

رحس . وقد تخصصوا بها ويعلمونها براعة . قبل أن يختطفهم أمهاتهم وتغمرهم

من عودة إليها مرة أخرى

كم تفت لو أن أحدا مبه كان أباه .

كانت إلى أن تخاف من أسوأها . وحياتها الطبيعية . بعد أن ملأها الإحساس

بأن كانت غريبة عن هذا المجتمع الذي يحيط بها . وأنها لا تستطيع أن تحس مع

الناس وتتحدث إليهم كما يتحدثون . عن زوجها ومتعب وأولادها

ومشاكلهم

لقد أحسنت أن أكثر الناس فترة على تحقيق بعض أمنيتها .. هو هذا الذي

استقرت في بيت من أبنائه . وعاشت معه قدرا من هذه الحياة الساكنة

الأمينة . ومحتة قدرا من الوفاء لم تعود مسحة لأحد . وهبأت له من الراحة

ما اعتزف هو بأن أحدا لم يستطع أن يبيها له

ومع ذلك . أنت مبه . بمجرد أن بوحث له بالطلب .

كره أن يرتبط بها .. لأنه يعرف ما هي .. ومن أين جاءت إليه

من يدن يقل أن يؤوبيا إلى بيت ؟ . ويشاركها الحياة . ومحبها الأطفال

بعضه . لم يعد من حقها أن تأمل فيها أو تحلم بها .

ومن جديد وجدت قدمها تقودها إلى بيت دلال .

يوم من أيام شتاء القاهرة الحميمية . سبط أشعة حمسة اشرفة كأنها الحصص

الدفء . والناس يتمشون أمام هزبات الخوايت . والوجوه تضجج

حتى أولئك الذين يجمعون الزبالة أسفل الأرصفة . أو يشيرون بأهواء فوقها .

وسارت سيدة مرقق المارة والعائزات بنظرات شاردة .. تتلقى نظرات

الإنعجاب من العابرين وألفاظ العزل من الرابضين على مقاعد المقاهي . يورعون

مفرتهم بين زهر الطاولات وأوداف العائزات .

ووصلت أخيراً إلى بيت دلال . صعدت المذبح ووقعت لدى الجرس
 وصحبت لها رهرة أنياب وأفسحت لها الطريق مرحة
 — أهلاً وسهلاً ست مرجس . انفصل
 — أريك يا رهرة ؟
 — الله يسمعك يا سنى
 — من متك دلال ؟
 — فى الداخل .
 — عندها أحد ؟
 — بعض الصيوف .. ولكنى سأعطيها خبر
 وبعد خطرات أثبت دلال هاشة مرحة .
 — أهلاً وسهلاً ست الخمس وجهت ولا وجه انفر
 — أهلاً بك يا حالة دلال .
 — خطوة عريضة . حكركم يا أخيراً ؟
 — لا أستصعى عكم يا حالة دلال
 — ولا نحن ..
 وجلست سيدة قاتلة دلال التى صاحبت برهرة قاتلة
 — اعملى قهوة لست مرجس يا بت .. على الرينة
 ثم التفتت إلى سيدة قاتلة
 — أخبارك يه ؟
 وتبند سيدة قاتلة
 — بد
 — كيف حال مساعدة اليه ؟
 وبطريقة مقتضبة أجابت سيدة :
 — اتيب

وأثار قبحها انتباه دلال ومالت للأمام فى إصحاء شديد .
 — ماذا تقصدين ؟
 وبصر أكثرات أجابت سيدة :
 — لم يعد بيأسنى
 — مد مى ؟
 — مد بصعة أهام .
 — ولماذا . ماذا حدث ؟
 — لا شيء .
 — غير معقول . اتيبم هكذا بلا سبب ؟
 — قلت له إني سأتروح
 — وهل ستروحين حقيقة ؟
 — لا
 — إذن لماذا قلت له هذا ؟
 — لكى أستثيره وأجعله يطلب الرواح .
 وصحكت دلال من أنفها صيحة ساحرة وسألت
 — وماذا فعل ؟
 — قال لي تروحين .
 — شاعره . وكيف رددت عليه ؟
 — ثرت فيه . وقلت إني لا أستطيع أن أنفى معه عن هذا الحال . إن
 بتروحين أو أتركه .
 — وماذا حال ؟
 — قال إنه لا يستطيع أن يعبر شيئاً من وصفا
 — يعنى رفض أن يتروحت .
 — أحل . وقال إنه يشعر أنه مسؤول عن وفاة روجه

— هل توفيت روحه ؟

— أجل .

— ابن الصرمة . وماد يجمعه إذن ؟ .. مادامت روحه قد انقلبت في داهية .

— قل له يربد أنه يسي حياته في هدوء

— في هدوء أو رهلة .. ماذا يجمع من رواجك ؟

— هكذا قال

— وماذا فعلت به ؟

— تركته يذهب إلى حاله .

— يا حيتتك يا سيده .. يا حيتتك اللقوية تركبه هكذا يخلص كالشجرة من

البحر ؟

— ماذا كنت أقبل له ؟

— تسودي عينه . تعمي له فصيحة بجلاجل . هي سايه . هو دحرج

احمام يا بت رى حروجه ؟

ثم مصممت بشفتيها وواصت قولها وهي تصر ب كفا بكف .

— تركبه بملت هكذا ؟ . يا ميلة تحثك يا رجس . ياما قلت لك . وباما

مصححك . حرجالة ليس هم أمام . كالجلجل الأعوج . إذا استنست هم

حشوك وحشوا رقتك . يا كلبوت لحما . ويلعظوك عظماء . ليس غدا .

العين الحمراء . ياما صمت بهم . من أول أنوك الله يرحمه . لعابة المعلم شغلط

المبهر الله يجمعه مفرح ما راج . لم يستطع أحد منهم أن يجر بحلده .. كنهم

جدبتهم من حبات عبيهم على الدادون . رواج شرعى وحياتك . على سة الله

ورسوله . وورثت بهم على داي ميم . ولو أن ماكانش حينهم اللضا ..

وصصت برهة ترف سيدة . وقد بدت شاردة الظنرات واجهة الملاحم ثم

مترصت تقول .

— اللهم ماذا ستعبري الآن ؟

— والله لا أعرف يا خالة دلال . كنت أظن أن أنتم في بيت وأستريح كيفية

حلق الله

ورصت دلال حاجبها في دهشة وتسايلت في حيث :

— وبعيشين مم ؟ . من الأبدية التي كتبها بت سلامته ؟

— أبدا . نجت لو استطعت الروح .

— ما كان أمامك الرجل .. لقطه .. وتركبه بعت حينك

— الزواج ليس بالعافية يا خالة ..

— طيب وربي شطارتك

— ولا بالشطارة .

— أمال يابه ؟

— دا فسة وعصيب .

— هذا كانت المسألة هكذا . فلتست أظن قسمتك الزواج .. أنت مارلت في

شامت . وهرصة الشعل ما رالت أمامك وسعه . ورجل برعونث

لديت موحية إعرانهم بسهولة . هو دى إلى الشعل . والبيت مفتوح أمامك في

كل وقت . وعندما يقع في يدك الزبون شمع . لا تركبه بعت كما أظنت

سلامته من نورك .. ماذا قلت ؟

— صحت سيدة برهة قبل . تطلق تهبدة حارة ثم قالت .

— سأفكر يا خالة دلال

— تفكرين في ماد ؟ ليس أمامك سوى الشعل أو التمو . أو أنوت

حويجا .

حين يا سيده . لم بعد أمامك سوى إحدى هذه الطرق الثلاث

خبعا بعد أن تسعدي رصيتك من الخود التي تركها يدك نور . وسعي

الأنثاء والجل . وتستلكني بقايا شامتك . ولا نمودى تصلحين حتى للشعل

وكن بيت أمامك فرصة يعبر هذا الشعل للمبهر اللذل . الذي تعتقد فيه

بحساست بأدميت . والذي يصيح فيه حسدك يا مشاعا لمير كأنه لا يحصل
ولا يبعث ؟

هذا الشعل الذي يشمر ك دائما بأملك فاقدة لمكية أعر ما تمكين . فاقدة
ليدك الذي بات المير أكثر تحكما به واستعلا له

ولكن ماذا يمكنك أن تفعل يا سيدة .. وهذا اليد هو موهبتك الوحيدة .
هو قدرتك التي مارسها بحاح . وتجربتك التي أدت عن أدتها تعرق ؟

تعودين إلى خدمة الميوت .

بعد أن دفت السيادة وعرها

وحدث دلال تجربها من شرودها قائلة

— البهت بيتك يا ترجس .. مفتوح لك في كل وقت .. وأنت
عاطلة .

وصمتت برهة ثم عادت تسأل :

— ماذا قلت ؟

وردت سيدة في استسلام

— أنا أعرف أن مصري إلى ها . ليس لي أحد عيرك يا حانة دلال .

وقبل أن ترد دلال سمعت صوتا يناديها من الداخل

ولم يكن الصوت غريبا .. بعد ثوان هذا صاحبه

وخفف عباس وهو يقف بعربوشه الأحمر المائل على صاحبه ومنته في

صائح في دهشة :

— سيدة غير معقول . ماذا أتى بك ؟

وتهدت وأجابته في هجة لا تخلو من الاتهام

— أنت في ساقاي

— فلتت أنها مشغولة في أشياء أهم

— أهم من زيارة حانة دلال ؟

— أجل .. آخر مرة سألت عليك قالوا لي إنك تخصصت .

— لمن ؟

— لسعادة اليه الثرى الأمثل .

— فعلا

— ولم يعد لشعب من أمثالي .. نصيب هيك

وصحكت دلال وقالت معلقة

— خلاص يا عباس بك مرجس هام عادت إلى قواعدها .

— سألته ؟

وعادت دلال تقول مفهقة :

— أجل .. سألته .. يا سلامة ..

وأدرك عباس بنظره إلى سيدة أنها غير سعيدة . وأن شيئا يشعلها . وأن

صمكتها السطحية .. تدل على أنها غير قابلة للمراح .

وكانت دلال قد هبت متجهة إلى الداخل

واقترب عباس من سيدة متسائلا .

— مالك يا سيدة ؟

وهزت سيدة رأسها قائلة .

— لا شيء

— تبدين غير سعيدة .

— ومعنى كنت سعيدة ؟

— كنت عير مبالية .

— واليوم ؟

— تبدين كأنك تملين هما هوق كتيك

— الدنيا كلها هموم يا عباس .. من ما لا يحمل هم هوق كتيك ؟

وأطلقت سيدة تسيده طويلة .

وقال عباس :

— يا صابر .. يبدو أنك تحملين هموم الدنيا كلها .

والتي تتوراه تجاه الباب الذي اجتمعت فيه دلال ثم تسأل :

— متى أراك ؟

وهزت سيدة كليلها في غير مبالاة قائلة :

— أى وقت

— ها !! ؟

— لا أعرف .. لم يستقر رأى بعد .

— إذن أين أراك ؟

وبدا التكلم على وجه سيدة وهي ترمق عباس .

وحرقى في ذهنها شريط سريع لكل لقاءاتها معه .. لأول مرة في حجرة

المراح .. ونفور الذي دفعها إلى سرقته .. والنصب على البنائين .. وتروير

البونات ..

أى لقاء يمكن أن يكون معه بعد هذا ؟

وعاد عباس يتساءل في إلحاح :

— لم تقول لي كيف أراك ؟

ثم صمت برهة وأردف :

— هل أتيت في البيت ؟

وهزت سيدة برأسها

وعاد عباس يتساءل :

— متى ؟

وردت سيدة :

— أى وقت

وبدت الحيرة على وجه عباس وتساءل :

— كيف ؟ ألا تخشين أن ..

وقاطعتة قائلة ببساطة :

— لا أعشى أحدا .

— وأتور بك ؟

— لم يعد معى أحد .

وتبهرل وجهه عباس وقال :

— إذن سأتى الليلة .. أين البيت ؟

وببساطة أعطته سيدة العنوان .

لماذا أعطيت له العنوان يا سيدة ؟ ..

ولماذا قبلت ريارته ببساطة ؟ .

ماذا يمكن أن يكون لك عباس ؟

أمكن أن يكون لك شيئا ؟

أى شيء !! ..

ولم لا ؟ ..

ألم تبتلى هذه الحياة العجيبه معه على السطح في حجرة مراح ؟

(٣٦)

عرض مشير

أقبل عباس في المساء على شقة سيدة يحمل في يده لماعة نعرود أن يحملها لرواد السهرة . رجاجة ويسكى وأصناف بقالة .. مرشلة وتوتة وعدة أنواع من الجبر وكيس فردق . وهو يرسم في دمه تفاصيل سهرة متعة يقصها يأتى مع سيدة أصبحت سيدة شيئا آخر يا عباس .. شيئا فاعرا اجتماعا .. ولقد خلصت من صاحبها القديم بعد أن امتلأت منه .. واترشت .. وأضحى لها شقة في عمارة كبيرة .

وهي قد قبلت عرضك زيارتها بسهولة .. تكاد تعمل معنى الترحيب .

فهي إذن تريدك . وأنت أهل لها

هي عالية .. وأنت على باب الله .

هي ملهبة .. وأنت محتاج ..

فانقلب عليها .. ولا تتركها تغلق هذه المرة من يدك ..

لا تخيب أملها فيك .. فهي تطلق شيئا .. بعد قد ورثت من أبيك ..

ولست الطربوش وأمسكت بالمشقة .

أكد لها أن تحت القبة شيئا .. وأن نفسها لم يجيء على شئونة .. إياك أن تكشف أنك بعث ما جمع أنوك . وأن مال الكرى قد بدده الرعي .. وأنه لم يعد هناك غير المطبعة . بالماكينة التي اشتراها أنوك قبل أن يموت . تدور في قوة وإصرار .. تحملك في وفاء مع غيرها من الماكينات العتيقة . ما تستطيع أن توصل به مظهرك كعباس بك المرعى .. دى المشقة والطربوش والفرسلة في العروة .. بعد المختصرة والسرقات من كل من يسمح له وضعه في المطبعة بأن

ينهب شيئا .. وهم يعرفون أن المال بات بلا صاحب .

الماكينات يا عباس هي الأشياء الوحيدة في المطبعة تسير كأن أبهاك موجود .

كأن عنته على تروسها .. وقلبه يندق مع طرقاتها ..

كان يعرفها . كما يعرف . يعرف مرأياها ويعرف موهب الصعب فيها .

وإن لم يكن يحد بك أية مرأيا . ولقد حاول أن يعرفك بها . حاول أن يذهب إليها ويقربك منها . وأخبرك أن هذه الماكينات هي أقرب الأقرباء .. وأخلص الأوفياء .

وكان يسمى الماكينة العتيقة . الرهبة كشجرة الجمبر .. باسم أمك

ثم عباس . لأها صلة وقوة . ولا تكمل . من العمل . وحاول أن يعلمك

أسرارها . حتى لا يصحك عليك الأسطى حصر الميكانيكى ويول لك الأمر

لكى يلمش ملك أكثر ما يستطيع من القود .. ويدعى أن الموتور قد احترق .

وأن شروس تحتاج إلى تعير . وأن أمام الماكينة . كثرة الله في برسيمه . لا

تعرف الشاير من التروس . حاول أن يعلمك أماكن التريت والتشجيع .. وماذا

تعمل إذ هونت ملك الماكينة . لو توقفت .. وكيف تصلحها دون أن تخسر الجلد

والسقط

حاول أن يعلمك شيئا . أى شيء .. ولكنك كنت تلتقط كلامه بالأذن

السرى لتطفه في سرعة البرق من الأذن اليمنى .. كأن الرجل يندى .

مالك أنت والتروس والشاير والسيور . مالك بالأحبار والمعروف

والرزم واليوبين والعامد والقص والتجليد . هذه أشياء ليس وراءها . غير افهم

وظن الشال . وهالك من يستطيع أن يحمل عكك ههها .. ويصحك المرسعة

للاطلاق وراء أشياء تحقق لك متعة حقيقية .

انطلقت تستمتع يا عباس . وتصرف ما أنيك الكرى .. وتبدد ما كدى

جمعه . وما أمى عمره في تحويشه . وتركت الماكينات العريضة على أنيك تدور

بلا عين ترعاه . أو قلب يخمن مع طرقاتها . تتوقف أسابيع بأكملها . لأن

ميرا قد قطع أو سوسفة قد كسرت .. وإذا ما تحركت مرة أخرى . فورا
حركتها ككشف حساب طويل بالمصاريف .

وأنت يا عيسى حاهل . لا تعرف . كما يهيس عنك العمال - السما من
العمى .

وأنت لا تتدك الوقت للمناقشة أو القدرة عليها .. وليس عليك إلا التسميم
بكل شيء . لأنك تريد ما تبقى لك .. وما يبقى لك لم يعد سوى الفتات من
موالد التلثم .. وحتى هذه الفتات لم تكن في نظره تستحقها

وبالت محافظتك على القرملة في عروتك والطربوش الشام على حاجبك .
والمشة في يديك .. أمرا عسيرا . بعد أن تسرب مال الكرى من يد الرعي

وبعد أن أصحى إيراد المطبعة . لا يكاد يغطي احتياجات مطهر الجنديد
مظهر التوارث عباس بك الرعي .. بعد كل ما يسترف منه من سرقات .. وبعد
ما يبقى من تكاليف الشيء . والشيء لزوم الشيء .

وفي الوقت اللامح يا عيسى . أقبل عليك الحظ .. وأدلى إليك بطوق
السجدة .. المسى سيدة .

فأسسك به يديك وأساسك .. لا تدعه يهتك فهو وحده الذي
سبحمك .. بطربوشك ومنشك إلى بر الأمان .

فقط .. لا ندعها تكشعك . وادخل عليها دجلة المستمى . القادر
النصرير .. الملى دى نيد السائبة . لكي تطش إيدك . وتريمك .. ونشء
لك - بالساهل - كل ما تريد .. كما كانت تفعل توحيدة مع أبو ريد
والقياس مع العارق ..

العارق ما بين المعسة توحيدة .. ومرجس هام .
والعارق ما بين المعلم أبو ريد .. وعباس بك الرعي .

طابت يا عيسى واستوت . وطلبت الأكل يا عيسى . وأنت صاحبها .
فأقبل وإياك أن تنكشف .

قرص بكم مائة جنيه من تاجر الورق . أو من أي عميل . بكميالات
مؤجلة .. يمكن أن يمحك السر أمامها بضعة أشهر حتى تصرف أنك ..
مستعنى .. وأنتك غير مصاب ولا محتال . ولا بلطجي .. وأنت رجل ولا كل
الرجال . وبعدها عندما يستب لك الأمر .. لا بأس من أن تعرف أن خسارة
أصابك وأنت في حاجة إلى سد . ثم تعرف أن سوء الحظ قد استبد بك . وأن
عليها أن تقاوم سوء حظك .

وبعد ما يا عيسى .. يملها الحلال
ادخل يا عيسى ..

ادخل يا عيسى .

اعدل الطربوش على حاجبك .. وثبت القرملة وطوح المشة وادخل .
ودق جرس الباب .

افتح سرجى أسود بقمطان أبيض . وتساءل في أدب :
- أقدم .

وارتبت عباس قليلا وعيل إليه لأول وهلة أنه قد يكون أعطاك الشقة .. إذ لم
ينتظر أن تلقاه سيدة يسفرجى في شقتها ..

وتسلم عيسى على ارتبائه الأولى . وتساءل في كبرياء :
- القامم موجودة ..

وحشى أن تكون أبيه هام . واستترك قاتلا .
- مرجس هام .

- تقول لها ما يا هندم .
- قل لها عباس ..

وحشى يحدث التأثير الواجب على السفرجى أردف من أنفه :
- عباس بك الرعي .

- حاضري يا هندم .. تعضل .

وأصبح له الطريق إلى المدخل . أسرع إلى الداخل يسيء سيدة بوجوده .
وكانت سيدة قد استلقت في استراحة على أريكة في حجرة جلوس داخلية .
واحتفلت في جلستها والسرجي يقول لها :
— واحد اسمه عباس بك الرضى .
— دعه يدخل في حجرة الصالون .
ومحطت سيدة في تكاسل لم أر دفت في غير اكتراث :
— أودعه يأتي إلى هنا .
ودهب السرجي إلى عباس بك يقوده إلى حجرة الجلوس الداخليه قائلا :
— تفضل يا سعادة البيك .
ودخل عباس بالمشة في مياه . ولعامة الوسكى والمرات في يسراه .. وأقبل
على سيدة مرحبا في لحظة يشوبها الاحترام والكلمة أمام السرجي .. قائلا :
— مساء الخير يا برجس هامم ..
ثم مد يده إلى السرجي قائلا :
— خذ هذه يا أسطى ..
وتساعت سيدة :
— ما هذا ؟
— أبدا .. أشياء بسيطة . وحاجة ويسكى .. وبعض البقالة والمكسرات .
وبدت الدهشة على وجه سيدة . وهي تترك نوابيا عباس التي لم تكن على
استعداد لها .. ولا كان لديها ما يقابلها .
ومع ذلك هم تستطيع إلا أن تأخذ الأمر ببساطة قائلة :
— لم يكن لها لزوم يا عباس بك .
ورد عباس بغير اكتراث :
— يا ستي .. شيء بسيط على ما قسم .
وحاولت سيدة أن تعهمه بأن نوابيا في غير موضعها فقالت :

— لا أظن أننا في حاجة إليها .
ولم يفهم عباس . وطن كلامها من باب الشكر فقال ضاحكا :
— هصلة خيرك يا برجس هامم .
وأحست سيدة أنه لا يريد أن يفهم . حركته وشأنه قائلة للسرجي :
— ضمها في حجرة السرعة يا محمد بن .
وأشارت إلى أحد المقاعد قائلة لعباس :
— تفصل يا عباس بك .
وخرج السرجي يحمل اللعافه . ولم يكده عباس يطمش إلى حروجه حتى
طوح بالمشة من يده وألقى بالطربوش على الأريكة وأقبل على سيدة يحاول ضمها
وهو يهقهه قائلا :
— كلتي بكوية .. عشى على يابت يا سيدة .. بالخضن .
وصدته سيدة بهلوه وبرود قائلة :
— احقل يا عباس .. واجلس على الكرسي .
وظن عباس .. أنها تحاول أن تجعله يصبر حتى يصرف السرجي فقال لها في
تجمل :
— متى ينصرف هذا اللوح ؟
— ينصرف إلى أين ؟
— إلى بيته . لا أشك أحدا سيحتاج إليه .. ولا بد أن وقت نومه قد حان .
— إنه يتنام هنا .
— ينام هنا ؟ في شقة واحدة . غير معقول أن تنامي مع السرجي
وحذك .
وردت سيدة في هلع :
— تنام معنا .. أم سيد .
— أم سيد من ؟

— الشعالة — لقد خرجت لزيارة ابنتي .. وسأبقى بين لحظة وأخرى .

ودق جرس الباب فأردفت سيدة :

— لا بد أنها قد عادت .

وبدت مظاهر الاهتمام على وجه عباس وتعم قاتلا :

— محمدين .. وأتم سيد ..

وتسأل سيدة في دهشة :

— هل ظننتي أمشي في الشقة وحدي ؟

— أبدا . أبدا . فقط كنت أتأمل أنا سحلي وحدي .. على حريتنا .

— وماذا يقيد حريتنا ؟

— لا شيء .. مجرد وهم .

واسترحى عباس في مقعده . ولكن ذهه لم يسترخ . فقد أحس أن سيدة

شيئا غريبا . وكأنها تحاول أن تصنع جدارا من الكلمة بينها .. جدارا شعاعا

يكاد لا يرى ولكنه كلما حاول أن يتخطاه انزقت قدماء عليه عارند مكانه

وتسأل سيدة :

— ماذا تشرب يا عباس ؟

وقبل أن يجيب أردفت قائلا :

— شاي أو قهوة ؟

شاي أو قهوة ؟ .. ماذا تقصد هذه الخبيثة أن تفعل به ؟

وزجاجة الويسكي التي لفمها حل قلبه ..

والمرات ..

والسهرة ..

إنه لم يأت للعزاء .. حتى يشرب قهوة ..

وكان عليه أن يواجهها بصراحة فقال بنعس البساطة التي تتحدث بها :

— أفضل ويسكي ..

وصحبت سيدة برهة ثم قالت هادئة :

— حاضر .

وصاحت :

— محمدين .

ورد الرجل وكأنه يقف بالباب :

— أقدم .

— افتح رجاجة ويسكي وجهر النلج .. وأحضرها في صبية ومعها

كأس .

— حاضر يا أقدم .

وتسأل عباس في دهشة :

— قلت كأس ؟

— أجل .

— كأس واحدة ؟

— أجل ..

ورد عباس في استعجاب :

— وأنا .. أين تحصرني لي كأسا ؟

— إنها لك .

— كأنت لست تشرف .

— أجل .

— غير معقول

— لماذا ؟

— لا أظنك مستر كيسي أشرب وحدي

— ولم لا ؟

— تستضيفني .. وتركبي أشرب وحدي .. من علمك هذا ؟

وردت سيدة في شيء من المزمع محاولة أن تبي الموضوع قائلا .
 — اسمع يا عباس . أنا لست على استعداد للشرب . فإذا كنت لا تريد أن
 تشرب وحديك .. فلا تشرب .
 وأحس عباس أن المسألة تحتاج إلى مزيد من الدين والمسايسة فقال في نطقه .
 — أمرك يا ستي .. سأشرب وحدي مادمت تصرين .
 وبعد لحظة أحضر محمدان رجاجة ويسكي وجردل ثلج وكأسا وطبقين
 بأحدهما موزاني وبالأخر خيار مخلل .
 ولم يكد يصرف حتى أبلت أم سيد . امرأة عجوز قصيرة عيلة طرقت
 باب الحجرة ثم أبلت عمة !
 — مساء الخير يا ست ..
 — خير عليك يا أم سيد .. كيف حال اهنتك ؟
 — الحمد لله أنصل كثيرا .. الحرارة هبطت . والألم غف ..
 — هل تريد شيئا ؟
 — أبدا .. فقط .. الكوحي أحضر المكوة وكشف الحساب .
 — ضعي المكوة في الدولاب .. وحاسبي عدا . وإذا كان قد بقي لديك شيء
 في الخلل فاعليه وضعه في البلكونة حتى لا يحمض .
 — حاضر .. تصبى على حجر يا ستي .
 — واثت من أهله .
 وأحس عبس من المناقشات الدائرة حوله . أنه في بيت عادي كيبوس
 الأسر .. قد خلا من جو السحر الذي يشيع في بيت النخلة والعرصة ..
 لا طرب .. ولا مضي .. ولا ضحككات ناعمة .. ولا نكات ..
 لا شيء . سوى الكأس البتيمة التي أحضرها محمدان ووضعها أمامه ليلعها
 بقطعة الطرشي .. وكأنها شرية زيت غرور ..
 وبعد ذلك مكوة توضع في الدولاب . وأم سيد تحاسب الكوحي وتعل

الطبع حتى لا يحمض

و .. وكأنه في بيت أمه .. عليها رحمة الله .
 وأحس بحماسة الليلة الخمراء .. قد بدأ يهتر .
 ولكنه لم يستسلم .
 ومد يده فأمسك بالكأس .. وأفرغ قلدا مردوجا .. ثم جرعه مرة
 واحدة . بلاماء .. وبلا ثلج
 لجل . إن عليه أن يستعين على برود سيدة بحرارة التوبسكي .
 وشعثت الكأس في رأسه . وأخذ جو القدمة الذي أشاعته حوله سيدة
 يتدد .
 ومد يده فوضعها على ذراع سيدة قائلا بهو كلفة :
 — والله زمان يا سيدة .
 ولم تجب سيدة وصحبت فرائعها من تحت كفه بهدوء .
 وعاد عباس يقول :
 — هه .. ما هي أخبارك ؟
 — كما ترى ..
 وضحك عباس قائلا :
 — لم أر سوى محمدان .. وأم سيد .
 وصحكت سيدة وأجابت .
 — لأنه ليس لدى أكثر من ذلك .
 — وإلى متى ؟
 — حتى يحلها الحلال ..
 — أتوسين العودة إلى دلال ؟
 ورصت سيدة كعبها وتهدت في يأس قائلة .
 — إذ لم يكن بها مفر فسادعود .

— وكيف يكون المهر ؟

— الله أعلم

— يا لميش وحدك .

— الوحدة أجملة .

— مع إنسان يؤس وحدت

— حائر .

وصمت عباس برهة ثم نظر إليها وهو يحس بالخرق يشيع في برانيها وتساءل .

— لماذا تركت صاحبك ؟

— لم أتركه .

— ووضعت الكأس على المضدة ثم تساءلت في دهشة :

— لم تتركه ؟

— أجل .. هو الذي تركني .

— لماذا ؟

— لأني طلبت الزواج .

— طلبت الزواج .. أنت ؟ . مه ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لكني أؤم بمسي معه . لم أرد أن أضي معه رهرة شباني ثم أخرج صر

اليدى

وهر عباس رأسه ونجم قائلا

— والله ناصحة يا سيده .

ورفع الكأس مرشف ما بها ثم عاد يتساءل .

— ولكن ماذا . بعد هذا ؟

واسترخت سيده على الأريكة متطابقة وهي تقول :

— يفرجها ربما .

واقترب منها عباس . متفرا فرصة تتألفها واسترخائها وحس بحوارها على

الأريكة وارتمى بحمسه عليها .

وضاع من سيده الاسترخاء ودهشته بعيدا عنها قائلة :

— خليلك بعيد يا عباس .

وهر عباس رأسه محتضنا وأجاب :

— الله .. ويعلمن منك .. إليه المكالمة ؟

وردت سيده في طجة الأمر :

— قم واجلس مكانك .

وعاد عباس يطم .

— غير معقول . هذه ليست معاملة

— انت ها صيف . مجرد صيف .

وهر عباس رأسه وتساءل في دهشة :

— أتمين أنك ستبقى هكذا . مجرد حرمة .. بلا عمل

وعاد يهمل الكأس ثم استمر في تسؤله :

— وعندما يبرع القرشين الذين تركتهما لك بسلامته .. ماذا ستعملين ؟

هل ستعودين إلى الشغل ؟ أم ستحلين على باب السيده ؟

وردت سيده في سخرية :

— عندما أقرر العودة إلى الشغل . أي شغل . سأعيرك

وعاد عباس يقترب منها قصدته في إصرار وقالت في حزم :

— إذا أقرعت أن تجلس في هدوء .. فأجلس . وإلا فعيرك أن تصرف .

أنت تعرف أن محمد بن وألم سيد ها .. ولا تضطرون لأن أعمل فصيحة

وعاد عباس إلى مقعده وهو يبرز رأسه ويتمتم في دهشة قائلا كما يحدث

بعضه

— البت انجنت .. غير معقول أن تفعل سيدة هذا .. ماذا جرى لها ؟ ..
واسترخى عباس في مقعده . وعاود الشرب .
استمرت سيدة الراحة . وجلسة البيت . والحياة الشريفة . أو الحياة شبه
الشريفة
إذن ليجندها .. من هذا العمر . من نقطة الصعف عندها
ووضع عباس كأسه وتهديقاتلا :
— معك حق يا سيدة . ليس أصل من الاستقرار .. ماذا أخذ الإنسان من
طول الصرخة . والسكحة والشكع ..
ثم سألها قائلا بعد أن أنى عن آخر قطعة طرشي ..
— هل أستطيع أن أحد شيئا يؤكل .. ولو قطعة خبز ؟
وقالت سيدة .
— طبعاً سأأكل لقمة سوا .
ثم بادت .
— محمدى .
وأنى محمدى .. متسائلاً .
— احبهم
— جهر العشا ..
وتدخل عباس قائلا .
— اللعانة يا بعض أشياء .
وأكملت سيدة قوته امرأة محمدى
— اتحبها وجهرها على المائلة
— حاصر ..
وعلى المائلة أكمل عباس حديثه .
— لقد ملئت حياة الصرخة .. ووددت لو استطعت الاستقرار .. إلى مقبل

على مشروعات كبيرة في المطعة
ورفعت سيدة جناحياً في دفعة متسائلة :
— مشروعات في المطبعة .. أم ؟
— أجل . لدى مشروع لشراء ماكينة نويمست .. وعن المطبعة لمسى جديد
سأخيه على الأرض التي تركها أنى في درب الجماير .
— ومن أين لك التقود التي تفعل بها كل هذا ؟
وارجود عباس لقمة كبيرة في فمه ثم قال :
— الشغل مائى يا سيدة .. أعمال الطباعة كثيرة هذه الأيام . كتب وزارة
المعارف تفرق المطابع .. نحن نعمل ليل نهار . والملايكات تكاد لا تنسى
باحياجات العطايات التي ترسو عليها .. ولا بد من التوسع . فقد حرصت على
مطبعة روتو .. ولكنى وجدت بها عباً .
وقاطعته سيدة غير مصدقة :
— هل بت تفهم في المطابع ؟
ورد عباس معانيا :
— وبغدين يا سيدة .. هل تعطينى ما زلت صيا ؟
وردت سيدة براءة :
— أنا أعرف أن طول عمرك لا تعمل شيئا . ولا تفهم في شيء .
— الله يحفظك يا سيدة .
— ثم أقصد إهانة . ولكن فقط سردت معلوماً عكس .
— نحن نكبر يا سيدة . ونعلم .. والإنسان يجب أن يحب عمله ..
ولم تستطع سيدة أن توقف صحتها وبدأ لها عباس كأنه طفل يردد كلاماً
حظه من حط ما ردد أمامه وقالت مازحه :
— أنى الرم الذي عرفت كيف تتحدث فيه عن العمل .
— كل إنسان يتغير يا سيدة .. غير معقول أن يبقى كما نحن .
وهرت سيدة رأسها غير مصدقة وقالت .

— ربا يديك .
وانتبي الأئمان من المشاء ..
ومرة أخرى حاول عباس أن يقترب من سيدة وجراها إليه . قائلا وقد أمالت
الحمر رأسه :
— قرى يا سيدة .. قرى .. دانتى بقتنى نجف ..
وردت سيدة وهي تدفقه عنها :
— أبعد يا عباس ..
وعاد عباس يميل عليها بثقله قائلا :
— يا بت اختشى .. مش معقول كده .
— اختشى انت .. وأبعد بالتى هي أحسن ..
— طب ورحمة أمى ..
— ورحمة أمك .. لانت حارج . مر سكات . قبل أن يخرجك محمدى
هي ملا وشك ..
— عيب يا سيدة .. انت التعت .
— عيب انت .. قلت لك انخرج .. بالفتوى
وصاح عباس وهو يحاول أن يمشي إلى أحد المقاعد .
— الله .. إيه هو ده .. احنا بنشحت .. أنا حاصد بلفوسى ..
— وغرم على نفسك يا عباس .. والراى عرض اكتاشك ..
— ده حرام .. ده ظلم .
وأدركت أنه قد سكر .. فرجت على ظهره قائلة :
— معلى .. استحمل .. تعال .. تعال .
وجرته نحو الباب وهو يصيح :
— أنا غيرك يا سيدة .. عيب يا سيدة .. عيب قوى .
— معلى .. المرة القادمة .

وبدا عباس كأنه يبكي وهو يقول .
— والله حرام .. حرام يا ناس .
وأوصلته إلى الباب لم أخرجه وهي تربت ذراعه قائلة
— تصبح على خير يا عباس .
— كده برصه يا سيدة . تطردى يا سيدة . ما كانش العشم يا سيدة .
— معلى .. المرة الجاية يا عباس .. مع السلامة .
ورل عباس على الدرع وهو يتأهل ويرطم قائلا :
— برصه كده يا سيدة ؟ .. يخوت القرش اللى ادعوا لك فى عشة الفراع يا
سيدة .
وأغلقت سيدة الباب وعادت إلى مضجعها .
وبعد بضعة أيام عاد عباس يحمل اللعانة إليها .. وفى نهاية حفسته يخرج
يرطم كما خرج فى المرة السابقة ..
— هو دا معقول يا ناس ؟ . البت سيدة تستكير على
ومرة ثالثة ورابعة وهو يخرج بغير نتيجة .
وفى المرة الخامسة أقبل على سيدة . بعير لعانة وجلس إليها فى الصالون
الخارجى وقد كسا وجهه مظهر الحد والوقار ، وفى هذه المرة .. لم يطلب
الطلب التقليدى الذى تعود أن يطلبه ولكن حمله كان جديدا .
نظر إلى سيدة وهي تقبل عليه وتجلس أمامه قائلة فى صيق :
— وآخرها يا عباس ؟
ورد عباس فى لحظة جمادة .
— اسمى يا سيدة . لقد فكرت كثيرا . عن لبعض . ولا يمكن لأحدنا
أن يستعصى عن الآخر . إلى فى حاجه إليك . وأنت فى حاجة إلى من يؤس
وحدثك .. ولقد عزمت على أن أترجلك .. مارأيك ؟
ورفضت سيدة حاجيبا فى ذهول قائلة :

— تتزوجني أنا ؟

— أجل .

— أنت ؟ تتزوجني ؟

— وماذا في ذلك ؟

هذا عرض جديد مشير .. يشق طريقا جديدا في حياتك .

هذا الرجل .. على كل ما به من سمات . قد جرؤ على أن يقدم للزواج

بك .. رغم كل ما يعرفه منك .

عرض ملير .. يحتاج إلى تفكير يا سيدة .

(٣٧)

هبط الوليد

لم يطل التفكير بسيدة في عرض عباس .

كان حلم الأسرة والأولاد . وحياة الناس الطيبة قد عاد يلح عينا .

واستمرأت الاستقرار في ظل رجل واحد ، وكبرت أن تعود إلى حياة التشرذ

الجنسي ، الذي يحرمها من حق ملكية الذات ..

ولم يكن عباس هربا عليها ..

كانت تعرف كل سبلاته . التي تبث من رغبته في أن يأخذ من الحياة دون

أن يعطي . أن يحصل على التمتع دون أن يدفع ثمنها من جهده وعرقه . أن يهب من

لذات الحياة ما لا حق له فيه ، بطريق النصب والاحتيال والسرقة ، وبأي طريق

غير طريق الكد والكدح .

لم يحاول قط أن يروع ليحصد .. لم يكن لديه الصبر على الرزع . ولم يحتمل

جهد الحرث والري وانتظار البت والطرح .. ولكنه راح يتصعب قطف الثمار

بالسرقة والخطف والخذاع ، واستمرأ جهد العير .. بمسحه الثمرة بلا عرق .

ومات أبوه صخلف له وصيدا من الثمار ..

سيظل ياتيم بها بلا جهد حتى يستيقظ ذات يوم ليحد نمسه من جديد .

على الخديعة . وينجم عليه حينئذ إما أن يروع نفسه . أو يختال ، أو

يجمع ..

ومع ذلك فتحة تغير قد طرأ عليه .

أو هكذا يبدو ..

إنه يقول أنه يريد أن يشتري ماكينة جديدة ويريد أن يسي مكنا لمطبخه على

أرض درب الحمامير ، وهو يدعى أن الشغل يحرق المطبعة والمآكينات بعمل ليل
هار

ومعنى ذلك أنه يعرف شيئا عن المطبعة !

ثم إنه قد كبر ولا بد أن يعمل . على الأقل حتى يتخاطب على هذا المظهر الذى
وصل إليه بمال أبيه .

هو إذن معروف السيات ..

وصاحبك الذى تعرف سيئاته تنقيا غير من صاحب الحسات الذى
يقا حلتك بسيئات لا تعرف كيف تنقيا

وهو بعد هذا كله يتقدم ليلسأها الرواج ..

يلسأها وقد عبرها جيدا ، منذ أن صحها الفرس فى عشة الفراخ . حتى
منحها الجنيبات فى بيت دلال .. أن تصبح زوجته وربة بيته وأم أولاده !

إنه يأخذها بعينها ، أو بطنها .

أمر ليس باليسر على أى إنسان ..

فالذى يقبل أن يؤوبها إلى بيته ، إما مخلوع أو فواد ، وهى تعرف غلما أنه ليس
مخلوعا !

وهو يعرف غلما أنها لم تقبل أن تعمل مع بنطجها ، ولن تقبل أن تعمل مع
قواد ، لأنها تريد أن تستقر ، وأن تمارس حياتها الطبيعية الشرعية ، وأن تحرب

مذاق الاستقرار فى حياة الأسرة .. حياة ربة البيت ولم الأولاد ، وأن تحاول من
جديد بعد أن عشت أول تجربة مع غلام ..

وهو يعرف أنها عندما تنوى أن تعاود سيرتها الأولى ، وتمارس التجارة
بجسدها .. فلن تكون فى حاجة إلى وصى أو سمسار !

هذه فرصة عجيبة يا سيده قد أتاحت لك ..

أناسها لك هذا المخلوق العجيب . انسى عباس . والذى يأبى .. إلا أن
يقب ويعطى فى حياته بين أوبة وأخرى .. ليقوم بها بدور ما .. ولو بدور

كوماس .. وهو الآن يظهر .. ليقوم بدور البطولة ..

أتحي له الفرصة يا سيده .. فقد يفلح .. وادخل معه من الباب الذى يفتح
أمالك واسلكى معه . الطريق الجديد .

من يدري ربما يديه الله ويدينه

يسى المطبعة فى درب الحمامير ، وينتصت إلى عمه كما كان يفعل أبوه ، ويعتج
الله عليه .. فتصنع أعمال المطبعة ، ويتسع معها رزقه .

وتنجين أنت أولاد ، وتصحبن أما وست بيت محترمة ، وتسدين الستار
على ماضيك ، وتخرجين إلى الناس بوجه واضح كالهار .

جرى يا سيده ، عمادا أنت عاهرة ؟

ماذا يمكن أن يعتقدك المأفون بورقه الشرعية ؟

لقد كنت أى شيء لعماس .. فماذا يصورك أن تكونى مرة زوجته ؟

وواقت سيده على عرض عباس

وبين عشبة وضحاها .. ارتدت سيده لباسها الجديد ، وأصبحت حرم

عاس بك البرعى .. صاحب مطابع البرعى ..

وكان على عيس ، لكنى يسرى طريقته الطبيعى ، أن يقتصر مائة جنيه .
عمامة جيه .. مرة من شلهوب بائع الورق ، والثانية من الحاج مصطفى صاحب

المصعب الدعوى !

وأخذ عباس يمارس الصرف بمكرم على البيت ، أجرة الشقة ومصروفات
الأكل والنور والتلفزيون ، وثياب سيده ومصروف يدها ، كانت النقود تجري فى

يده بسهولة ويسر ..

وكان ينفق تصرفاته .. روحا عافلا ورزقا .. شيء آخر غير عباس ليس أم

عباس .. الأهو الجطور !

وبدا كأن المطبعة تشغل كل وقته ، يخرج فى الصباح ويعود فى الظهر

ليحدث عن العمل ورحه العمل ، ومشاكل المآكينات والزبائن والعمال .. وبدأ

سهر إلى وقت متأخر فالسبب هو المطبعة ، والعمل الدائب المستمر ، الذي يصطغرم إلى تشغيل الآليات ٢٤ ساعة حتى ينشئ من كتب وراثة المعارف المطلوبة قبل بداية الموسم الدراسي القادم ..

وكان على عباس أن يقترح مائة أخرى ، ليد حساتر القمار الذي بدأ يمارسه في بيت وجدان التي عرفه بها الأستاذ عبد البر مأمّل سد القروض التي اقترضها من شلهوب والخاج مصطفى ..

ولازداد سهر عباس المزعوم في المطبعة !

وخلال هذه الشهرة التي أخذ عباس يجهد في أن يستمر بعصه كعباس بك ، ويمارس مشروعاته الموهومة في شراء الماكينة (الأوست) ومقابلة المهندسين لمناقشة رسم المطبعة ، ثم الخوض مع المقاولين لمرر المعطيات لعملية البناء !

خلال كل هذه الأوهام التي كان يمارسها عباس ،

مارست سيدة حليفة كبرى ، وهي الحمل !

حملت سيدة

بدا الأمر بشكوك ، وما لبثت الشكوك أن كدنت ..

وبصحتها أم سيد في الشهر التالي أن تذهب إلى الشيخة إحسان ، فوصعتها بحرية لا تحجب ، وقد جربتها ابنة حاربها عديجة ، ولم تحص بصحة أيام حتى حملت بعد عقم دام سنتين !

وصهبت سيدة ذلك الشهر ، وقالت لعمها الصير طيب . وغدا يرحلها رب وموت في نفسها أن تذهب إلى أحد الأطباء إن لم يطلع الحمل في الشهر التالي

ولكن في الشهر التالي لم يتنجح لأمر إلى طيب ، فقد كانت سيدة أحسن حظا ، وكان حمها مؤكدا

وبدأت سيدة تشغل باخذت الكبير الذي أحدثت غوص عمارة

أحرأ استصحبين أمأ يا سيده !

ومأها إحساس بالامتنان لعماس . شعلها عن أي شكوك يمكن أن تنيرها نصر قائته .

وفي يوم بعد أن تناول العشاء ، قال لها ببساطة .

— تأخر عليها شيك وراثة المعارف واستحقت كمبيالات الورق ، ولا بدري ماذا تفعل !

واسترخى على مقعده ، ومضى قائلا في غير اكتراث :

— موطعو وراثة المعارف كمروبا لكي تستخرج الشيك ، لا بد من

عملية تسليك . وتربيت ، في كل مكتب وأخيرا مرض الموظف المختص ،

وقالوا إن دهر الشيكات في مكتبه وقد أغلق عليه . ومنعون أيونا عن !

وأخذ عباس نفسا طويلا من المسجارة ، وأردف قائلا .

— والمفروض أن سندد الكمبيالات غدا . وليس لنا من رصيد في البنك ما

يعطي المبلغ المطلوب ، ولا مفر من عمل البرتستو !

وهزت سيدة رأسها مستفسرة .

— ماذا تعني بالبرتستو ؟

— يعني حجز على المطبعة ويمنها بالمراد سدانا للدين ..

وشد جسده سيدة وهي تسمع التهديد ببيع المطبعة وتساوت في جرع :

— يمحرون على المطبعة ؟

— أجل ..

— ويحيونها !؟

— المفروض أن يفعلوا هذا ..

— وتقولوا يمثل هذه البساطة ؟

وقال عباس مستسلما :

— وماذا أصل إذا لم أستطع أن أجمع المبلغ .. ليس هناك معر من البرتستو

وأطلق عباس تنهيدة ، ثم قال :

— على أية حال ، أرجو أن أطلع في جمعة عدا .. لقد وعدني الحاج مصطفى بتسديد ما تبقى عليه ، كما وعدني الخواجة أنطون صاحب شركة الدخان بتسديد جزء من حسابه .. وعسى أن يهبطا !

وتسابلت سيدة في قلتي :

— وإذا لم يهبطا ؟

— يبقى عليه العوض !

وولبت سيدة من مكانها صالحة :

— ما هذا الذي تقوله ؟. تريد أن تصعب المطبعة في شربة ماء * أنت لم تعد تعامر بمحابتك وحذك ، أنت أصبحت رب أسرة ، ومتصبح غدا بألماء ، ولم تعد حيائك تحتمل هذه المفاسد .

ورد عليها عباس في هدوء :

— وما دني أنا في هذا * موظف ووزارة المعارف مرعى ، ودهر الشيكات في درجه !

— من أجل هذا تترك المطبعة تباع ؟

— وماذا أفعل !؟

— لماذا لا يكون عندك احتياطي لهذه الأشياء ؟

— نحن داخلون في مشروعات باده ، وشراء مطابع .. أي احتياطي هذا الذي تريدني الاحتفاظ به !؟

وصمتت سيدة برهة تفكر ، ثم قالت في حزم :

— كم تحتاج ؟

وأجاب عباس في هدوء :

— أربعمائة جنيه !

ورددت سيدة في ذهول :

— أربعمائة جنيه !؟

— شيك الوراثة بمحسنة جيه ، وهو يعطى ببساطة كل مطالب ، والمفروض أنه يصلنا بعد أسبوع أو أكثر ..

ورددت سيدة بعد تفكير قصير .

— سأعطيك المبلغ ، هل أن ترده بعد أن يصل شيك الوراثة .

— من أين يستطيع لي ؟

— من حسابي في البنك ..

وهز عباس رأسه وقال في صرامة :

— لا أريد من حسابك شيئا !

— لماذا ؟

— لا أريد أن أفسد مالك ..

وسأله سيدة في صبر نافذ :

— قلت لك لماذا ؟

— لا أريد أن تصرف على امرأة .. أنا لست محتاجا !

ونظرت إليه سيدة في ذهول ..

أحقا يقول عباس هذا !؟

يمكن أن يكون قد تغير لي هذا الحد ؟

عباس الذي لطش منها البريزة فوق السطوح .

والذي حاول أن يعمل عندها بلطجيا .. مد أن عملت حد توحيد ، حتى استقر بها الحال بعد دلال ..

هل يمكن أن يكون الرجل . قد تحول بحيث يأبى أن يأخذ من مالها ما ينفقه .. ويقتد المطبعة التي هي مورد رزقه . بل رزقهها معا ..

ثم إن مالها . لم يعد مالها وحدها .

كما أن ماله لم يعد ماله وحده .

واقتربت منه سيدة وقالت في صوت رقيق :

— لماذا تقول هذا يا عباس ؟

— لأنني أراها الرجل ، ولست في حاجة إلى مالك بل إلى مالك محرم علي !
وراد اقتراب سيدة من عباس ووصفت يدها على كعفه واستمرت تقول في حان :

— لا تقل هذا يا عباس عيب أما زوجتك ، ومالي ومالك ، كما أن مالك مالي إلى يسار أولاد قادمين . وسيصبح مالي ومالك هم .. فلا تقل هذا أبدا ..

وعادت تربت ذراعه قائلة :

— هل أربعمائة جنيه كل ما يلزمك ؟

ورد عباس في إصرار .

— قلت لك لا أريد شيئا !

— هل تريد أن تباع للطبعة ؟

— سأصرف خدا ..

— وإذا لم تعرف كيف تصرف ؟

— يخلها ربنا !

— وإذا لم يخلها ؟

— وماذا أمامي أن أفعل ؟

— اخذ النقود و اعقل !

— قلت لك لا أريد أن أسئ مالك !

— اعتبرها دينا

وصمت عباس برهة ثم عادت سيدة تقول

— اعقل يا عباس ولا تكن عبيدا !

وبدا على عباس كأنه يفكر ثم قال مستسما :

— إذا كانت دينا سأقبلها ، وسأردها بمجرد أن يصل الشيك من

الورقة

— اتفقا . سأكتب لك الشيك بأربعمائة جنيه . اصبره عدد وسدد الكيالات

يراهو .. عباس .

لطشت أول مبلغ .. ورجاه من سيدة ..

لطشت الأربعمائة جنيه . ورأسك مرفوع وكرامتك محفوظة

وفي الصباح صرف عباس الشيك ..

ولم يسدد ديونه كلها بالطبع .

سدد الشيء الضروري الذي يحميه سداده من دخول السحر

أما الباقي فاندفع يلعب به في بيت وجدان بحجة تعريض ما حصر .

وأكد عباس إضافة سيئة جديدة إلى سيئاته ..

السيئة التي كانت تنقصه .

سيئة القمار

ومن ذلك اليوم

بدأت عملية استراف الفود من سيدة

عملية متقة ماهرة . ثم تثرأى شكوك أو نعت أمة محارف

وكانت سيدة سعيدة بمحمد . رغم كل ما صاحبه من قذورات وغشيان ووجع .

كانت مسعدها به غالبية على كل شيء .

كان حملا يشدها إلى الحياة الصعبة . إلى الناس .. إلى الهار

حملا يصحها في الطريق السوي القويم .

حملا يرد اعتبارها كأميرة بعد حلول مهانة في دلال

وهكذا شعلها الحمل عن كل ما عدها .. لم تعد تفكر كثيرا في غيره

هذا الشهر بدأ يتحرك

هذا الشهر يجب أن ترفد فترة وإلا أصبحت هناك خطورة على الحبيب

مرة تحتاج إلى حقن كالسيوم .. ومرة تحتاج إلى حديد .
وبين كل هذه المشاغل بالحمل والاستعداد لتلقي ناته .. طاح عباس في
مطالبه .. وازدادت مشروعاته الموهومة عوا وتغديدا
وبدا يعرف على وتر الأولاد القادمين .
لم تعد مطالب الحياة مقصورة على سيدة وعيس . وإنما تعدتها إلى القطيع
القادم .. من آل عباس بن برعى .

أُس أجل هذا يجب أن يسي عمله ويوسع نطاقه ؟
أجل .. يجب أن يعمل شيئا للأولاد .. فهو لا يعلم ما تأتى به الحياة .. وهو لا
يعلم عمره .

وترد عليه سيدة وهي تجلس على الأريكة وقد بدا عليها متعبا عمله
— ربما يعطيك طول العمر يا عباس .. ويملكك لهم .

— لا أحد يضمن عمره في هذه الحياة يا سيدة .. حتى في الدنيا على كعب
عمرت .. ولا بد أن يحس الأولاد شيئا يقيم شر الحاجة
— أنت تعمل ما في وسعك يا عباس .

— ليس كعامة .. إلى أريد أن أشرى مطبعة أخرى روتوغرافور ..
— غير الماكينة التي عرضوها عليكم ؟

— هذه أوفست ولكن الأخرى روتوغرافور . تطبع ستة ألوان مرة
واحدة . وتقصي الفرج وتطبخه ..

وأصبح عباس يمس من السجارة بين شفتيه وقال في حماس .
— ماكينة عجيبة كالوحش . يمكن أن تبصق السوق كله
وصمت برهة ثم مضى يفتحه أسفا :

— خسارة سيتراف المني جزا كبيرا من الرصيد .. ومأزالت احتياجاتنا
ملحة إلى أشياء كثيرة .. نريد ماكينة قص جديدة . يبدو أن المشروع سيتوقف
في مستعصه .

وكانت سيدة تنكسر في هذا الخلق الذي بدأ يتحرك في أحشائها .
وبدأت تحس أن ثمة رابطة وثيقة قد عقدتها الخلق الذي لم يزل بعد إلى
الأرض . بينها وبين هذا الرجل .
هذا الرجل أبوه . وهي أمه ..
وهو يعمل ويكدح . بعد عمر طويل من العث والنهر . من أحبه ومن
أحبها

وهي تشعر أنه لم يعد هناك من حجاب بينها ..
هذا الخلق الخفي في باطنها . قد أزال الحجب .. وفتح الستر .. وصبح
شوارف وبدد الوساوس

وبدا كان عباس يحاول أن يحس الأمان له وليس سيجيء من بعده .
شر الحاجة .. فإن عليها أن تشارك بكل ما تملك في العشاء

وعاد عباس يطمح كأنه يحدث نفسه :
— خسارة .. لو أن أحدا يقرضني ولو بالفلان ..
وردت سيدة في احتجاج :

— ولماذا بالفلان ؟
— لأن أقرض أن المبلغ سيحوس بأرباحه أصعاف أصعاف العائدة التي
ستدفع له

ونظرت إليه سيدة نظرة رقيقة حانية وقالت .
— اسمع يا عباس . إن لدى صيدنا بحرما في البيت .. خذ ما تشاء لتكمل
مشروع

وهز عباس رأسه في صبح قائلا :
— المقروض أن أصدق ما أعدته منك .. لأن أحد منك الم بد .
— ليس بيتنا خيري يا عباس .. كله باق لأولادنا ..

وصمت عباس برهة كأنه يفكر ثم قال في لحظة حازمة
(عمر لا درخ الشوك — حذ)

— اسمعى يا سيدة — سأعده لك المبلغ . بشرط .

— ما هو ؟

— أن أكتب لك الأرض . يحصلنى كل ما عليها بعد ذلك من مبان ملكا

لك

— ليس مهما يا عباس .. كله سيعود للأولاد .. سواء كان عندك أم عندى ..

— لا . لا . لكنى أريد صبرى . لا بد أن أكتب لك الأرض التى سنبني عليها المطبعة فى درب الجمامر .. وهذا لا أصبح مدينا لك بشئ .. وتصبح أنت صاحبة كل شئ ..

وفى اليوم التالى . بعد أن صحبها عباس إلى الدكتور .. أعدها لتشاهد بنفسها قطعة الأرض

وبالقرب من المدرسة الخديوية فى الشارع الضيق الموازى لشارع الخليج الذى يمتدقه الترام رقم ٥ الواصل بين السيدة وعمره . وقف عباس يمشى إلى قطعة أرض قصاء على ما صيحتها صندوق كارورة . فأتالا .

— هذه هى الأرض .. موقعها سليم . فى مكان وسط بين باب الخلق والأزهر وشارع محمد على .

ووجدت سيدة قطعة الأرض تحاصر بأبنية حرية وتشرف على شارع قدر ضيق .. فقالت له :

— ولكن ألا تجد أن المكان لا يختلف كثيرا عن مكان المطبعة القديمة ؟

— يا عيطه . هذه المبانى التى أمامك كلها ستهدم . وسيصل هذا الشارع بشارع الخليج ويصبح شارعاً عريضا مائة متر .. عدا ستبنى ما أعطه لها سأجعل المطبعة تحفة .

— ولكن هذا الشارع مسمى عليه عشرون عاما .. وهم يحاولون توسعته وما زال باقيا كما هو .. كل ما هدم هو بضعة مبان من بواحي السيدة .

— لا . لا . إن العمل سيسير به على قدم وساق . لقد تأكدت من

مصلحة التنظيم أنه لن يمر هذا العام حتى يكون قد اتسع

وبنظر عباس إلى كشك نالغ الكارورة وأشدر إلى الرجل الجالس على الدكة أمامه قائلا :

— اسمع يا حاج .

وأقبل الرجل نحوه قائلا :

— أهلا وسهلا .

— سيأتى عدا . الطلم عيد المقاول . لكنى يشون بعض الموب .. قل له أن

يأتى إلى فى المكتب .. قل له عباس بك وهو سيعرف

وهو الرجل رأسه فأتالا .

— حاصر ..

وانصرفت سيدة وعباس .. ولم يبق فى نفسها أى شك فى عباس ومشروعاته

لا سيما بعد أن أصر على أن يكتب لها قطعة الأرض كل ما شئها — بعض

الوقت — هو هل هذه الأرض هى أصلح مكان للمطبعة أم لا ؟ وسرعان ما

بعثت الأمر عن دماغها تاركة مشكلته لعباس .. فهو أدرى بها — مهما بعث

عدم درايته أو سوء تقديره — بشعوى المطابع .

وهكذا وصفت سيدة رصيدها فى البيت تحت أمر عباس . ليستكمل به

مشروعاته فى إقامة المبانى وفى شراء المطبعة . بعد أن أكد أنه سيكتب لها الأرض

كشرط أساسى لقبول النقود .

كل ما اعترضت عليه .. هو ضرورة التأكد من أن الأرض هى أصلح

الأماكن للمطبعة . والتأكد من أن شارع الخليج سينبع فعلا .

وشغلت سيدة بعد ذلك بمحملها .

حتى يبط الوليد .

وزادت مشاغلها به .

هبط الوليد في ليلة صيف .
 بدأ الصراخ ضد العرب . وأتى العيب ومحصها ثم انصرف قائلاً .
 — لسه يبرى ..
 ثم نظر إلى الممرضة التي أحضرها معه قائلاً :
 — انفى معها . وإد حد الخد . فالتصق في العيادة أو في البيت وسأق
 حالاً .
 وارلدى عباس ملاهيه استعداداً للخروج . وقالت له سيدة وهي مستلقية
 على ظهرها في الفراش :
 — إلى أين ؟
 — هناك مضبوطات عاجلة لا بد أن تسلم للوزارة . وسأمر على المهندس
 لأرى ماذا تم في التعديل الذي طلبته .
 — ألم يبدأ العمل بعد ؟
 — في هذا الأسبوع سيبدأون .. لقد تعطل العمل من أجل الرحمة
 والتعديلات المطلوبة .
 — أمر الضروري أن تغرح ؟
 — العمل ليس به إلا إذا وجدت بعضى في المنطقة .
 — أنا أشعر أني سألد الليلة .
 — مضى عليك أسبوع وأنت تقولين هذا .. لقد قال الدكتور لسه يبرى .
 وصحتت سيدة ثم عادت تقول :
 — لا تتأخر .. فأنا أعشى أن يأتيي الطلق وسط صفارات الإنذار
 — لا تخافى سأعود بسرعة ..
 وانصرف عباس متوجهاً إلى بيت وجدان . وكانت المصاييح روقاء
 والطرفة شيه مظلمة بعد أن تزايد صرَب الألمان للعاهرة . وكانت صفارات
 الإنذار قد أصبحت من الأصوات المألوفة للألمان

وصعد عباس إلى شقة وجدان .. وكانت الشقة قد اجتمعت حول المائدة
 الصغيرة . وصاح عبد البر الموظف في وزارة الأشغال
 — تأخرت علينا يا عباس .. ظلماك مريضاً .
 وصحك عباس :
 — الجماعة سيحوتنا هو عبده .
 — متى ؟
 — يبدو أن الأمر قد قرب .. وغدا سأصبح أنا .
 — أسيحت أنت ؟
 — كله محصل بعضه . ولكن الولاية تبدو سعيدة .. وسلامته قد شغلها
 عا . هذه هي أكبر عائدة لي .
 وقال عمر المخرج السباني :
 — الألمان قد اقتربوا ووصلوا إلى الطمين .. لقد صحصحوا الإنجليز .
 ورد آخر :
 — الإنجليز يابن عليهم خيفة .
 — كلام فارغ . بكرو الألمان سيأكلونها ساحة .
 — أنت مع الألمان والامع الإنجليز ؟
 — لست مع هذا ولا ذاك . نحن ليس لنا في الثورة ولا في الطمين
 — هل سمعت عن المظاهرات التي تمت اليوم لروميل ؟
 — ولماذا روميل ؟ . ما استخدم من سيدي الاستي ..
 — الوزارة مستقيل .
 — تستقيل أم تبقى كله محصل بعضه .
 واستمر اللعب ..
 وقبأة ضربت صفارات الإنذار ..
 وصاح صائح اطعوا الثورة .

وأنت الجماعة اللعب ..

وتسائل أحدهم .

— سرل الشيا ؟

— ولا روح ولا بجي . سحلس حتى تنفى العارة ومواصل اللعب .

ومهن عباس من مجلسه فتسائل أحدهم :

— إيل أين يا عيسى ؟

— سأذهب لأرى الوليه ..

— وماذا الوليه ..

— أحشى أن تكون الولادة قد عاجأها حلال العارة ..

وهبط عباس بتحمس طريقه في الظلام حتى وصل إلى الشارع

وتعالى صوت (الدوى) ولاحت شمل القابل المصادة لظلمات في السماء

وواصل عباس سيره حتى وصل إلى البيت .

ووقف أمام باب الشقة يدق الجرس . وبعد لحظة أقبلت أم سيد تفتح الباب

وقد أمسكت بيدها لمة جبار ولم تكن تصبر وجهه حتى همت به .

— مبروك يا سيدى .. مبروك عليك جابر .

وتسائل عباس في دهشة :

— جابر ؟

— أجل سيدنى . ولدت ولدا .. سمته جابر

وقال عباس صاحكاً :

— طيب يا متى . جابر .. جابر .. الحمد لله .

ولقيته المرحه على باب الحجرة قائلة .

— مبروك يا به . ولى العهد .

وضحك عباس .

أصبح لك ولى عهد يا عيسى .

ولى عهد . للديون . والنصب . والاحتياال ..

ولم تعرف المسكينه ما تعبت نفسها لحظة في الإعياب

وأقل عباس على سيدة ينصف ساق فرحة .

— مبروك يا سيدى . حمد الله على سلامتكم ..

— هل رأيته إنه ولد . يقولون إنه يشبهك .

— يشبهى أنا ؟

وأردف يقول مقهقها :

— تبقى مصيبة . هي البلد ناقصة . ألا يكفيا عباس واحد

وردت سيدة في صوت ضعيف .

— سمته جابر على اسم المرحوم أبى .

— فكمي الخير يا سيدى .. كان رجلاً طيباً وأمرأ ..

وتلعت حوله متسائلة :

— أبى الدكتور ؟

وقالت المرحه .

— لم يأت بعد .. لقد أتاها الخاضى .. ونزل الولد والضرب شغال .. وقبل

أن يسكن من طب الدكتور في النعمون ولكنه لا بد أن يكون الآن في

الطريق .

ونظر عباس إلى غلجولة الرائدة في ضعف وإلى قطعة اللحم الرائدة بجوارها

وبعد منه :

— ماذا فعلت يا عيسى ..

أكان يقصك هذا الخلقوف ..

ألم يكفك كل ما حولك من مشاكل ومتاعب ؟ ..

(٣٨)

من جحر .. مرتين !!

بما الخلق الجديد الذى أصاف كالنا إلى أسرة عباس البرعى وسيدة جابر ..
وارداد تعلق سيدة به مع الأهم .

بدأت تبصر فى الحياة شيئا جديدا

لم تعد مطالبا من الحياة تقتصر على ذاتها .. ولا عادت تتساهل كثيرا عما تريد
من الدنيا .

وإنما تركز كل اهتمامها فى الحياة ومطالبها منها فى هذا الخلق الصغير الذى بدأ
أول الأمر كأنه قطعة منها عاجزة بلا حول ولا قوة . لا يملك قدرة التعبير عما
يريد إلا البكاء ..

وأحسّت أنها بهذا الخلق العاجز الذى لا حول له ولا قوة .. إلا بها .. قد
أصبحت شيئا هاما . وأنها باتت قادرة على أن تست فى هذه الحياة ستا حيا .
سيصبح قادرا على مر الأهم . وبدأت ترسم له صورة مختلفة فى سى أدوار
عمره ..

غدا سيحبو يا سيدة ثم ينطق ..

سيقول ألماظا مختلفة لا معنى لها .. ثم ينطق كلمات مهترة الحروف
مصحكة النطق ..

وسيميرك وحذرك من بقية المخلوقات . سرفع دواعيه إليك ويرغى بحرك .
ثم يهبط عوده . ويسير .. يحسك فى ذيل ثوبك ويحبك كالطفل أبيا كنت
منى بعمل هذا يا سيدة ..

منى يسر .. ويناديك .. ويطلب بشعته ما يريد ..

ولم يطل به الأمر حتى فعل ..

الأهم تسو يا سيدة ..

وما ترسمينه فى خيالك صورا .. يصحى غدا حقائق ..

وينطق جابر وسار . وأمسك فى ذلك كما كنت تتوقعين ولم يد عباس إقبالا
كثيرا عليه ..

قد يكون ذلك لأن عباس أشد إقبالا على ذاته واعتاما بها من أى إنسان آخر .
وقد يكون لأنه . مشغول ليله وهاره بالطبعة ومسابها . وما كتابها وصفقاتها .

ولم يتوقف عباس عن طلباته طوال تلك الليلة ..

وكان أجرا عليها .. لأنه يأخذ منها ليصيف إليها .. إن ما يأخذ ليس مسحة أو
قرصا . وإنما هو نقود تحت الحساب . حساب المطبعة الجديدة التى ستصبح
مذكا لها فى حرب الجسماني .

وفى يوم قيل العرب . وجابر الصغير يثب على المصيدة لجذب شيئا مما
نوفها وأمه تصيح به ناهرة ..

— ويهتف يا جابر .. وأخرجها ممالك ..

وحديثه إليها ثم رعبته من دراعيه وصمته فى شوق قاتلة ..

— أعمل حيث إيه . مغلبى من شقاوتك .. طالع لمن يس ؟ ..

وردت عليها أم سيد :

— لأيه يا سنى .. حاجتيه من يره ؟؟؟

ولقد بدأ جابر عطيلا من أبيه وأمه .. فى جسد سمين وعيود مختلفة ..

ودق جرس الباب وفتحت أم سيد ودار بينها وبين الطارق حدثت أنت بعده
لل سيدة تقول :

— واحد يقول إنه الأسطى عبده من المطبعة .

— الأسطى عبده ؟ ..

وفكرت برهة ثم صاحت :

— آه . عبده بتاع المطبعة . سوات طويلة لم أثره .. دعيه يدخل .
وأقبل عبده . هذت السون قواه . وبيضت رأسه .. وأخت جسده
ومدنت سيده يدها إليه مريحة
— عبده .. أهلاً وسهلاً .. أزيك يا عبده .. انتفضل ..
وأحدثت سيده مكانها على أحد المقاعد ، وجلس الرجل قائلها وهو يقول :
— أزيك يا ست . الحمد لله أن رأيتك بعد هذا العمر الطويل والطمأنينة
عليك . لقد عصمت أنك تزوجت من سي عباس ولكني لم أكن أعرف البيت
حتى أتى لزيارتك .. ولم تأت أنت لزيارتنا في المطبعة .
— الدنيا مشاعل يا عبده .. وسي عباس كان يطعنى دائماً عبيكم وعمل
المطبعة ويقول في إن الشغل على ما يرام والأشياء رصا ..
ورفع إليها عبده حاجبيه الأشبيين وتساءل في دهشة مستكرة ..
— الأشياء رصا ؟
— أجل ولأني أرى المطبعة الجديدة في ضرب الحماير . وأحبرني أنه تعاقب
فعلا على الماكينات الجديدة ..
وعاد الرجل المجهز يتسامل في فحول :
— ماكينات جديدة ؟
— أجل .
— هو قال لك هذا ؟
— لقد دعنا في المصيبة حتى الآن ما يربو على ألف وخمسمائة جنيه .
واستمر الرجل يرد كالأله .
— ألف وخمسمائة إليه ؟
— حيه .
وصرب الرجل كما يكف وهو يقول :
— يا ست سيده .. قولي شيئاً غير هذا .

وردت سيده في جرع .
— لماذا يا عم عبده ؟
— لأن المطبعة محجور عليها . نظير ديون مستحقة لشلهوب . وإحاح
مصطفى .. والخوافة أنطون .. وعند آخر من الديانة
ودعت سيده إليها الذي وقف يتمسح في ركبتيها حباب ووثبت من مقدمها
كقطعة تشب أنفاسها .. وتقرس ظهرها .. وصاحت كاهيرة
— المطبعة محجور عليها .. انت المجنت ؟
وتند الرجل في حزن وهو يقول :
— الله يساهلك يا ست .. أنا الذي جنت .. كثر خيرك .
وحاولت سيده أن تتألك وحديث الرجل الذي وقف أمامها وهو يوشك أن
يصرق وقالت له وهي تمود إلى مقدمها وأغاسها تتلاحق :
— اجلس يا عم عبده .. اجلس .
وبعد أن التفتت أمامها .. تساملت في لحظة أكثر هدوا
— تقول إن المطبعة محجور عليها ؟
— أجل .
— لو اتقأت أنت من هذا ؟
— أجل .
— منذ متى ؟
— منذ شهر عدينة . وهو يحاول تأجيل التكميلات .. ولقد حاول أن
يخبر الإبراد لسيده بعض ما عليها من كميلات ولكنه كان كاللوعة .
يشمط كل ما يحصل عليه ..
وأحدثت سيده تير رأسها كالفرخة الديحة وعادت تقول محاولة أن تريح
نفسها :
— ربما كان يأخذ .. للعمليات الجديدة .

— أى عمليات ؟

— الماكينات الجديدة . والبهاء في حرب الجماميز .

— ماكينات جديدة .. عباس يشتري ماكينات جديدة ؟

— لقد أكد لي هذا

— طيب يخلص الحجز على الماكينات القديمة أولا .

— والبهاء في حرب الجماميز ؟

— أى بناء ؟

— على الأرض التي تركها له أبوه .

— أبوه ترك أرضا في حرب الجماميز ؟

— لقد أراها لي بنفسه .

— جائز .. لقد مضى في أربعون سنة أعمل عندهم . لم أسمع أن لهم أرضا في

حرب الجماميز .. ولكن من يدري . إن سي عباس . على كل شيء قدير

وأحسست سيده أن أظرافها تبرد وأن جسدها يهزل وأنسكت جانبي للمقعد

بكلتا يديها حتى لا تتأوى .. وأخذت تردد كالشهوة .

— إذن ليس هناك أرض ولا مطبخة .. والقود قد لظتها عباس

ورفعت يديها لتلطم خديها قائلة :

— يا غراب بيتك يا سيده .. ضحكك عليك عباس .

سرقك عباس يا سيده .. كما سرقك علام ..

والثوم لا يلدغ من جحر مرثي . ولكنك لست مؤمنة بدليل إنك لدغت

من نص الجحر .

ومن يدري قد يكون تزوج عليك .

هذا السهر والهاب عن البيت .. والقود التي شفيطها كاليالوعة .

يا وقحك المبلة .. مبلة .. يا سيده

ضاعت كل فطوسك .

سرقها .. الكلب .. ابن الكلب .

ولكن كيف يسرقك ؟ وهو روحك وأبو بيتك كيف يسرق مان

ابه ؟

ولكن من يلومه ؟

ومهته القصب على حلق الله .

من يلوم الذي رور البوابات عني توحيد ؟

المقوم هو أنت ..

أنت التي تستحقين كل ما جرى لك .

أنت تعرفه من ألمع قديمه إلى قمة رأسه . لقد خبرته وعجته .. عرفت

الأعياه طوال عمرك ..

ومع ذلك وقعت في شركه .. كاللهاء .. جرك على ملا وجسك .

وصمت عليك خدعت

ولكن كيف لا تصدقيه ؟

وقد أقبل بعرض عليك الزواج . وتزوجك فعلا ..

واستمر يصرف عليك في كرم وبحبه . حلال الشهور الطويلة ..

لم يكن أكرم منه وب بيت .. يعرف قدر نفسه وقدر امرأته ..

وأحب منك يا سيده ..

ارتضى بأن يكون أبنا لابنت .. شرعا . وأن يرتبط بك مدى الحياة . مبد

الخلوق الذي سيشاركك وإياه حتى يوحدت العرقه ووقع الطلاق .

عمل كل هذا يا سيده .. دون أن يطلب منك شيئا ..

وهو حتى الآن .. لم يسألك مليما واحدا

أنت التي رجوته أن يأخذ .

لم يفعل أكثر من مجرد عرض حالته ..

سرد مشاكلكه . وشرح مشروعاته

وصمت

لم يطلب منك حتى المشاركة في حالي .

أنت التي تطوعت . قلت له إن مالك ماله .. وأن المال كله باق للأولاد ورجوته أن يأخذ المال مرة كقرص
ومرة ثانية رفض حتى أن يأخذ كقرص .

وأصر على أن يكتب الأرض لك .. ويصع مالك فيها

ما شاء الله !! ماذا تريد أكثر من هذا ؟ .. وأي مخلوق على ظهر الأرض لا تنظف عليه الحديقة .

يا عباس !!؟ يا ابن أم عباس !!؟

ماذا أفعل بك ؟

أفقتك ؟! ولكن ما الفائدة ؟ . ماذا يمكن أن أأخذ من خلك ؟ .

أذهب إلى السجن . وأبني الولد من أبيه وأمه ..

أطلب الطلاق ؟

وماذا يفيد ؟

المهم كيف أسترجع النفود ؟

بل وأبني النفود ..! لو أن شيئاً منها قد بقي .. لأتخذ به المطيعة من الحجير والضياح

مصيبة يا سيدة ؟

ولو أنها وقعت على رأسك وحدك .. طان الأمر .

ولكن هذا الصغير .. ما ذنبه ؟

تخصمه إلى هذه الحياة . وأنت لا تملكين قوته . ومي أب .. لا يستطيع أن

يسأل عن نفسه . بل لا يستطيع أن يترك الناس في حالها .. ويأبى ألا يستقر عليها

ويجرحها من كل ما تملك .. في سبيل شهواته ولذاته ..

ماذا نعملين يا سيدة في هذه المصيبة ؟

ونظر إليها الرجل بعد طول صمت قائلا :

— ما العمل الآن يا ست سيدة . لقد صممت على أن أعرف العوان حتى أحصر إليك وأستعيت بك . لم أكس أدري أنك لا تعريين . ولم أكس أدري أنه قد فعل ما فعل . والآن ماذا يمكن أن يفعل في هذه الخراب يدى ينتظربا جميعا .. كلنا سنشرد يا ست سيدة ؟

وانصرف الرجل بعد أن أغنى قسبته في وجه سيدة . ليركها شظايا

هل يمكن أن يكون الرجل حقاً قد فعل كل هذا ؟ .

وعاد عباس إلى البيت . بعد أن أمضى سهرته

ودار حوار طويل عاصف بيه وبين سيدة .. نف وحاور وكذب وأكد

أن الماكينات في الطريق .. ورخصة البناء قد توشكت أن تنتهي . إلخ .

ولكن شيئاً واحداً لم يستطع أن يكره . وهو أن الحجير سيرقع بعد بضعة أيام على الماكينات ..

وادعى أنه سيدبر المبلغ لكي يدفع الكمبيالات .

وأصرت سيدة أن تأخذ كل ما دفعته له على فاير ملين .

وبعد بضعة أيام التقت بدلال . وعرفت بها أن عباس يقضى سهرته في بيت

وجدان .. وأنه يلعب القمطر .. وأنه لم يتزوج ..

ولكن قلقها على مصرها ومصر الصغير أخذ يتزايد .. وهي تعرف أن

عائلتهما قد انتهى .. وأن همها في عباس .. وفي إمكان إصلاحه وحنه لنسبوية قد تزد نبأيا .

وأزعجها .. أن طريق الرزق قد بات معلقاً أمامها . فهي لا تستطيع أن

تعاود طريقها الأول . ليس من أجل مصها وصيغتها هذا الطريق .. بل من أجل

هذا المخلوق الذي تشر بمسؤوليتها الكبرى أمامه . والذي يتحتم أن ننحصر

طريقها جيداً من أجله .

والذي ستحملة مع الأيام كل أوزارها

ووقع الحجر على المطبعة وبيعت .

وفي اليوم التالي أقبل المحضر . يرد أن يحجر على ثلث المنزل .

وصاحت فيه سيدة أن الأثاث ملكها . وأنه ليس لعباس في البيت كمرسى واحد

وفي عصر ذلك اليوم حملت سيدة مصاعها .. وذهبت إلى روض الفرج
هذا المصاع هو كل ما تبقى ها . وم بعد هناك مكان آمن من بيت ست
عاطلة للاحتفاظ بالمصاع ..
واقبلت سيدة على الحى ..

هبطت من ترام رقم ٨ في محطة الحامى .

وكان مظهرها قد تغير تغيرا واضحا خلال الأعوام الثلاثة التى أمضتها مع
عباس . دبت عنها أنيقة المهنة المنسوجة مكياج الوجه الثقيل الواضح
المخطوط لتعاقب الأكران لا كحل ولا ريجل ولا حشوط ولا حبال ولا أحمر فوف
الحدود والشفاه .. ولا مشيدات تبرز معالم الجسد ..

كل هذا لم تعد تحتاج إليه وعاد وجهها بملاحة البسطة الأولى سمرة
باصفرار وهم متسع ولم يبق ها من معالم الجمال سوى أنفها الصغير وعينيها
الواسعتين .. والشارية على جانب منها ..

وغير الحمل والولادة معام جسمها م بعد ذلك الجسد المتسل
المرسوم تهادن صدرها . وكبر بطنها . واستأخر حصرها . وترحلت
أطرافها .. وأضحت أقرب إلى أن تكون أما .. منبأ إلى غاية
ولم تعد لها القدرة أو الحرص على أن تتابع مودت نيايب وقده العهد بما
لديها . فأصبح ما ترتدجه لا يلتفت ولا يثير

نصحت عليها السموات الثلاث ثلثي قصتها . ما بين الحمل والولادة
والترصاعة وتربية جابر فجعلت مظهرها عاديا . يمر جاديه سوى ما تبقى
من مظاهر فتيتها الأولى التى جارت عليها .. لحفة على الأضمة .. وورقة

فيها بعد طوول فندان لمداد وامتنان لمصر

سارت سيدة في شارع بكتمر المؤدى إلى البيت في روض الفرج
وتذكرت لأول رحلة ها في الحى فوق الأثاث المصلى على العربة النكارو
تعبت معه الحى كله برحمت المنور على أرضه . واحتفت الرقعة
العسيرة المحصرة التى كانت تمتد على مدى مصر في حديقة هوسون والعقول
العبيطة بها قسمت حقول القصب والخيرة إلى أراض . وبنت البيوت في
الأراضى كالتبدان الحافة . وأحاط بها الصغار كالحمل . ونشرت كسوة
القمامة وحوايت البقالة على النواصى

الناس يتراحمون في كل مكان والأولاد يتكاثرون يا سيدة .. وسيكبرون
ومن بينهم جابر . والعمال يحط من السماء تدمر ما على الأرض من عمار
ولا يدهم من مدارس يتعلمون فيها . ووظائف يملكونها .. وبيوت يتزوجون
فيها يأتوا بمزيد من الأولاد يرعسون في مزيد من مدارس والأعمام
والبيوت بدلا من أن تصيب إياها ما يؤذى هذه قطعات الشرايدة على
الأرض وهى عاجزاتها . ثم ترى القبايل تنوى تنقصى على نقصان نفسها
ليحول الإنسان إلى نوع من الحيوان بحسب ذريته ليأكلها
ووصلت سيدة إلى البيت .

هزم سور طوسون العالى الذى كان يسفقه الخوف بأوراقه المحصرة الماكدة
ووروده الصغراء وكروانه الطويلة . وقد الشارع من خلاله تمتد بانسان على
جانبه حتى سور المدرسة .

ولاح لها البيت وقد بدت عليه معالم الليل والقدم . وهماق الشارع أمامه ..
وكثبت اللافتات العائنة على جدرانها . ومن بينها لافتات انتخابات قديمة
انتحيوا عبد العال بهوم بطل الحلاء ووحدة ودى النيل .

وصعدت سيدة بصح المدرجات التى تمتد وراء الباب الحديدى الخارجى
لدى تحفه رجاحه وعلاء التراب ووقفت أمام باب شقة دق الحرس
وحصت برهة فزوت أن يرد أحد . وتذكرت سيدة أن جرس الباب كان عاطلا

في معظم الأوقات وبدأت تطرق الباب بيدها .

وسمعت صوت الست فاطمة يصيح من الداخل :

— اتحي يا كوثر اتحي يا حبيتي أصل الست بعينة مرشيت
وتذكرت سيدة كيف كانت تنصام عن سماع طرقات الباب أو البدايات التي
تلاحقها وكيف كانت الست فاطمة تصبح بمسحاة نفس الصبيحة « اتحي يا
صبيحة يا اتحي .. أصل البنت سيدة طرشت » .

ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تنمو شفتيها على كل ما تحمله من هموم .
فتح الباب وأهضرت أمامها فتاة حلوة ناصحة لم تصدق أنها كوثر وذهبت
بها في لحظة .

— سنى كوثر .

وكانت كوثر تحب سيدة ..

كانت تحملها هل كتفها وهي صغيرة .. وكانت تشتري لها المصاصة ..
وتأخذها معها إلى السوق .

وهفت بها كوثر مرحبة :

— سيدة !!!

وصاحت فاطمة تنسأل من الداخل :

— من يا كوثر ؟

— سيدة يا خالتي

— سيدة مير ؟

وأفسحت كوثر الطريق إلى الداخل لسيدة وهي تقول مرحبة :

— أهلا وسهلا . ازيك يا سيدة . ما هذه العبة الطويلة ؟

ثم ردت على خالتها قائلة :

— دى سيدة يا خالتي . سيدة بتاعتنا .

ومضت حرة صمت لم تسمح خلالها رد من السيدة الكبيرة . ولم تعرف

كيف كان وقع قدمها عليها .. وصاحها لاسمها .

تري هل أعيرها حمدي ؟

قطعا لا .. إنها تعرف حمدي جيدا .

لم يتمدد فقد أن يقول شيئا عن الناس . يبدو دائما وكأنه لا يعرف سواها عن
أحد .. ومع ذلك فهو يعرف كل شيء .

ولكن هل يعنى عدم بوح حمدي بشيء عنها أنها لا تعرف شيئا ؟ وألسنة
الناس الطويلة ؟

ولكن من يمكن أن يعرف في الحى عن هذه الأشياء ؟

من يمكن من هؤلاء الذين تتلقى بهم الست فاطمة ؟

من يبرى . أحد من الباعة أو الخدم .. أو زملاء حمدي يروى من
باب الدردشة عن أن الست التي كانت تعمل عندهم . أصبحت تعمل الآن في
« الحش البطالة »

معقول جدا أن يقول إنسان لست فاطمة هذا .. ولو من باب التعككة .

نصوري يا ست فاطمة .. البت السابعة .. التي كانت تعمل عندهم .
أصبحت تعمل في وجه البركة .

وترد أخرى مضفة

— ساهية أرى .. دى من يومها مقطعة السمكة وديها ..

تري كيف يكون رد فعل هذا على الست فاطمة ؟ ..

وترددت سيدة برهة في مكابها ولكنها ما لبثت أن حطت إلى الداخل
لم يجد حمدي التردد الآن يا سيدة . ادخل . ولكن ما يكون .. لقد كانت
الست فاطمة دائما ملجأك وملادك . ما أحسبت بالطمأنينة إلى مخلوق .
أكثر مما أحسبت لها . فادخل .

وأقبلت سيدة على الست فاطمة ..

كانت تجلس على الأريكة كعادتها . وهضت لتحتيها ..

هرلت كثير . وحف شعرها وسرى به الياس . وترهل لحم دراعها المكترتي .

وراد الجش عن صاهر كعها . الذى عرفت فيه العروق الخصراء بعد أن كان الشحم يكسوها ..

وكانت تحبها علوها حابة . لم تسم عن شيء مما كانت سيدة تخشاه وربت ظهرها فى حان وهى تقول

— سلامات يا سيدة . هيك كل ده .. ولا سؤال .. ولا كلمة .. تخونك العشرة .

وحسبت سيدة بعمر وعى منها على حشية على الأرض أمام . الست فاطمة .

وجدبتها كوتر من يدها قائلة وهى تشير إلى المقعد ..

— اجلسى ها يا سيدة ..

— معلش .. هنا .. أفضل .

وقالت الست فاطمة :

— اجلسى كما يريحك يا سيدة .. أنت فى بيتك .

وجلست كوتر على مقعد قائبا وهى تقول صاحكة :

— سميت يا سيدة .

— وانت كبرت واحسريت . هل تصدقين أى لم أعرفك ؟

وقالت الست فاطمة مطلقة :

— بت حلال .. وأمره .. وعا يجعل لخمى قسة هيا .

وهو حقت سيدة بفول الست فاطمة . ونظرت إلى كوتر بإدائها شابة . وإذا بأمية الأم حائرة التحففى .

أعد، معقول ١٤

هذه الطعمة التى طالما أحبها عن كتعبها . واشترت ها فصاصة .. تغور

بالورقة الزائجة .. دون غيرها من الخلوقات

ليست صماء .. ذات الوجه الملائكى والشعر المسترسل والعيين الصاعيتين .

وليست هى .. صاحبة الحب المستعر الذى لا يطفى له لب .

وليس أحد فى هذه الدنيا ..

ولكها هذه الطفلة . الطيبة .

حكم ..

وتنظرت سيدة إلى الأم ورددت أمنيتها بعمر وعى ..

— ربنا يوفقهما ويبدى سرهما .

وصحكت كوتر قائلة وقد علا وجهها حمرة المحل .

— ما هذا يا حاتنى .. لسه بدري .. على كل هذا . أنا سأبقى معك عن طول .

وقالت سيدة :

— ومن أجل هذا .. تدعون يكون لخمى نصيب هيك .. ولا أعش أن الله

يمكن أن يوفقه إلى عروس أفضل منك .. اللهم ما هى أخباره وأخبار الست سميرة ؟

وقالت الأم :

— أخبار سميرة على ما يرام .. أنهيت بتا وولنا ..

وتسايلت سيدة فى دهشة

— حقيقة ؟

لم أردت صاحكة .

— إنها أخطر منى .. لقد أنجيت أنا ولنا .

والتفت إليها الأم متسائلة فى دهشة :

— هل تروحت نابة ؟

— أجل ..

— أجل . تروحت عباس ابن صاحب المطبعة الذى كنت أعيش عندهم قبل أن أحضر إليكم .

وبدا الارتياح على وجه الست فاطمة . كأنها كانت تحمل هما والراح عن كاهلها .

وقالت فى رصا :

— الحمد لله الذى وفقك إلى الرواح . الرواح . الرواح ستره يا سيده .

وصمتت برهة ثم تساءلت :

— وكيف حالك مع ووجك ؟

وأفطت سيده تبهيدة حارة ثم قالت :

— لا أريد أن أحملك همي .. لا أظن أحدا مسترخيا فى هذه الدنيا

وردت السيدة متسائلة :

— بخير ؟

— أبدا . يبدو أنه ليس لي حظ فى الرواح . لقد أراق المر .

— كيف ؟

— أمضى عامين وهو يومئذ أنه يسى مطبعة على قطعة أرض كتبها لي وأخذ

مى كل ما لدى من نقود . وأخيرا اتضح أنه ليس هناك أرض ولا بناء . وأنه قام بكل ما أعد صي .

— مسكينة . شر الأرواح المقامر يا سيده . ليس له علاج . ومادا

فعلت ؟

— أتيت إليك لأحفظ عندك ما لدى من مصاع حتى لا يأخذ . وأجد

نفسى عدا بلا مأوى وبلا ملجئ يقبى أنا وابنى عائلة الخويع .

وهزت فاطمة رأسها فى حزن وقالت فى أمي .

— لماذا لا يستقيم الناس ؟ .. لماذا لا يستريحون ويرجعون ؟.

ومدت سيده يدها إلى صدرها ثم أخرجت لفافة وصفت بها المصاع وسلمتها

إلى الست فاطمة .

وتناولت الست فاطمة قائلة .

— ما أحفظها كما هي . أى وقت تحضر من متحديني فى الدوح الذى تعودت

أن أضع فيه مصافك ..

ثم هزت رأسها فى أمي وعثمت قائلة :

— ربنا بيديه ..

ومضت برهة صمت ثم تساءلت سيده بطريقة غامضة ..

— وما هي أخبار حمدي ؟

وتطوعت كوتر بالإجابة قائلة

— ترك جريده الوعد الذى كان يعمل بها . بعد دخول الوعد الوزارة عن

ديارات الإمبر . وعمل مجلة هو وصاحبه يعرف وصلاح . ومستا جرو داره

فى شارع الإمسا . واشتروا مذ بصمة أيام ماكية طباعة بالمراد من شارع السد

ماكية قديمة فى مطبعة اسمها مطبعة برعى ..

وففرت سيده فأها وتساءلت فى دهول :

— حمدي اشترى مطبعة برعى ؟

وردت كوتر قائلة :

— أجل . إنها مطبعة قديمة ولكنه قال إنها يمكن أن تقصى .

وصمتت سيده

هذه الدنيا صيقة . صيقة

باع عباس المطبعة واشترى حمدي

ثم ماذا ؟؟؟

(٣٩)

إلى السطح ..

عادت سيدة إلى بيتها بعد أن جمعت مصاعها عند أم حمدي
عادت لتبدأ مرحلة من الصراع مع عباس .

كان ينتظرها عند عودها وقد بدا على وجهه النجيم . ولم تكده تتجاوز باب
الشفة حتى صاح بها :

— أين كنت ؟

ونظرت إليه سيدة وأجابته في تحد .

— كنت في داهية .

— لا داعي لقلة الأدب . قولي أين كانت غيبتك ؟

— كنت في روض العرج عند الست أم حمدي . هل يملك حقاً أن تعرف ؟

— ألسنت زوجك .. ورجل البيت ؟

— رجل البيت يصرف عن البيت . والروح لا يخال على روجته وبأحد
ماها .

— انصري لستاك يا سيدة .. أنت تعرفين أي رجل البيت ونمرهين كم
صرفت على هذا البيت .

— بالدين

— الدين لا يحب الرجل .

— ماذا يحب الرجل إنذ ؟

— يحبه شره .

— وإذا ترك روجته وابنه بلا قود . من أين ينتظر أن تحصل على ما تحتاج

إليه .. أنتظر أن تباع شرفها حتى تأكل وتطعم ابنها ؟

— انصري .. أنا لم انصرك في حقك .

— كل هدا ولم تنصري حتى ؟

— أرمه .. وهرجه الله .. كل الرجال يتعرض للأزمات .

— كيف يهرجه إذا كنت لا تعمل ؟

— حين قال لك إلى لا أعمل ؟

— تعمل عد وجدان .

— القمار ليس حياً .

— ليس هناك عيب شر من القمار .. أنت رجل بدن وجبان لأنت
استبحت مال غيرك .. مان ولدك . المعروف أن تكذب من أجله لتؤمن حياته
ومستقبله .. رحت تبهر ماله على مائدة القمار من أجل أن ترصي ثرواثك ،
سرقتي وحرقت قلبى .. روح الله يحرق قلبك ولا يبارك لك في مالك ولا
عافيتك .. إلى يوم القيامة .

ونحمت أم سيد التي وقمت نصت إلى المافشة من بعيد وهي تحدث عيساى
عيط .

— من يمكن أن يهيه الله شراً من هذا .. إن شر الدعوات لن تنصيه بأشوأى
أصاب به مصه . لم يعد له من مال حتى يبارك الله به فيه . وعافيته بلا
جلوى .. لأنه لم يصل عملاً طيباً في حياته .

وبدت علامات المم على وجه عيساى ورد في صوت مخالفت .

— سوء حظ . لو أنى رحت لتعمر لأمر . لستدت ديوى . واشتريت
القطعة

— أمة مطبوعة هذه التي تشتريها ؟ إنك لم تحاول مرة واحدة .. أن تعرف

كيف يجرى العمل في المطبعة من يوم أن مات أبوك تركت الناس يهبونك
وم يكن لك من هم سوى أن تحصل على الفئات الذى يتكونه لك .. لو أنث

ذهبت إلى المطبخ وحلست فيها بحرد جنون . لاستطعت أن تدبر العمل كما كان أبوك يديره .. ولأصبح لك مورد نعلنا به ولما تركنا هكنا لا نعرف من أين نأكل غدا .

وتهد عباس وأطرق برأسه في صمت وعادت سيدة تقول في مرارة :

— سوئت رجل . لما احتست على ولاية . وأخذت ماله . وأنت تعرف كيف جمعته .. ونعرف ماذا يكلمني أن أحاول جمع مثله . يكلمني شرفك الذي تدعي المحرم عليه . شرف ابنت الذي يحمل اسمك . الذي لم تحترمه مرة واحدة .

وصمتت سيدة لتلفظ أفعالها

وصمتت برهة صمت حوجمة . قطعها عباس بقوله في حجة يشوبها اليأس — لست أدري ماذا أقول لك . ولكني أؤكد لك أنني سأعمل . سأذهب إلى المطبخ . ما زالت في ورشة التحنيد وبعض الماكينات الصغرة . وسأحاول أن أوصل العمل في فقط زهد . معاً أعدد به يقينه الكميالات .. حتى لا يطبخ ما تبقى في المطبخ ..

وطرقت إليه سيدة في ذهشة كأنها تنظر إلى حيوان غريب

— مبنغا من المال .. من أين ؟

— من حذك .

— لم يعد عندي مدب واحد .

وصمتت عباس برهة ثم تسائل :

— والمصاع ؟

— أي مصاع ؟

— مصاعك

وتذكرت سيدة غلام . وأحست بالدم يفل في عروقها وقالت له في تحد :

— ليس عندي مصاع ..

وهو عباس رأسه وقال وهو يرمو في صيق :

— انتبهنا .. ولما يفرجها . ولا يجوزنا إلى أحد

وعاد عباس الدار . ولم يحاول بعد ذلك أن يدخل إليها في ماقشة .. كان

ينصر إلى البيت ليام . وفي الصباح بعدد ولا يعود إلا ليلا .

ولم تأبه له سيدة . كانت قد بلغت منه . لقد اعتبره مجرد شكل لرحل

البيت . ولم تحاول أن تحمده أية مصالب — فقد كانت تعرف أنه أعجز من أن

يلبي لها مطلباً ..

كل ما كانت ترجوه .. هو أن تبقى شره ..

وكان عبسا أن تدبر أمر معيشتها هي وأبها .. وكان قد تبقى لها مدب من خال

يمكن أن يكفيها لفترة ما . ولكنها كانت تعرف أن مصيره إلى الغد . وحاولت

أن تصعط مصروفاتها . استعنت عن محمد السرجي . وأخبرت أم سيد

أبها أن تستطيع أن تدبر أمرها . وقامت لها المحور وذموعها تفرق في عيها .

— يا ستي . ليس لي مكان سوى بيتك . ولم يعد من عافية . أستطيع

بأن أوصل العمل في بيوت أخرى . سأبقى معك . ولتدبر الله أمرنا سوياً

وبدأت سيدة عملية بيع أشياء مكسدة في الدار لا ليرودها . فالتيس

ورهريات . وسجاجيد . للخواجه جورجى صاحب محل لمزادات أسهل

الدار .

وكانت تحس بشبح الحاجة .. يهدد أمها .. ومصيرها ..

كان يقف بعيداً . ما زال يحول يده ويبيها بقايا الرصيد في البنك . ويقف

أشياء .. في الدار .. يمكن أن نباع . وأحمر المصاع . شحوظ عبد الست

فاطمة . ومع ذلك . ورعم كل هذه الأشياء كان شبح الحاجة موجوداً . وفي

يوم من الأيام .. سيصل إليها . أو تستصل إليه .

لو أن في قدرتها . أن تعمل عملاً .. تدبر به أمرها .

ولكن أي عمل يمكن أن تقوم به ؟ .

لقد كان ها في حياتها عملاق ..

خادمة .. وبطي .

أما البنى فقد اتبى أمرها . منذ أن هبط هذا الإنسان العرير الذى
يكون وجوده معها كل صعب . والذى تسبح انتساقه كل حرد . ونحو
ضمت بدراحيه الصورتين كل متاعب الدنيا ..

ثم إنهما لم تعد تصلح ، هذا الأمر . طال العهد به وبها . وذهب الاستغفر
والحمل والولادة بطل ما غلقت من قدرة عليه . وساءت في أدائه لن تكون ها
القدرة . هذا الشكل الذى انتهت إليه . على إرضاء العراء وإعراهم
ونقد باتت تكره كل ما يدكره ها .. تكره أن تكون بمأصيا لها . سببا لألم
هذا الصغير .. أو عذش كبرياءه وجرح كرامته ..

أما الخدمة . عمادا يمكن أن تقوم به ؟ وأيس يمكن أن تؤديه .

بعد كل هذا العرا سيدة . والسيادة والأبهة .. تعود بك الأهم إلى الخدمة
مرة أخرى

ونكس هل تستطيعيا ؟

هل .. يمكن أن تحس جدحك لمسح اللبلاط ؟ .. وتنتى ركبتك القرفصاء
أمام طشت القسيل .

شاقة هذه الحياة يا سيدة .

ونكس مع ذلك . مقبولة .. إن لم يكن لها بديل ..

أى شيء من أجل جابر مقبول ..

من أجل أمه . وسلامته .. ومستقبله . وكرامته

من أجل أن نجيبه مشقة الحياة وعذابها . من أجل أن نرعى الشوك من
طريقه .

إنها نفس بمدى حاجته إليها ..

ليس له في الدنيا غيرها .

هذا الأب الذى لا يشغله سوى نفسه . ومشاكله ومتاعه وورثته
يبدو كأنه أب شكل .. كما هو روح شكل . ومع ذلك موجوده خير من
عدمه .. فهو يشكل كيانا في حياة الولد لا غنى عنه ..
إنه أب شرعى .. لا يدعه في إجراءات كثيرة لحياة الطفل .. يسأل الناس
دائما .. عن أبيه .. جابر ابن س . ولو لم يكن لباس وجود . لتعقدت أمور
كثيرة أمام الطفل .

استنارت التقديم إلى المدرسة . والتطعيم . وشهادة الميلاد .. وكل عيب
يذهب به إليه ويكتب له روثة . يسأل عن اسمه . جابر . جابر إليه ؟ .
وهو يحمله أحيانا .. ويضمه ويقبله ..
والصبي يناديه بابا ..

سد عباس خاة في حياة الطفل .. كما سد خاة في حياتها ..

مسح الكثير . وجودا شرعيا . أمام المجتمع الشرعى
أمر عجيب ..

هذا المخلوق الذى لم يسبح في شيء . نصح في أن يكون عماد هذه الأسرة
عمادا وهما يشكله مجرد وجوده . دون أن يجهد نفسه فيه
من أجل هذا سلمت سيدة بيقاله . بنام عندما يعود . وبأكل عندما يريد .
من أجل أن يظل أب لهذا المخلوق العرير . الذى يواجه الحياة بلا عائل سواها
ومصت الأهم وهى تحاول أن تبعده عى شح حاجة يريد من الوهر في
مصرفات . وفرق التياب . وفي كل شيء . إلا احتياجات الصغير .
وفي ذات ليلة أقبلت عليه تصه إلى صدرها ..

عرير . عزيز .. هذا المخلوق ..

إنها تستطيع أن تمنحه حياة سعيدة هائلة .

لينا تستطيع أن نجبه ما لاقيه من عذاب في دنياها ..

وأحست . بصفحة وجهه ساعة على وجهها .

وأعدت تتحسس جيبه ويديه
ثم هفت به في قلبي .

— جابر .. هل تشعر بشيء ؟
وهر الصعير رأسه وقال لها :
— لا شيء .. فقط أريد أن أنام .

وأصبح الصباح على الصعير . فلم يفر من فراشه .. ولم يرتكب خطأ
الصغيرة التي تعود ارتكابها . لم يشب من سور الشرقة . ولا نادى الباعة من
الساعة . ولم يبهط من الدرج ليجنوه في الشارع . ولا احتسب عند الحيران
وأقبلت أمه تتحسس في قلبي .. وقالت لأُم سيد :

— ما زال الولد صامتا يا أم سيد ..

وبدأ صوته مركوما .. وأخذ يسعل سعالاً خطيما .
وقالت أم سيد :

— برد الولد .. ندفء جرمالا .. ونضمه على صدره .

ولم ينجب قول أم سيد سيلا .. وقالت :

— من أين لي أن له البرد ؟

— من يدرى .. طول النهار يذهب إلى الحيران .. ويخرج إلى الشرفات .

وهزت سيلا رأسها وردت في قلبي :

— ليس يردها يا أم سيد .. أفضل أن أحضر له الطبيب

ونظرت إليها أم سيد قائلة

— يا سنى .. نحن أولى بالقود .

وقالت سيلا في خوف :

— أنا فقيرة على الولد يا أم سيد .

— إذن نذهب به إلى الدكتور عبد الرحيم حاربا في العمارة . إن حودة
التومرجي الذي يعمل عنده ابن حلال .. لم يكن أن يمدنا

وعرفت أم سيد من جودة التومرجي موعد العيادة . وقبل الطهيرة هبعت
سده تحمل جابر إلى الدور السفلي حيث عيادة الدكتور عبد الرحيم . الدكتور
الأطفال .

واستطاع جودة أن يلعب بها من باب جاني ليجسها الانتظار وحول ألا يأخذ
نقود التذكرة ولكن سيلا أصرت على الدفع .

وأقبلت سيلا على حجرة الطبيب . ولم يكن شكله عربيا عديا . سبق أن
رأته يصعب مرات في المصعد . بشعره الأشيب ووجهه الأسمر وجسده السهل
وقدمها جودة قائلا :

— أأنت نرجس . جارتنا .

وأقبل الرجل يبعثها في مودة قائلا بأخامة بأشدة

— أهلا وسهلا .. لقد سبق أن التقينا مرارا . تفصل يا سنى . خير إن شاء
الله .

وردت سيلا تخبته ثم جلست أمامه وحابر على حجره . وقالت في هجة
قلقة .

— مدأس والولد سحر . ويبدو صوته مركوما . ويسعل سعالاً قصير
منقطعاً . وهو ضعيف مثالك .. لا يكاد يقوى على صلب جسده .

وأقبل الطبيب برت الفضل في مودة وهو يقول :

— بسيطة إن شاء الله .

وحمله بين يديه ووضع على فراش المحضر وهو يقول :

— عن معرفة قديمة .. طالما التقينا على السلم

واستلقى جابر في هدوء على الفراش وظهره مبط بعبي أمه وقد أطبق بكفه
على كفه .

ولم يطل محضر الطبيب له حتى تسابل في هدوء :

— هل سبق أن أصيب بالحصبة ؟

وهزت سيدة رأسها بالنفي قائلا :

— لا يا دكتور

— اعتقد أنه محبب .

وبدا الجرح على وجه سيدة فقال الطبيب وهو يطمشها بابتسامة رقيقة .

— لا مفر له من الخيبة فلما أهدأها وريحها ..

ثم نهضت في كتابة بصحة سطور على إحدى الروشبات وهو يسأل مارحاً

— اسم الفرد الصغير ؟

وردت سيدة شاردة الذهن .

— جابر .

— جابر إيه ؟

— جابر عباس البرعي .

وسمها الورقة قائلا :

— لا يخرج من الحجر ولا يأكل سوى الأطعمة التي كتبها في الروشنة في

كل وجبة . وبأخذ الأدوية حسب التعليمات المكتوبة أمامها مفهوم ؟؟

وحملت سيدة جابر على كتفها وهي تقول .

— مفهوم يا دكتور .. متى أحضره لك ثانية ؟

— لا تخضريه .. سأمر عليكم لرؤيته .

— تعجب عليك يا دكتور .

ورد الدكتور صاحبها :

— تعجب على زيارة الجيران .. سأمر لأشرب فنجاناً من القهوة .

— تشرف يا دكتور .

وقبل أن تستدير متجهة إلى باب العرفة مد كفه إليها معلقة وهو يقول :

— حذري يا ست برجس .. في المرة القادمة لا تغفلينها ثانية

وأمسكت سيدة بقود التذكرة التي أعادها إليها الدكتور وتمعن في تأثر

— لماذا يا دكتور ؟

— يا ستي عن جيران .. والتي أوصى على سابع جار .

ونهدت سيدة قائلة :

— متشكراً يا دكتور .. كثر خورك .. ربنا يبارك لك في مسالك وق

عاجيتك .

وعادرت سيدة عيادة الطبيب مساعدة إلى شقتها .

ومرت أمام النرص . ثقيلة مرعجة .. وسيدة تحت أقدام الصغير

رتفعت حرارته أكثر .. وأردت به الضعف .

وحصر الطبيب أكثر من مرة مضطرباً

ونفى أنه في إحدى زياراته . وبدا له كالعريب في الدار .. وشكره الأب

بعد أن أخبره الأم عما أساءه الطبيب من خدمات وما قدمه من حائلاته . وكأنه

لم يعرف من قبل .

وتنأى جابر إلى الشفاء .

وأحصرت به أمه بعض الضيق

وراره أبوه بصع مرات . وكأنه يرور بين خيران .. لم يحمل له هدية

واحدة . وعندما حسب به ذ مرة مسدداً قال له وهو يولييه ظهره متجهاً إلى

باب الحجر

— أمك متحصرة لك

ثم نادى أمه وجرها إلى عرفة قائلا

— تريد نقوداً .

ومضت إليه سيدة في دعوى وتذلل

— تريد نقوداً . متى أنا ؟

— ليس في جيبى مبيع واحد

ولأول مرة حاولت سيدة أن تدحج شكه

بدا طريقه المائل على حاجبه مزينا . وبدت باقة الحماكة وقد علتها طيبة
سوداء من الوساحة . ظهرت من حلالها البطانة بعد أن تأكلت نسيها .
وتأثرت البقع المبرقة على الحماكة وانتمتع البطولون عند الركنين وبدا مفتوحا وقد
سقطت معظم أزراره .

وتهدت سيده وحاولت أن تنال أعصابها وأجابت في هدوء .

— اذهب يا عباس واحل هذه البقلة . وليس الخياط كما كان يعمل
'بوك' .. أو ليس المعربة التي يرتديها عمال المطبعة ابن يسهم . واعمل . كما
يعملون .. اصنع أى شيء . نعم صب الحروف أو ربت الماكينات . أو دوس
الشاش . أو سح العرا .. أو اكس الأرض أو احرس المطبعة . اصنع أى شيء يا
عباس . إذا كنت تريد نقودا .. كمى تطعلا على ملحقات الله . اصنع أى شيء
يعقلك .. أو يبدك إذا أردت أن تدخل النقود جيئك

ونظر عباس إليها في ملل وخسوف وقال خيرا :

— شيئا نصالح يا سيده .. أريد نقودا .

وصعدت سيده على صروسها محاولة أن تكلم عصيا وأمسكت به من ذراع
عمره في صنف :

— اصطحب يا عباس وقول يا صبح اصطحب لأرح عبيد العمارة أنا
سايلك لأنى رميت طولك .. تفسى في حالي .

ورد عباس عليها في تحد :

— سايلك في حالي . يعنى حاتمى ليه ؟

— يا عباس قصر البشر .. وحل الطابق مستور .. اينك مرهسى ولا
تعرف كيف دعت أحر الطيب .. ولا من أين اشترت الدواء . نعد بيتا
مفتوحا لك على البيل . تمام وتأكل . ولا على بالث . لا تعرف . من أين
اشترى الأكل . ولا كيف دفننا أجرة البيت
وهز عباس رأسه في سخرية :

— من النقود التي تحببها تحت البلاطة .

وعادت سيده ترمقه في تحد مكتوب وقالت له وبفس لحنه الساخرة .

— هكذا يا عباس * عسى بقوى عيها تحت البلاطة
ثم تسالمت في كراهية :

— وإلى متى ستظل النقود تحت البلاطة ؟ .. لو أنى أصرف من ثل
لاعتل .. ثم تظننى أجلس على كثر ؟ ..

وهز عباس رأسه كأنه ينلرها :

— مختصر القول .. لن تعطى نقودا ؟

وخلعت سيده فخرته من ذراعها في حق فائلة :

— احصيا سورة يا عباس . ولا تذكر سورة النقود على لسانك . بهكمى أنى
تاركة لك في حالك .. تاكل في قفة محبولة .. دعى في حان أحسن لك
ويكنى الملم الذى أنافه .. فلم يعد يتقصى هلك ..
ورد عليها عباس في مرارة قاتلا :

— هكذا . أنا أصبحت هيا يا سيده * معش . أنا وانت والرمال
طويل .. لك يوم .

وانصرف عباس .

وأوت سيده إلى حيث يرقد الصغير ولم تجد سوى الدموع تخرج بها عن
كربها .

رضيت يا سيده بالمهم .. ولم يرض الملم بك .

لم تكفك مشقة . تدبر حيثك أنت والصغير . حتى أصبح عليك أن
تدبرى النقود ليعاس ليقاسر .. ويلهو ..

هل تدعين إلى المطبعة لتدبريا ؟ ..

ولكن كيف ؟ ..

ومن بأه لك هناك ؟

هل تذهبن إلى أتور ؟

مادا تقولين له .. تطلبن منه نقودا ..

وهيه صحتك بعضها .. فمادا تملين بعد ذلك ؟

هل يمكن أن يجري لك راتباً شهرياً ؟

نظير أى شيء ..

نفقة ؟ !! .. أو معاش ؟ أو حصة ؟

سيكرمك مرة .. وقد يكرمك مرة أخرى .. ولكنه سيصيق بك بعد

ذلك .. وسيهرب منك .. ويترك وجوده .. وقد يتركك .

هل يستطيع أن يدير لك عملاً ؟

ولكن لماذا هو .. بالذات ؟

أية رابطة يمكن أن تربطه بك .. سوى أنك كنت عشيقته .. وهو بعد

جدال .. لا يجب أن يحمي ذكرياته معك ..

ولأنت أنهما تخمين أن تخيب .. من أجل هذا الصعور .. الطبيب .. الحنون

الذى يتمسح عليك .. ويذهب عليك .. ويحتاج إليك .. والذى لم يعد هناك ما

يضىء إلى الحياة سواه .

تذهبن إلى حمدي ؟

مادا تطلبن منه ؟

ماذا يمكن أن يؤدبه لك ؟

يجد لك عملاً .

رعماً استطاع أن يسعدك .

وبعد حداد سندھين إليه وإلى أمه . عندما تضيق أمانك السبل

وتعذر العيش

وتكسب .. تصق بعد

مارال هناك بقايا من نقود . وبفايا من أثاث . ومارال هناك المصاع .

ولكن المصروفات قد ازدادت . والعلاء تصاعف . مع ورود سى الحرب

التي لا تريد أن تنسى .

وعليها أن تلم نفسها . وتصعط مصروفاتها أكثر وأكثر .

لم يعد هناك لزوم لهذه الشقة الطويلة المريضة .. ولا لكل ما بها من أثاث

تستطيع أن توفر بضعة حبيبات من أحر الشقة .. وتستطيع أن تباع معظم هذا

الأثاث فلا يبقى غير ما تحتاج إليه لومها هي والصعور وأم سيد .. أما عباس فعليه

أن يجد لنفسه مكاناً يأوى إليه .

وأقبلت عليهما أم سيد تهديها .. وتطلب خاطرهما قائلة :

— يا ستي . كله بيوت . ما دام جابر قد شفى وقام بالسلامة

وتنهت سيدة قائلة :

— أحشى المستقبل بأم سيد .. لا بد من أن نلم أنفسنا أكثر .

— أنت على حق يا حبيبي . وأنا معك في كل ما تقررين .

وفكرت سيدة برهة ثم قالت .

— هذه الشقة باتت كبيرة عليا

— حقيقة . وقد باتت نظافتها تحتاج إلى جهد .

— يجب أن نبحث عن مكان يلما بنا جبر نقدر عليه .

وتنهت أم سيد وشرذ ذهناً ثم هتفت فجأة .

— يا ستي .. عندي فكرة .

— ما هي يا أم سيد ؟

— توجد شقتان صغيرتان فوق السطح . فصيت إحداهما . التي كان

يشغها أحد الطيلاء الذين اعتصموا خلال الحرب وقد ضلت معلقة . حتى

أحلالها صاحبها بعد أن حرق من الخطل . وقال لي عم إبراهيم الواب إنها

مروضة للإيجار وهي لا تزيد على حمرتين .

— وكم إيجارها ؟

— أسأل عم إبراهيم . وإن كنت أعقد أنها وخيصة .

و لم نحل نهاية الشهر حتى كانت سيدة قد أحلت شقتها . بعد أن تخلصت من معظم ما تملك من أثاث .. فلم يبق إلا ما تحتاج إليه مما يمكن أن تحمله الحجر ثاث الصغير ثاث اللتان أحدهما فوق سطح العمارة .. واستقرت ميماء هي وجابر وأحمد سيد

(٤٠)

قضية خامسة ..

أقبل عباس ليجد سيدة انتقلت إلى السطح .
وعندما حاول أن يناقشها قالت له ببساطة :

— إذا كنت تريد الاحتفاظ بالشقة .. فحل كبسك وادفع إيجارها .. الشقة أمامك خالية .

وبرطم عباس .. ثم غادر الشقة .

وعاب يومين ثم عاد .

عاد ليطلب نقودا .

وفي هذه المرة كان غملا لا تكاد قدماء تقويان على حمله

وعندما ردت عليه سيدة تبره ..

رفع يده وهوى على صدرها بكل ما يملك من قوة صالحي في حل .

— هاتي النقود أحسن لك .. أنا أعرف أن معك نقودا .. أعرف أين تخفين

لصاع

وصرخت سيدة ووردت عليه اللطمة بأقصى منها ..

وتعال بكاء جابر وصراخ لم سيد .

وصعد الجيران .. وحاولوا أن يفضوا الممركة

وأقسمت سيدة أن تطرد عباس .. صارخة فيه :

— لم يعد لك وجود في هذا البيت .. انخرج بره ..

وصاح عباس بنراته المتقطعة من السكر :

— هذا بيتي .. وأنا حريه

— ليس لك في هذا البيت قشة واحدة .

— أنت امرأتى .. وهذا بيتى .. لا يستطيع أحد أن يطردنى منه .

— لست امرأتك . طمئنى .. لا أريد أن أبقي معك ثانية واحدة

وحاول الجيران أن يجروا عباس بعيدا .. ولكنه عود التهم عليها ورفض مقعدا لحطم به زجاج النافذة .

وصرخت سيدة وهي تمسك بعنقه :

— لن أتركه إلا إلى البوليس ..

ورد عليها عباس :

— أنا أستأجر .. الحق على .. لستك من الدوارة .. وجعلتك ست بيت .

— أنا التى آوئك من الشكك والشر .. يا نصاب يا ضلالى .

وصاح أحد الجيران :

— لا داعى يا جماعة .. عيب .. الظفر لا يخرج من اللحم .

وصاح آخر :

— من أجل هذا الولد .. على الأكل ..

وصاحت سيدة :

— متى كان يحس به أو يعرفه ؟ .. من الآن لن يقرب هذا البيت .

ونجح الجيران فى إخراج عباس من الشقة .. وهبط الدرج معهم وهو يصيح وقدماء لا تقربان على حمله .

— سأعرف كيف أزيك يا سيدة . تطردى .. يا رد المواخير يا لامة اللامة .

وهتف به عم إبراهيم الجواب :

— عيب يا مسى عباس .. عيب .. إنها حرمك .. وأم ابنتك .

— لا بد أن أزيها .. سأمشيها على العجين ما تلحظطوش ..

وهذا المكان حول سيدة بعد أن انفضت الحركة وأعدت أم سيد تلم رجاء

النافذة المكسور .

وجلست سيدة تضم جابر إليها وقد بدا عليه الحوف .

وتسأل جابر :

— لماذا يصرخ أبى هكذا .. ولماذا يضربك ؟

وصتت سيدة ولم تعرف بماذا تجيبه .. إن الأمر يحتاج إلى شرح طويل . ولم تملك سوى أن تتنهد قائلة :

— دعنا منه يا جابر .. ربما يضيئنا عنه .

ومد جابر ذراعيه الصخريتين يضمهما إليه وقال ببساطة :

— أنا أحبك .

— وأنا أيضا أحبك .

— واستقر الصغر بين ذراعيها . وكأنها تقبه شرا مجهولا يوشك أن يحرقه .

وكان الوقت في آخر الصيف وبسمات الخريف تهب من النافذة المطلة على صحبة صحيرة على السطح تفصل بين الشقتين وتحد بعدها بقية السطح تبدو من ورائه قسم الدور وأطراف المآد ومن ورائها يبدو جبل المنقطم وكأنه جدر عال يحيط بالقاهرة .

ومن الساحة الأخرى بدا سور الشرفة مطلا على الجباب الآخر من القاهرة . التبل .. ومن ورائه المزارع الخضراء .

وأعدت الشمس قبيل غو المنهب ..

وأحست سيدة بطارق يتسلل إلى الشقة المقابلة . ودفع المنقح في الباب .

وأدتره دورتى ثم فتح الباب وتسلل إلى الداخل .

وبعد برهة أبصرت شيخ امرأة يتسلل نحو الباب ويدق الجرس ثم يدلف إلى الداخل في هدوء .

وكانت سيدة تشعر أن الشقة المقابلة بلا سكان .. سوى هؤلاء الدمس

يتسدفون إليها متتابعين جمعة في ساعات مختلفة من الليل أو النهار ويعلق إليها عليهم وتبدو الشقة من مرط تكتمها على من فيها وكأنها حاوية .

وتذكرت أياما ها في أمثال هذه الشقق .

تقبل غلبة وتدخل جلسة .. وتقوم بمهمة ثم تقبض الشمس وتخرج .

كانت وقدك صاحبة مهنة .. مهمها كانت دليلا .. فقد كانت تبحث بها عن السيادة والحرية . كانت تريد أن تمتلك ذاتها الميعة .. وتستعيد كرامتها المبهضة بعد أن تنحدر من المهنة وتصبح ذات مال . يحسها الحرية . ويبقى لها السيادة .

كلام فارغ يا سيادة .

لا سيادة .. ولا حرية .. في هذه الحياة .

بعد أن تحررت من ملذلة الجسد .. بت عبدة المشاعر ..

أنت الآن عبدة مشاعرك هذا الصغر .. كسكش في أحضانك . أنت عن استعداد لأن تبقي حريتك وتتحل عن سيادته من أجله

بل حتى كرامتك وشرطك .. لو كان في يومها إرضاء له لعلك . ولكن للأسف .. باتت كرامتك من كرامته . شرطك من شرطه . ونجم عليك أن نجعلها من أجله .. وأن توفى التعامل بها من أجل هذا الصغر .. الذي قد لا يدرى الآن عنها شيئا .

وشتان يا سيادة بين جلستك في مثل تلك الشقة الصامتة . وبين جلستك الآن ..

فرق كبير في كل شيء .. إلا في شيء واحد .

هو أنه .. كما قالت لك توحيد في أول لقاء لكما . كله هم .

ومع ذلك يبدو أن هم الأمل أقل من هم اليوم .. فكل يوم يحمل معه حينا جديدا .. وما يعرنا يحمل هم عا .. هو في ذاته هم جديد .. ونحس وحدنا نخرج من الوحدة .. ومع الناس يصيق بالضجيج والرحام ..

كنت بالأمس تحملين همك وحدك .. ومهما تقل عليك كنت قادرة على حمله . ولكنك اليوم تحملين هم هذا الصغر العريض . وتشعرين أنك توثين به . كنت مع نفسك أشجع في مواجهة القدر . ولكنك مع هذا الصغر تحسرين بالحس . كان لك بالأمس مقتل .. فأصبح لك اليوم مقتلان . ومقتلك في هذا الصغر مرط الحساسية .. تحسني من عحرك عن حمايته وأنت حية وتفرعين إن مت ألا يجد من يحميه .

وأقبل الليل . وهدأت حركة الطريق . وتضايقت الأصوات المبهجة من أسفل وأخذت أم سيد الصغر تطعمه .. وتوسده الفراش وقالت سيدة لها معلنة :

— أعلقت باب السكة جيدا يا أم سيد . فليست أستبعد أن يعود عباس ليتحتم عليها الشقة مرة أخرى ..

ثم تمنمت بصوت خافت :

— وعليها أن تخرج عن علي جابر .. فليست أستبعد منه شيئا ..

وبعد فترة أقبلت أم سيد تحمل إليها صبيبة عليها قطعة جبن وطق به ريتون وقالت لسيدة :

— كل لقمة ..

— ليس لي عس يا أم سيد

— لن تنامي دون عشاء .. كل قدر نفسك .

وحلست أم سيد تتناول العشاء مع سيده . وازدردت سيده لقمة وأحدثت لوكها ثم زهرت قائلا .

— لم يعد لنا عيش معه ..

— يمكن ربما ينجيه .. قادر وكريم .. وهو بعد كل هذا أبو جابر .

— لا فائدة يا أم سيد . أنا أعرفه منذ سنين طويلة . كنت حقا عندما خدعت فيه .

وتحدثت سيدة ثم أردت قائلة :

— غلطة .. كلمتني شقا العمر وجهه ..

— لا تدمي .. يا ابنتي على شيء .. كل الذي يعطيه لنا الله مقبول ومحمود

لا تنسي أنك أنجيت من جابر .. ألا يساوي جابر في نظرك شيئا ؟

— يساوي كل شيء ..

— إدد احتمليه من أجله ..

— لا يا أم سيد .. من أجله يجب أن أتركه .. إنه لم يترك لنا شيئا .. وسيط

يسترف منا كل ما يمكننا الحصول عليه .. والأهم المقبلة قاسية .. وتربية جابر

تكون بالسهل ..

— يا ستي ليصد عنه ويتركه في حالة ..

— ولكنه لا يريد أن يتركنا في حالنا .. سيأتي كل يوم ليطلب نقودا وأنا

أجلس على كثر .. إن علي أن أدبر عملا أعمله ..

— تميلين ماذا ؟

— أي شيء .. حتى خادمة .. لا بد من العمل يا أم سيد .. وأنا قادر

عليه .. طول عمري أعمل خادمة .. وأستطيع أن أشتغل في أي شيء .. في

تجاري .. داه .. أي شيء .. والسنة القادمة سيدهب جابر إلى المدرسة

وسيحذف عبءنا .. طوال اليوم ..

— وصمتت سيدة برهة ثم واصلت الحديث قائلة :

— كل شيء يمكن تديره .. ولكن المهم هو كيف نخلص من هذه المصيبة التي

مهددتنا كل يوم .. كيف تنقني شر عباس ؟

— وقالت أم سيد في بساطة :

— افترقا .. ربنا قال .. فو سرخوهن بمعروجه ..

— عباس لا يعرف ربنا .. لقد طلبت منه الطلاق اليوم فأبى ..

— وما العمل ؟

— سأذهب إلى حمام .. وأرفع قضية طلاق ..

— هديه أولا .. فقد يجدي معه التهديد ..

وفي اليوم التالي أقبل عباس .. ولم يكن غملا هذه المرة .. أقبل في الظهيرة

وطرق الباب ..

وحضت أم سيد الشراعة وعندما أبصرته بدا عليها الخزع وحتفت لسيدة

قائلة

— سيدى عباس ..

ووثبتت سيدة من مقعدتها محفرة وأقبلت على الباب متسائلة من وراء

الشراعة :

— ماذا تريد ؟

— وسأعل عباس في دهشة :

— ماذا تريد ؟

— لم هز رأسه ونجم :

— كأنا على أن أريد شيئا لكي أدخل إلى البيت ..

— هذا لم يعد بينك ..

— وجلسه رد عباس :

— لم يعد بيتي !!؟ مد متى ؟

— منذ اليوم ..

— وأنت ؟

— لم أعد روجحك

— وجابر ؟

— لم يعد ابنك ..

— ولكنكما روجي وابني بحكم الشرع .. وفي عليك أمر الطاعة بحكم

القانون

— سأطلب الطلاق

— لن أطلقك .

— سأرفع قضية نفقة .

— وسأطلبك بيت الطاعة

— بن مباحكون في بالطلاق لأنك عاجز عن الصرف على وعلى ابنتك .

وأخذ صوغها بعد وهي تصيح به :

— ولأنك مصاب سرقت مالي .

ولم يفر عباس بل رد عليها في هدوء :

— اغفل يا سيدة . ولا تتركيني هكذا تقسم الباب .. عامليني على الأقل

كصيف .. سأشرب فحاح فهوة وأنصرف . ليس في هذا الحق بحكم العشرة

القديمية ؟

وتهدت سيدة ثم قالت لأُم سيد :

— انصحي يا أُم سيد .. لنرى آخره كل هذا .

ودخل عباس يحمل في يده لفافة وتسليق لثلاث :

— أين جابر ؟

وقالت أُم سيد :

— ذهب عبد الجارة التي تقطن تحتنا .

— ناديه حتى أعطيه هذه الخلوى .

وردت سيدة ببرود :

— وفرها على نفسك .. الذي يفرقه العويل بسفه .

وتجاهل عباس ردها وعاد ليقرئ لأُم سيد :

— ناديه يا أُم سيد .. لقد قوحشى .

— مد متى ؟

— إنه أبى .

— الحمد لله أنك اكتشفت أحمرا أن لك ابنا .

وهبطت أُم سيدى تنادى جابر .

وجلس عباس على أحد المقاعد وقال لسيدة .

— اجلسي يا سيدة ودعينا نتناغم .

— على ماذا ؟

— أهيئيك ما حدث بالأمس ؟

— كنت السبب في كل ما حدث .

— لماذا ؟

— لعلك سميت .

— كنت أحتاج إلى نقود .. أهذه جريمة ؟

— أنت تعرف أنه لم يمد معي نقود .

— كيف تعيشين إذن ؟

— كان يجب أن نخجل من سؤالك .. لأنه كان يجب أن توفر لنا النفود التي

نحتاج إليها .

— أنا في أزمة .

— منذ متى لم تكن في أزمة ؟

— هل تكررين أنا عندما تزوجنا وهيت بكل حاجاتك ؟

— ثم لففت بعد ذلك كل ما كان معي .

— احتجت إلى بعض مالك . وأنت روجحي .. ماذا في ذلك ؟

— اسمع يا عباس . لقد عندما وردنا في هذا الحديث ولا داعي بسف

والعوران . قصير الحديث ماذا تريد ؟

— أهرع أن أحتاج إلى مبلغ منك . لسد مظن ضروري ؟

— ملئت من هذا الطلب .. ولن أعطيك مقيما واحدا .

— وعن أطلب إننا لم يكن من أقرب الناس إليّ ؟

— اعمل .

— أعطى .. وسأعذك بأن أعمل ..

— اذهب واصل .. وستحصل على ما تريد .

— أعطى إياه كقرص .

وردت سيدة في حرم وإصرار

— لن أعطيك ملها واحدا . وفلت لك بالأمس إنه من أغبر أن يعترق .

— كيف ؟

— طلقى .

— وإذا لم أطلقك ؟

— غير لك أن تطلقى .. لأنك لا تستطيع أن تكون مسؤولا عن أسرة .

وأقبلت أم سيد وفي يدها جابر .. واتجه الصغير إلى أمه وقد بدا عليه الخوف

من أبيه .

ومد عباس يده يجذبه إليه ولكنه شد ذراعه منه وصاح باكيا .

— ماما .

ونظر عباس إلى سيدة قائلا :

— علمته كيف يمشي !

— لم أعلمه شيئا .. أنت الذى علمته كيف يكرهك

ومد عباس يده بالعامة إلى جابر قائلا :

— بعد يا جابر .. هذه شيكو لآنة من الهى تحبها .

وعزف جابر عنها ورفض أن يمد يده لأخوها .

وطرق عباس المنصدة بأصابعه ثم بصق قائلا .

— فكرى يا سيدة . واعقل . لا داعى لإثارة الخصومة بسا .

وردت سيدة قاتلة بغضب ما تملك من هدوء واتزان

— حياتنا أصبحت مستحيلة يا عباس . أنت تريد نقودا .. وأتينا لا

أملكها .. فآثر كنا فى حالنا ودعى أرنى الولد .. واتق الله هيا ..

ولكن عباس لم يتركهم فى حلقم .. ولم يتق الله فيهم .

انصرف عنهم يوما .. وألقى بضعة أهام . كيما كان .. ثم عادت

حاجته إلى النقود تلح عليه ثانية . ولم يجد أمامه إلا باب سيدة بطرقه

وهذه المرة كان مملا ..

لم تفتح أم سيد ..

صاح بها :

— افتحي يا مرة .

وصرخت فيه سيدة :

— اذهب .. وانصرف .

وصاح عباس :

— افتحي وإلا دششته على رأسك .

وصرب رجاج الباب بكت يده فتحطم الزجاج وأدمى يده ..

وصرخت سيدة ودفع الباب بكفه وساقه فافتتح أمامه . وهجم على سيدة

بصرها بقسوة . وهجمت عليه فأشيت أطرافها فى وجهه .

وتعالى الصراخ وتكأ الناس على الزوج ..

ودهبوا إلى قسم البوليس . وشهد الشهود بإصرار عباس على التهجم عليها

ومحاولة اجتار النقود منها .

وحررت له مذكرة بذلك وبه عيبه الصابط بعدم معاودة التهجم على سيدة

مره أخرى

وصرخ عباس :

— هذا بينى يا عباس .. هذه الزلية زوجتى بحكم الشرع .. والولد ابنى بحكم

القانون .

وخرج عباس من القسم بعد أن بطوا له يده وصمدوا جراحه وصحوه بأن

يكف عن السكر وأن يعقل . وألا يعود إلى مثل هذه التصالح .

وفي اليوم التالي ذهبت سيدة إلى حمام شرعى . دلنا عليه إحدى الخباريات ورفعت قضية طلاق .

وبدأت مرحلة القضاء

وتعددت الجلسات .. والقضية تؤجل مرة بعد مرة .

وم يكف عباس خلال هذه الفترة عن التوجه على البيت واستمرى مطالب سيدة بالقعود .. والتهديد بخطف جابر

وأخيرا بحكم القضاء برعص الطلاق . ونسرت سيدة القضية .

لم يصعب على عباس إثبات ماضي سيدة . وكيف اشتغلها من حياة العصور وهيا لها المأوى ومنحها حياة شريفة .. وأنجب منها ابنا وكيف طُلبت الخلافة عندما ضاق به الحال

والتقى عباس بسيدة بعد النطق بالحكم فقال ساخرا :

— سأقى اللهة يا سيدة .. أهدى إلى الحمام .. وجهزى العشاء . لن أتأخر عليك ..

وأحسبت سيدة بالدنيا تظلم في وجهها .

كرهت الحياة وعاشت بها . غير معقول أن تستمر أهامها على هذا الموان إن ما تملكه قد استنفذ فعلا .. وبات عليها أن تباع قطع المصاع واحدة بعد أخرى . وهي تستطيع أن تعمل لتعول نفسها وابنا . أما أن تعمل لتصرف على عباس .. وعلى مبالغه ونزواته .. فهذا يحتاج إلى أظيان أو عمارة . لو .. يحتاج إلى أن تعود لتعمل .. بمسندة . وتقللها اليأس .

لماذا لا يسهل لك القدر حياتك الشريفة ؟ .

أحتم عليك أن تعودى مرة أخرى . إلى اللهة المذلة .. أحتم عليك أن تعرضى جسدك للبيع . بعد أن أصبح مستهلكا .. وذهب عنه إيمانه وجوت هتته ؟

حرام . والله حرام .

ماذا تفعل ؟ تنظر هذا الدل حتى يأق إليها لكي تعدنه الحسام والعشاء . وتحمه جسدها ثم تحمه بعد ذلك . رزق ابنا ؟ .

أفما معقول ؟

من تعمل . لا بحكم القضاء .. ولا بحكم الشرع .

هذا القانون الذى يلزمها بذلك قانون أحمق .

هذا القانون مستبد . يحرم الإنسان من أسط مظاهر الحرية حرية الشركة في الحياة .

ليكن عباس . من كان في نظر القاضي الكيس العاقل المحترم

ولنكن هي من كانت .

ولكنها لا تستطيع أن تعاشره .. إنها ترعص شركه

ألا تملك حرية الاتصال عنه ؟

وهو .. مجرد كلمة يطق بها .. يملك الخلاص بها . يملك القدر بها في الطريق .. مهما كانت حاجتها إليه .

هذا هو قانون الرجل يا سيدة .. هو واضعه وهو المستفيد به ومع ذلك فأيا كان الحكم . وأيا كانت القوة المبدعة له ..

مهي لن نخضع له ..

إنها أدري من القاضي عاليا ..

استمع القاضي إلى الشهادات . وقرأ المذكرات . وأصدر حكمه ولكنه .. لم يأت ليحش معها .. لوى .. أى مخلوق . قد حكم لها بأن

تعاشره . بأن تعد له العشاء . وتسبح الحمام .. وترقد بحوله

وأقبلت سيدة على البيت .. متحمة شاردة

وسألتها أم سيد

— خير يا ست ؟

وودعت سيدة أم سيد وأخذت عوانها عند ابنتها وأعطتها عوان روض
المرح .. ثم بادت إحدى عربات الأجرة ووصفت الحقيبة بجوار السائق وحملت
جابر واستقرت في داخلها وقالت للسائق :

— روض المرح يا أسطى :

وقبل الحرب أبصرت كوثر وهي تطل من الشرفة في بيت حمدي في روض
المرح عربة تغف بالباب ثم تنزل منها سيدة ومعهما طفل . ويدها حفية .
وتسألت كوثر في مزيج من الفرح والذهشة :

— سيدة .. ماذا أحضرك ؟

ودخلت سيدة الشقة تحمل حقيبتها في يدها ونحو حابر في اليد الأخرى
وأثقلت عليها الست فاطمة تسألها في دهشة :

— سيدة .. عور يا سيدة .. ماذا بك ؟

وقبل أن تطلق سيدة بالإجابة انهمر الدمع من عينيها وانضغت في موبة من
البكاء .

وأجلستها الست فاطمة وأعدت كوثر تربت ظهرها وهي تحاول تهدئتها.
وقالت الست فاطمة بعد أن تركت ترغ ما في مقلتها من دموع وما في نفسها من
الاضغاث :

— اهدئي يا سيدة .. اهدئي ..

ونادت الخادمة الصغيرة قائلة :

— كوب ماء يا بنت .

ثم قالت لسيدة

— اشربي يا سيدة وهدئي نفسك .. واحكي لي ماذا حدث .

وأخذت سيدة شهقة طويلة ثم أحطتها برمة حدة وأجاسات في صوت
متقطع :

— لم أكن أود أن آتي لأضايقكم .. أنا أعرف أنه لا تنقصكم همومي ..

— لم بعد هناك في الدنيا عور يا أم سيد .. عسرت القصة .. ورفض القاضي
العلاق .

— وماذا ستفعلين ؟

— سأعذ جابر .. وأترك الشقة وأختفي .

— أين ؟

— في أي داهية .

— هدي نفسك يا ستي .. وفكري جيذا .

— ليس هناك وقت للتفكير . سأترك الشقة هورا وأخذ جابر ممي .

— تركه عويم على وجهك في الطرقات ؟

— سأذهب إلى الست فاطمة .

— هل ستقبلك الست فاطمة ؟

— سأبقى عندها حتى تطردني

— وماذا أفعل أنا ؟

— بقي في الشقة .

— أهذا معقول ؟ أبقى حتى يتجهم علي . أو يأتني ويستقر ممي في

الشقة .. سأعلقها وأذهب إلى ابنتي في ميت عفة .. أبقى عندها حتى يبرجها
ربنا .

وم تمص ساعة حتى كانت سيدة قد حرمت ملابسها وملابس جابر في حفيظة
وأعنت الشقة بالمفتاح والتفعل وعادرت المنزل هي وأم سيد قائلة للبوابة :

— إذا سألت علي أحد يا عم إبراهيم فقل له إلى سافرت .

ومدت له يدها بورقة نقدية قائلة

— خذ هذه يا عم إبراهيم . وحد بالك من الشقة جيذا . احذر أن يأتني سي

عاس في غيائي ويكسرهما . قل له إن تركت الشقة وأن سكنا آخرين قدم
سكنوها

ونكى ليس لي أحد سواكم صاقت في الدنيا كلها . فلم أجد غيركم ..
فحملوني يا ست فاطمة .

وسألنا فاطمة في دهشة :

— ماذا تقولين هــ يا سيدة هذا بيتك . ونحس أنهك .. إذا لم تحملك
عن .. فمن يحملك ؟

ونظرت سيدة إلى ابها وعادت الدموع تهيم من عينيها .

— ولم يكف أن أصابكمكم بنحس .. فأتيت بابي . ولكن ليس له غيري يا
ست فاطمة .

وأجبت فاطمة بالدمع بطمر إلى عينيها وقالت .

— عيب يا سيدة تقولين هذا . ابك ابنا يا سيدة .. اهدئي . وفومي .

المسل وجهك .. واسترعي .

وأصكت كوثر بنجار تصم إليها فائلة :

— اسمك إليه يا حبيبي ؟

مدامى جابر .. جابر عباس البرهي .

وقامت سيدة إلى الحمام فسلت وجهها . ثم عادت لتستقر على الأرض أمام
الست فاطمة .. وحاولت كوثر أن ترعها إلى الكرسي ولكنها أصرت على أن
تبقى على الحليمة فائلة :

— اتركني على راحتى يا ست كوثر .

وقصت سيدة على الست فاطمة قصة رواجها بعباس وقصت باختصار ما
سقط من أحداث في حياتها وفي الهامة احتضت حديثها فائلة .

— كل ما أريده هو أن أبقى في حالي . وأعمل لأرضي ابني .

وتحتمت الست فاطمة وهي تنتهد في أنسى :

— ابني يا سيدة عندما كآ شئت .. وربا يوفقك ويمثرك . ويفتحها في

وجهك .. اعترى بيتنا بيتك ..

.. لقد كنت دائما واحدة منا ..

(٤٩)

بالبوليس ..

مرت بضعة أيام بسيدة في بيت حمدي .. وهي تحاول جهدها أن تقوم بعمل
مدمع وألا تنفل على أحد .. ومع ذلك كانت دائمة الإحساس بالقلق .. فهي تعلم
أن وجودها لا يمكن أن يكون إلا وصفا مؤثما حتى تستقر على حال . وأن عليها أن
تدير أمورها بطريقة تصح لها حياة منتظمة مستقرة تبين لها تربية ابها ورعايته .
وكانت تتجنب نظرات حمدي .. ونحس دائما أنها تود الفرار من وجهه
فهي لا تنسى آخر لقاء لها به .. متى وأين وكيف ..

وكان حمدي يلقاها ويحدثها وكأنه لم يلقها من قبل في بيت دعارة .. مشوي
تترخ ..

عجيب هذا المخلوق . لا يدري الإنسان ما في باطنه العميق .

هل مى ؟

غير مقبول !!

ومع ذلك يبدو وكأنها لم تترك دارهم مد أن كانت شذاعة لديهم يعامها
بساطة . ورفق . ويربت ابها برقة .. ويحسه من أن الآخر قرشا يتناح به
حلاوى ..

وكانت الأم تترقب بها وتحذر أن يسىء إليها أحد . وتعامها بحساسية الدموع
التي درعتها عندما عبرت باب الشقة واعتذرت عن عجبها إليهم .

ومع ذلك كانت سيدة تحشاها . ونحس أنها تعرف عبا أكثر مما يندى .
وأنها تترقب بها . لأن هذا هو خلقها ولأنها تشمر أن يرواها واجب عينا
الوحدة التي كانت تأس إليها بعور قلق . هي كوثر .

كانت قد استقرت في بيت حائلا خلال الصيف لسعر أمها إلى قنا عد أختها الكبرى .

وكانت كوثر تقبل عليها في صداقة خالصة .. وتستمع لها وتشكو إليها . اشتكت إليها من أن الست طامحة أصبحت عصبية بعد أن أصبحت بالسكر . وأنها دائمة البكاء .

واشتكت إليها من أن حمدي يعمل كثيرا وأن حياته كلها ليس بها غير المجلة والمطبعة والسياسة والأحزاب والودع والسرار والإغليل .

وأحست سيده أن شعورا ما يختبئ وراء شكوى كوثر من حمدي شعورا يجد له صدى في نفسها .

شعورا يشابه ذلك الشعور الصائم المنطوي .. الذي تراكمت عليه ثمرته المغموم والمتأهب ومشاكل الحياة ..

أحست سيده أن ثمة عظمة من الشعور يشد قلب كليهما .. إلى مخلوق واحد ..

وبدأت أحداث المساء المشتركة بين الاثنين في جلسات الشرقة التي كان يستذكر بها حمدي ورفاقه دروسهم . وأهل البيت ينام . والشارع قد هدأ رحامه وسكن صحبه .. إلا من تلاميذ الخي يسرون كما كان يسر حمدي وأصحابه .. ووسطهم صاحب صوت جميل يطربهم .. أو يتبادلون الكناز أو المناقشات السياسية . وصوت بائع الجوزية يندو وكان الرماد لا يروح عليه ولا يخبى .. يعلو مشدداً لندبة يا حال الجوزية يا حال الملس .

وكوثر نرسم من بين آونة وأخرى إلى آخر الشارع تتبع بعضها عطف إسدان مقبل وتقول في ضيق :

— ليس .. دائما يتأخر .

وتقول سيده مهددة .

— لا بد أن العمل أشقره .

وفي ضيق تصمم كوثر :

— دائما العمل .. ليس لديه اهتمام بغيره .

— ومادا لديه سواه يا كوثر ؟

— لديه أهله .. لديه أمه .. إنه لا يعيش في فندق يا ممل وبهام .

— ولكنه يقضى بعض الوقت معنا وهو لطيف رقيق

— بعض الوقت !!! يحدنا عن البروفات . وعن المطبعة التي توقفت .

وعن الحمار الذي أغر الأكلشيات .

وضحك سيده وقالت :

— وليم تريدني أن يتحدث .. في الثقيلة ؟

ورغبت كوثر رأسها وردت غاضبة :

— سأأنا عن أحوالنا .. وعن مطالبنا .

— ألا يعطيكم تقودا ؟

— يعطى خالتي أكثر مما يحتاج .. ولكن النقود ليست كل شيء .

وأطردت سيده لتفكر ..

النقود ليست كل شيء !!!

لا يا كوثر .. في النهاية تصصح هي كل شيء ...

مها يبيع رضا الناس منك .. وتقوهم لك .

كل شيء يا كوثر يمكن أن يبيع من النقود .. وهرجم إلى نقود ..

في ساعات السجل والشع . والاستماء . تقول إن المادة ليست كل شيء .

ولكن عندما ترتطم بالترامات في الحياة .. نحو أنفسنا أو نحو الغير نجد أن لا شيء يؤدينا .. سوى المادة .

أنت كريم لأنك قادر . ورحيم لأن لديك من المادة ما تريل به أسباب العذب

عن سواك .

ألفاظ احسان لا تكفى . يجب أن يصحبها القدرة على تقديم الدواء
لاحية . بقى يز ..

والذى يقول لك لا تقبى ولا تدمى . إسك شعاع ولكن الخائف ..
لا يهيم تلاقه أو لا تلاقه .. المهم أن تنفذه .

الحرمان من المشاعر .. يهذبنا .. ويؤرقنا
ولكن الحرمان من الطعام .. يقتلنا .

إن يلقى يا صغرى مثل ما يلقىك ..

كان مثير فيما مضى . لأنه كان يرور حاداً وسط حاجات الحياة المسطحة ..
ولكنه اليوم يتساقط ويهصر . لأن مشاكل الحياة أصبحت أكثر حدة .

عندما يكون لك ابن .. قد يمرض فلا تجد له الدواء .

لن تفوق أبدان القود ليست كل شيء . ومع ذلك ما كثر عن لاعبت أن
تمرص على العير أسلوباً في التفكير الذى تعرضه عينا ظروف حياتها .

ما دمت ترى أن القود ليست كل شيء . فميكس لك ما ترهبه .

وقالت سيدة

— غدا سيعرج من كل هذه الرحمة . وسيجلس معك . ويسألك عن كل
شيء .

وينوح شيخ حمدي مقلداً في الظلمة ههيم كثر قائلة .

— لقد أتى .. سأأخذ له المشاء ..

وهكذا كانت تمر الأيام والليالي بسيدة واقفوق يردادها يوماً بعد يوم .

وفي ذات صباح . عرمت سيدة عن أن تفعل شيئاً ما .. تخرج لتعطي على
شفها . وتسأل مداً يصل عياف . ثم تحاول بعد ذلك أن تبحث عن عمل .

وارتدت ملابسها . وفعل أن تهم بالخروج . وقصت عربة بوكس للبوليس
بالدباب وصمعت سيدة ساقها يقول : ' . ' .

— أجل .. هو عيس الرقم .

وقصت سيدة في الشرفة وقد أحست بقلق من وقوف العربية . ورأت
عسكري يهبط منها ويسأل محمود البقال الذى يقف أمام حاووته في البيت

المقابل .

— اسمع وحياة والدك ..

وأطل محمود متسائلاً :

— نعم ؟

— هل يوجد هنا في هذا البيت واحدة باسم سيدة جابر . الشهيرة
برجس ؟

وقال محمود ببساطة :

— يوجد هنا واحدة اسمها سيدة فقط . ولا أعرف لها اسماً سوى سيدة

وأليل الجندي هل باب الشقة .

وخرجت إليه سيدة متسائلة .

— نعم يا شلويش .

— هل لديكم أحد باسم سيدة جابر الشهيرة برجس ؟

ونظرت إليه سيدة وقلبا تتزايد دقاته وقد اردادها الجرع .. ولكنها لم تجد
هناك قائلة من الخرب والإكثار فقالت بالاحصار :

— أنا سيدة .

وعاد العسكري يتسائل .

— حصرتك الست سيدة ؟

— أجل .

— الشهيرة برجس ؟

وصافقها إصرار العبي على اسم الشهيرة وقالت له في حدة :

— قلت لك أنا .

ولم يأتبه العسكري لدهجتها الحادة وعاد يتسائل في هجته المنحمة

— زوجة المدعو عباس البرعى ؟

— أجل يا شاويش .. أنا .. والله الطمخ أنا .

— صبرك بالله يا سيدة ..

— ماذا تريد ؟

— نمصلي معا

— إلى أين ؟

— معا أمر من المحكمة واجب الفاذ .

— أمر بمادا ؟

— بأعذك إلى بيت الطاعة

وكانت كوتر قد أبلت على صوت المناقشة فأطلت برأسها من وراء سيدة
وسألت العسكري :

— هه إليه يا شاويش ؟

— نريد المدعوة سيدة جابر الشهيرة برجس .. روعة المدعو عباس

البرعى .. مطلوبة لبيت الطاعة ..

وتسألت كوتر في دهشة وهي لا تفهم المطلوب ..

— بيت من ؟

— بيت الطاعة .

وكانت الست فاطمة قد أبلت هي الأخرى فالتفتت إليها كوتر وهي تقول في
دهشة :

— الشاويش يقول .. إن سيدة مطلوبة في بيت الطاعة

وتهدت فاطمة وقالت في استسلام :

— استصبر زوجك عليك حكما بأنك ناشز .. وأعد حكما عليك

بالذهاب إلى بيت الطاعة .

وتسألت كوتر في دهشة :

— هل تعنى أنهم سيصحبونها إلى زوجها بالبوليس ؟

— أجل .

— وستبقى في بيته بالبوليس ؟

— أجل .

— وإذا هربت ؟ ..

— يعيدها البوليس .

— معنى هذا أنها عملية أسر ؟

ونظرت كوتر إلى الشاويش وتسلطت في دهشة :

— هل حقيقة متسجنونها في بيت زوجها ؟

وهز العسكري رأسه وقال بغير تفكير :

— أمر المحكمة .

— أن تسجن في زوجية في بيت الزوجية ؟

وبدا العسكري يضحك بالمناقشة فقال :

— خلصوا بقى .. سجن والأمر .. هذا حكم محكمة .. فوق يا حرمة

أماننا .. ليس ههنا وقت تنظيمه في سين وجيم .

« سألت كوتر سيدة »

— هل متدهين حقيقة ؟ .. هذا غير معقول .

وقالت الست فاطمة في حزم .

— ادخل يا كوتر .. لا معر من أن تذهب سيدة

وصدق العسكري على قولها .

— أمر المحكمة واجب البعاد .. حكم بأن تعود سيدة جابر الشهيرة

وقاطعته سيدة في صيق قاتلة

— ابينا سأذهب معك .

واستمر العسكري يقرأ دون أن يعاب بمقاطعتها :

— الشهيرة برحس إلى انسكن الشرعى بشارع السد البراق رفاق البرعى .

وهت سيدة ورددت في دهول .

— أين ؟

— رفاق البرعى شارع السد البراق

وأطلقت سيدة زفرة حارة وتحتمت في حقد .

— رفاق البرعى . معلش يا عاس .. أنا وانت والزمان طويل

واستفترت متجهة إلى الداخل وهي تقول :

— عن إدمك يا شاوليش .. سأعود بعد لحظة .

وانتهجت إلى الممر المؤدى إلى الحمام حيث وصعت حقبتها .. ولت فيها بقية

ملابسها وملابس جابر وبدت جابر الذى وقف في الشرفة يشاهد عربة البوليس

والصبية الذين تجمعوا حولها وهم يسألون السائق .

— في ليه يا شاوليش ؟

وصاح السائق بهم .

— ابعدي يا واد منك له ..

ووقفت سيدة وبجوارها جابر يرفع يدها إليها متسائلة .

— إحنا خارجين ؟

— أجل .

— بلى أين ؟

وم نجه سيدة بل مدت يدها إلى الست فاطمة مودعة وقد اعروقت عيناها

بالدموع وشدت فاطمة على يدها قائلة .

— مع السلامة يا سيدة . رها يده . ويوقظكم . ساميه يا سيدة ولا

تشدى معه .. الرجال كالأطفال يحتاجون إلى مساهمة ..

وهزت سيدة رأسها وهي تنتم :

— لا عائلة يا سيدى هذا ليس كتيبة الرجال

— ربنا يساعذك .. هل تريدن شيئا من الأمانة ؟

— ليس الآن .. عندما أحتاج إلى شيء سأحضر لك

— ألا تحتاجين إلى نقود ؟

— كبر خيرك يا سنى .. لست أعرف كيف أفي بمطالبك .

— لا تقول هذا يا سيدة .. أنت في مقام ابنتي صبيحة ..

— ربنا يخليكي يا سنى .. وبمشرك ويدي شرك .. ربنا يهرك

أولادك .. ولا يورك عييم سوء أبدا ..

ومدت سيدة يدها إلى كوثر التي بدا التأثر على وجهها وهرت رأسها وهي

تشد على يده سيدة في أسى وحزن .

— تلهين إلى بيت روجك بالبوليس يا سيدة ؟ .. في زمن ندرس في المدارس

حقوق المرأة ومساواتها بالرجل . هذا مجتمع عجيب يا سيدة .. قد بت بعض

هذا الزواج .. الذي قد يشدني إلى روجي فأت يومًا بالبوليس .

وهزت سيدة زفرة حارة

— ليس كل الزواج باست كوثر .. الزواج توفيق بين فبين .. وشركة بين

رهيق . الزواج نعمة للذين يوقظهم الله . ولكن بعض الناس كما يقول

أضل يبدون العصم في الكرشة .. بعض الناس يتحول الذهب في يدهم إلى

زراب .. ويتقصون الزهر .. يهضمي بين أصابعهم شوكا .. وفك الله سوء

البخت يا سنى كوثر .. وحقق الله كل أمانيك ..

وهبطت سيدة درجات القاء إلى الباب الخارجى وكوثر وراها وقبل أن تعبر

أبواب التفت إليها هائسة :

— لا تنظلى سي حمدي .. لا تلوميه لأنه يعمل . لأنني حربت الرجل الذي

لا يعمل وفك الله شره . وتقى به . إنه يهلك . وبميرك عن بقية

غلوقات . أنا أعرف سي حمدي حيناً .. إنه يخال كل الناس . ولا يخلد

أحنا . ولكن معك أنت يفعل أكثر من هذا .. يفعل شيئا أكثر من المجاملة وعدم الخدلان . إنه يماندك كقطعة من . وإنك تستحقين كل الأشياء الطيبة التي في هذه الحياة .. وعلى رأسها حمدي . وفقك الله . وحبكما سوء حظي ليس هالك شر من سوء الحظ في هذه الدنيا .

و لم تستطع كوتر أن تجمع عيرت تفرق في عيبها وعادت نشد على يد سيدة قاتلة .

— شدي حيلك يا سيدة .. ربما معاك .

و خرجت وتناول العسكرية الحفوية منها ثم قدف بها داخل الثوكس وساعدتها على الصعود ثم رفع إليها جابر وصعد وراه قاتلا لنسائي :

— اطلع يا عهد الحميد .. ع السيدة .

وجلست سيدة ثقب الضيق من فتحة البوكس الخفية . ووصلت المرأة إلى شارع روصي ثم لعت إليها حتى وصلت إلى شارع شيرا . تشق طريقها وسط الترام والعمارات المتراصة . حتى وصلت إلى محطة وطلت تشق طريقها من المحطة إلى عابدين إلى السيدة ثم انحدرت في شارع الحبيب حتى أوب مسكة المدبح ثم استدارت في أول شارع السد البراني وتوقفت أمام رفاق البرعي .

وصاح السائق :

— انزلوا .. لا أستطيع دخول الرفاق بالعمرة .

وهبط العسكري ثم تلقف جابر من سيدة . وتناول الحفوية ووضعها على الأرض .. وساعد سيدة على النزول ..

وحملت سيدة الحفوية في يدها وتمسكت بجار باليد الأخرى . وانتهجت إلى الرفاق .

وتسائل العسكري :

— أتمر من البيت ؟

— أجل آخره

ووصلت إلى باب بيت أم عباس ..

وبدا مدخل المطبخ كما كان منذ عشرين عاما . راد المني قدما وراحت الأثرية وأكوام القمامة من حوله . ولكن شكل المدخل بدا كما هو . والمقعد الذي كان يجلس عليه أبوها وأمامه طاولة التجليد .. وجردل النشا . وأكوام القمصان مارتلت كما هي .

وبدت المطبخ خاوية . ساكنة .. لاطرفات .. ولا صحبات . وأقبل من داخلها شيخ محي ثقب الخطي . عرفت فيه سيدة عبده .. وعندما مرها هتف بها :

— سيدة . أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة ماذا أتى بك إليها أخيرا ؟ ..

وتجاملت سيدة سؤاله وردت عليه متسائلة :

— كيف حالكم أنتم ؟

— كاتريس . انقصر عملا على طبع الإعلانات والبطاقات .. وتجليد الكتب القديمة . نكاد نحصل على لقمتنا بالعافية . رحم الله أيام الحاج كانت أيامه مدية .

— وهل يأتي مني عباس ؟

— يأتي لبيت سواد الليل .. ويأخذ ما نجمع في الصباح ثم يصرف .

ونظر عبده إلى أهل ثم قال :

— أظنه ما زال موجودا .. فهو لم يمر علينا ..

وعطت سيدة وإبها إلى الداخل . ووقف العسكري في التواء يصعق بكفيه صائحا :

— عباس البرعي .. عباس أغندي .

وبعد لحظة أطل وجه عباس من بين السلم وقد ارتدى القمالة واللباس وتسايل صائحا :

— في إيه ؟

(محي لا تدع الشوك .. جد)

ومد الشاويش عنقه من أسفل وصاح :

— حضرتك عباس البرعى ؟

— أجل أنا .

— الحرمة حضرت

وصاح عباس في لهجة شامية .

— حضرت .. حمد الله على سلامتها .

وعاد العسكري يصبح من أسفل :

— يريد إضفاء على هذه الورقة .. بأن الحرمة حضرت ..

ورد عباس في برائه الشامية :

— حالا .. دقيقة واحدة ..

وارتدى جلبابه ثم هبط السلم حاميا . والتقى خلال مروله بسيدة مهتف

قاتلا .

— أهلا وسهلا .. شرفت وآمنت .. يا مت الحسن ..

ولم تجبه سيدة واستمرت في الصعود ..

وهبط إلى العسكري الذى ياوله ورقة وقلما قاتلا :

— هنا .. امسى ها

وأمنى عباس على الورقة ثم أعادها له .

ونوقف العسكري برهة .. وأدرك عباس أنه يريد الخلاوة فمد يده إلى جيب

الجلباب فأخرج عليه سجائر ثم مد يده إلى العسكري قاتلا

— عذ . ليس معى عود

وتناول العسكري العبة قاتلا .

— كبر خيرك ..

وحرح إلى الرقاق ليجد أهل الرقاق يتظلمون في لجة .. السيدات أطلن

من التوافذ والبيات والأولاد تجمعوا حول الباب .

وتطالير الصليق من التولعد :

— مرات عباس جابوها بالبوليس

— لازم حايوريا القضا .

— أصله سكرى وقمارق .

— هي كان يقولوا عليها ماشية على كيمها .

— دى كانت بتشتمل في الوصة .

— اللهم احفظنا .. وابه الله له عليها ؟

— ما هو كان عباس وحلاس ..

وشق العسكري طريقه وسط رحام الصبية قاتلا :

— يا ولد شوف شغلك منك له . هو اتم إيه .. صبح ؟

وصعد عباس إلى الشقة ليجد سيدة تنف في وسط الصلاة الحالية وقد وصعت

الحقيبة على الأرض وأمسكت جابر في يدها وأخذت تنظر إليه نظرات يتطالير

مها الأشر .

وقال عباس في سخرية :

— عدت يا سيدة .

وأطلقت سيدة زرقة قصيرة وهي تتمم لنفسها .

— اللهم طولك يا روح .

ثم أردفت قاتلة بصوت أهل :

— أجل يا عباس .. عدت ..

وأشار عباس إلى الأريكة المثلثة التي كانت تجلس عليها أم عباس قاتلا

— تقضى . أظنك لست غريبة عن البيت .

ثم هز رأسه وقال متبكما .

— بلاطه . أعذ من يدك وفات

أجل يا سيدة .. لست غريبة عنه ..

أول مواطن استعبادك .. ومثلت .. وتمليك .

تعرفين أرضه بلاطة بلاطة . أحببت عليها بالعرشة حتى تشقت ركبتيك
لم تعرفي به البقعة كما يعرفها الناس .. تمط وتلأب . بل كنت تستغفلين
لتجدي نفسك واقعة على قدميت بعد جدبة من يد أم عباس من شركك لتعصت
بها كما تنصين الحصر أو قطعة الفسيل .
لست غريبة عن البيت يا سيدة ..
دار الزمان بك . ولعل . ثم أعادك إلى أرضه وبلاطه ومطبعة الأسود
وحمامه المظلم .

فادرتي عادمة .. وعدت إليه سيدة .. وباهس السيادة ..
اشتركت عباس فيه أول مرة بقرشه ..
واشتركت فيه ثانية .. بحكم المحكمة ..
وما أشبه النبيلة يا سيدة بالبارحة ..
بعت نفسك بالأمر . وباعتك المحكمة اليوم
حكم عليك بأن تكوني سلطة ..
ولكن هذه المرة .. كانت شروطك بلا خيار ..
بالوليس يا سيدة .

كل مرة . بعت فيها نفسك . كانت بخاطرك . كانت معاملتك حرة
أعطا وعطاء . بيعا وشراء
إلا هذه المرة . فقد كانت بالإكراه . بحكم المحكمة .. حكم رسمي ..
الدولة كلها .. بكل أجهزها التشريعية والتنفيذية . بقضائهم
وبوليسها .. ساهمت في تقديمك .. لليس ..
اشتركت كل هذه السلطات في التمداد عليك . وفي تقديمك بالإكراه
وبرعم إرادتك .. لهذا الخلق ..
ماذا تفعلين يا سيدة ؟ ..

قدموك إلى بيت الطاعة .. صليتك أن تطيعي ..

وتقدمت سيدة خطوة تجاه عباس الذي جلس على الأريكة متريما وقد تبالت
أسنانه وعاد يردد في عمامة :
— عدت يا سيدة !
وتسألت سيدة في هدوء :
— أهدأ هو بيت الطاعة يا عباس ؟
— أجل يا سيدة . مسكن شرعي . كما أمر به القانون بحوى فراشا .. وهلل
أدب .

— أهدأ هو البيت الذي ستأوي فيه مع ولدك ؟
— أجل يا سيدة .
ثم بسط يديه في حجر وقال في مسكنة :
— قفرتي .. ولا يقدر على القدرة إلا ربا .
وصمت برهة ثم نظر إليها نظرة ذات معنى وأردف قائلا :
— على أية حال إذا لم يحبك ولم تجديه قدر المقام فاستأجري لنا غيره
تحت أمرك ..

وأدركت سيدة ما يعنى فهرت رأسها وقالت في هدوء :
— بل يحبيني ويصف .. لا أظن أنني سأجد خيرا منه .
وهو عباس ركبته في حركة عصبية ثم قال :
— انتبهنا .. تفضل عذري راحلك .
ثم قال في لهجة منلرة :
— ليس مسموحا لك بالخروج منه .. أو امرى مطاعة هنا .
وصمت برهة ثم استرسل يقول :
— ولعلك عرفت أن الطريقة لإعادتك ليست متعطرة .
ونظرت إليه نظرة قاسية ملؤها الحقد وقالت :

— لن أعذره يا عباس .. أنا وانت والزمان طويل .
وكان جابر قد أقفّت مها وعدا بيث هنا وهناك . ثم عاد إليها ليتساءل .
— لماذا حصرنا ها ؟

وجديه عباس من يده يتناول احتضانه :
— هنا بيتك يا جابر . بيت أبيك .. ووجدك .
— لا أريد أن أبقي ها .

— لا تنكس عيضا . سأحصر لك شكولاتة .. وملس .
— لا أريد منك شيئا . أنت تصرّب أمي .
— أنا مظلوم والله ..

ثم نظر إليه قائلا :

— لو أنها تعقل .. وتضع ذهنها في رأسها .. لسا كل شيء يسا على ما
يرام .. ولأصبحت مساع على عمل . ولكنها تنحل على يا جابر . أنا روحها الذي
اتسلفها من الأوجال ..

وصمت برهة ثم مصص بشفتيه ..

— ولكن مغلش .. ريك كرم .. يهديا . بكروه تروق .. ونحل ..
وجذب الطفل نحوه قائلا :

— تعال يا جابر تعال .. أنا أبوك برضه ..
وقالت سيدة في أسي :

— لو يهدك الله .. وتعمل .. وتررق .. لما تركته هكذا يميما بالحيا ..
ولكن لا فائدة . كتب الله عليك للشقاء ..

(٤٢)

خلاص بثمان ..

أضطت سيدة بصحة أبيام في سجن الطاعة .
كان عباس يتركها طوال اليوم . وفي جوف الليل يعود تملا .. ليوتظها
ويطلب منها أداء واجباتها نحوه .. إعداد العشاء وغيره ..
وصممت سيدة على أن تروى نفسها على الصبر عليه
كانت تعرف أن معركتها معه .. معركة صبر .
ودات ليلة أقبل عليها وقد بدت عليه علامات الشر والتحدى .. قائلا لها في
هشة خدرة :

— وأعرعنا يا سيدة ؟

— آخرة ماذا ؟

— آخرة هذا العيش .

— لست أفهم ما تقصد .

— بالعري .. أريد نقودا .

— ليس معي نقود .

— أنا أعرف أن عندك نقودا .

— النقود التي معي لا تكفي للقيمة التي تكلها . وعدا مستعد
ومستجس على باب السيدة للتسول أنا وابنتك ما دام هذا برصيك .

— لا داعي للثوب والدوران . أنت لن تتسولي أبدا لأن معك نقودا
— هب أن معي نقودا

— إذن أعطيني شيئا . إلى حقيقة في أشد الحاجة إلى المال .

— أعطيك نظور ماذا ؟

— نظور ماذا ؟ .. نظور أنى روجك ..

— إذا كنت زوجى .. فأنت الذى يجب أن تعطنى .

— أنا ليس معى نقود .. ولو أن معى لأعطيك .

— ولكن هذا واجبك

— لا داعى لهذه المناقشة التى تنور الدم إلى أريد نقودا .

— قلت لك .. نظور ماذا ؟

— لست أفهم ما تقصدين .

— الإنسان دائما لا يذبح إلا إذا أخذ .. كل شيء بالثمن يا عباس ..

— ماذا أستطيع أن أعطيه لك نظور النقود ؟

— الطلاق .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنى على استعداد لأن أعطيك النقود بشرط أن تحمل عى .. أن تطلقى

سرايى .

— هكنا !!

— أجل !!

— وبغير هذا لن أخذه النقود ؟

— ولا ملج واحد .. وسأظل معك فى هذا السجن حتى يعنى أحدها

الآخر .. يا أنا يا أنت .

— لن تقدرى على ما سيفة .

— بل أقدر عليك وعلى أهلك .. لا تنظر أبى سهلة يا عباس . أنا أستطيع أن

أسرط بك الأرض واجعلك أمام الناس فرجة .. أستطيع أن أم عليك الشارع

وأهيك .. وأفضحك واجعلك لا تسوى بصفة .. أنا لا أحشاك . ولكنى

فقط أصير عليك .. وعندما ينفد صبرى .. سأعطيك وأشرب من دمك . ولا

يمنى أحمد .. حتى الولد .. له رب يرعاه . صمغ عقلك فى رأسك واعتقل ..

وصمت عباس بزن يندبها فى رأسه .. ثم تبهت قائلا .

— ومادا استطيتى إذا طلقتك ؟

— الذى يقدرى عليه ربا .

— قولى كم ؟

— قل أنت ماذا تريد ؟

— وأعد عباس بيز ركبته مفكرا ثم قال :

— خمسمائة جنيه .

— وشهقت سيدة وقالت صارخة :

— خمسمائة جنيه ؟

— جنيه !!

— يا ألسى خمسمائة هفريت لما تنططورك ..

ووثبت نحوه بمره من دراهم نصف قاتلة :

— لماذا .. أنظنتى أجلس على كثر ؟

— نجلين على كثر ثم على طشت . لن أأخذ أقل من خمسمائة جنيه .

— يتحتم على إذن أن أعود للشغل عند دلال حتى أدير لك المبلغ ..

— عند دلال .. عند توحيدة . عند الجن الأزرق . هذا شأنك .. المهم

هذى لخمسمائة جنيه ..

— هكنا !!

— أجل هكنا .

— طيب يا عباس .

ثم أمسكت طرف شعرها وأردفت منشرة :

— آدى مقصوصى .. إن طلت مليا واحد .

وأمسك عباس شاربها وقال بعنى اللهجة :

—وأدى شئى .. إن قدرنى تركى هذا البيت .

— ومن قال لك إنى أريد أن أتركه .. سأجلس ها على قلبك حتى أطلع روحك .. وسأذهب كل يوم إلى القسم لأقدم فىك بلاغا لألك تتركى أنا والولد بدون طعام

— أفضل ما يدلك .. لانهسى المحافظة بأكملها ..

— هكنا .. مندمتى هجعت نفسك ؟

— طول عمرى يا سيدة وأنا شام نفسى .

— وجدتها من ذراعها ودفعها إلى حجرة النوم قائلا :

— فوفى ادخل أمامى على الحجرة .

— وجدت سيدة ذراعها بشقة صالحة :

— لأن ادخل ..

— ودفعها عباس دعمة كادت تلقى بها على الأرض هجعت عليه تشب بخالها فى

عنقه وجدته من القائلة فى رقبها إلى آخرها ..

— واستمرت المصارعة بينهما ليلة بعد ليلة .

— وأحست سيدة أن حياتها باتت لا تطاق . وأن الأمر سيتبى بأحدهما إلى أن

يقتل الآخر . والصبر بينهما كل ليلة يبرع إلى ذراعها فى حلق . وهو يرى

زجاج النوافذ يتشم والكراسى تهطم .

— واستيقظت سيدة ذات صباح فوجدت الصبي ساعنا وهو لا يستطيع أن

يرفع رأسه .

— وأصابت الجرع وذبحت توقظ عباس قائلا :

— الولد سغن وسأذهب به إلى الطبيب .

— وأجابه عباس فى عناد وإصرار :

— لا تتركى البيت . وإلا أعفذك بالبولىس .

— الله . انت اتجست .. أقول لك الولد سغن وسأذهب به إلى الدكتور

تقول لى لا تتركى الدفر .. إذن اذهب به أنت !!

— ليس عدى تقود

— إذن دعى أذهب أنا .

— هاتى التقود وأنا أذهب به .

— لكى تصرفها على معك ؟

— هبى أنى صرقتى .. أغصارة فى .. جنبه أو جنبان ..

— ليس موى ما أعطيه لك تضيقه فى المسخرة .

— ولكن معك ما تصرفه على الفارغ والمليان .

— أتتجر الدهاب بالولد وهو مرهض إلى دكتور شىء فارغ ؟

— إذا كان ساعنا فأعطيه برشامة وخلصنا .

— ونظرت إليه سيدة فى حق ثم قالت :

— اسمع . سأذهب بالولد إلى الدكتور .. وأعمل ما تشاء

— قلت لك لا تخرجى

— اصرب رأسك فى الحائط . سأفعل كل ما أريد . ولن يمسى أى شىء

لأنت ولا البولىس ولا المحكمة .. ويل الحكم الذى فى يدك . واشرب منه ..

— وصر عباس يطق عليها ولكنها أعلنت منه بحر الطميح وصرحت مدبرة .

— قسما بالله العظيم يا عباس يا ابن برعى . لأشعل النار فى البيت وأطرقها

على بابو حلك .. كلب ابن كلب .

— وثبت عباس من مكانه ووقف فى الصالة بالنعاسة والباس وصرح بها .

— اسمعى يا سيدة .. لا فائدة من حياتنا هكنا . انشينا نعالى نعاهم

بالدوق .

— ليس بنا تفاهم

— سأطلقك

— لا أريد الطلاق

— اعقل يا سيدة . وتعالى فتفاهم .. كم تريد أن تدعى ؟

— ولا ميم .

— الله يحرم بيتك . ألم تقول إنك على استعداد لأد تدعى ميمًا بطريق الطلاق ؟

— لن أدفع ميمًا واحدًا .. وسأعرف كيف أريك .

— تعالى ربما يهدىكي . تعالى اجلسي تناهم .. وليذهب كل ما إلى سبيله .. وكفى مهارة .. إن العمر لم يعد يحصل .

وخرجت سيدة من المطبخ وهي تمسك بزجاجة الخل وعلة الكزيت وقالت وأنها ستلاحق من القصب :

— ماذا تريد ؟

— سأطلقك .. أريدك هذا ؟

— أنت كذاب .

— أقسم بالله العظيم سأفعل .

— لا أصدقك أبدًا .

— سأحضر المأذون وأطلقك أمامه . ألا يكفينك هذا ؟

وأحست سيدة بأن باب الخلاص يوشك أن يفتح أمامها فقالت له .

— نظير ماذا ؟

— الذي تلمظينه ..

فكرت سيدة برهة .

هذه فرصة تشرين بها حركتك يا سيدة .

حريكك الذي أصعبت عمرك في محاولة استحلابها بكل ما يمكن من وسائل .

فرصة تخلصين بها من هذا السجس الذي أسرك العذل بين جفراه . وحكم

عليك القانون بالمدة وراء قضبان . وصح لك مه عراش . ومكانا لقضاء

الحاجة . وجعله بذلك مسكنا شرعيا . بهصرف النظر عما يمكن أن يهينك به

من إذلال .

ستطيعين أن تبجي قطعة من المصاع . وتسردي بها ميسك . وتنطقى

بأبك إلى الحقول الطلق . تملين عملا شريعا . تروين به الصغير العزيز

وتظرت سيدة إلى عباس ..

هذا الخلق .. لا يستحق شيئا . ولا يساوى ميمًا واحدًا .

ولكن الخلاص مه . من أجل رعاية الولد وراحته .. يستحق الكثير

ويساوى الكثير ..

وأطلقت سيدة تهينة طوبخة كأنها تريح عن كاهنها عبئا أثقله ثم قالت .

— سأعطيك مائة جنيه .

ووزن عباس المبلغ في ذهنه ..

مائة جنيه سيدخل جيبك يا عباس . بعد طول حاجة وفقر . مائة جنيه

وخطوعان من بعدى .

ولكنه يستطيع أن يأخذ أكثر ..

لا يجب أن يهمل بسرعة .. المسألة تحتاج إلى مهارة في التسلو

وقال عباس في استخفاف :

— مائة جنيه يا سيدة .. أهذا كل ما يساويه خلاصك ؟

وقالت سيدة في حزم :

— مائة جنيه . هي كل ما أستطيع إعطائه لك . بعد أن تطلقني ثلاثا وأحد

ورقني أمام المأذون ..

— كل هذا بمائة جنيه ؟

ثم صمتت برهة واسترسل بقول .

— اجعلها ثلاثمائة .

وهزت سيدة رأسها في بأس وقالت :

— لا قائمة مسك يا عباس .. ما كالم يجب أن أناقشك ثانية

— طيب مائتين .

وتركته سيده واتجهت نحو فراش الصغير قائلة :

— انتبها ! لن أعطيك ميمبا واحدا . وسأفعل ما تريد . واصلت أنت ما تريد .. ماد اليوليس ماد اعلمكم ساريت كيف أحلصت منك .

وصاح بها عباس وهو يحس أن الصفقة توشك أن تنضج :

— طيب تعالى .. انتبها .. أين المائة جنيه ؟

والنعتت سيده إليه في دهشة قائلة :

— عندما تطلقني سأعطيك لك على يد الهامى .

— أعطيني شيئا تحت الحساب .

— ولا علم واحد .. خلصنى .. وعقد النقود

وففر عباس من فوق الأريكة وأعد يرتدى ملبسه بسرعة قائلا :

— اليوم سأخلصك .. حضرى النقود .

— سأذهب بالولد إلى الدكتور .. وسأتركك بعد الظهر في مكتب الأستاذ

عبد المعاطى الهامى . أنت تعرف مكتبه في شارع عدلى . اذهب إلى المأفون

وخلص كل شيء وتعال إلى الهامى .. لتسبى اليوم معا .. ولتعترق بسلام .

وخرج عباس بسرعة .. متجها إلى المأفون .

هذه الليلة سيكون معه مائة جنيه . غرد أن طلق البت سيده .

رمن المجائب !!

سيده تدفع له مائة جنيه لكي يطلقها !!؟

من يصدق هذا ..

اشتراها بقرش فوق السطح .

وباعها بمائة جنيه .. في الشقة .

ما شاء الله . صفقة . غير معقولة

ولكنها حدثت .

في المساء التقى الاثنان في مكتب الهامى ..

ونحب الصفقة .

قص عباس مائة جنيه ..

وتم خلاص سيده .

وانطلق عباس يرتع . طليقا سعيدا

جملته مائة جنيه .. يعطى محققا .. في مساء من المسعة .

بدأ بمناوبى مصطفى كاسين ثم مر بدلال .. هأها عس (حاجنة

جديدة) . فقدت له .. سمرا .. ساحة . طرية . كالمس .. وانطلق بعد

ذلك إلى بيت وجدان .

سعادة ما يبدعها سعادة ..

ولكل كأس مذاقها . ولكل مذاق . اللسان الذي يبهوه .

وداقت سيده طعم الاستقرار والطرية هذه الليلة .

ذهبت في الصباح بابها إلى برحس الطيب الدكتور عبد الرحيم

لقها حودة مرحبا .. وأدعاه إلى الدكتور .. وأقبل عليها برجل معجور

هملأها طمأنينة بالاحساس الأب الرحيم .

وقال لها في بزائه المهادنة :

— يا سنى لا تنزعجى .. مجرد الثياب في اللورتين يحتاج إلى صلفا .. لدى

رجاجة سأعطيك لك .. أين كنت هذه المرة ؟

وقسمت سيده وهي تحمل الصسى على كتفها :

— مشاعل الدنيا يا دكتور

— أية مشاعل لديك ؟

وصمتت برهة ثم أردفت في صوت خفيض

— مشاعل الحياة كثيرة .. الدنيا لا تترك أحدا في حاله .

رسأها الرجل

— وكيف حال زوجك .. سمعت أنكما على خلاف .

وردت سيدة في كلمات مقتضبة .

— افترقا .. وذهب كل إلى سيده

وتركت عبادة الطبيب وقد أحست بالضائقة على ابها .

وكان على سيدة أن تدبر بعد ذلك لقود الخلاص .

ولم يستغرق منها ذلك وقتا طويلا

استطاعت الست فاطمة أن تدبرها مبلغ المائة جنيه . حتى ينجح إحدى قطع

المصاغ ..

وفي المساء كانت سيدة تستقر في شقتها فوق السطح .. بعد أن تم لها الخلاص

بأنها من سجن عباس .. في رفاق الرعي . بشارع السد البراني

قامت سيدة لينتها . وجابر في أحصائها .. وهي تحس لأول مرة بهمة الأمان

والاستقرار

بامت وهي لا تتوقع أن يهجم عليها عباس ثلثي منتصف الليل . ليحطم

زجاج النافذة فوقها بأحد المقاعد أو يجرها من عنقها لتعطيه بقودا أو

لتجبر له العشاء .. أو لتؤذي له واجب الزوجية .

ولم تحل أحلامها من الكوابيس المثيرة المرعبة .

أم عباس تجدها من شعرها تلتقي بها من فوق السطح . ويخش أنها يبط من

الدرج وهي تملو وراءه لتسحق به .. ثم تجدها حافية ثم عارية . ولا

تعرف أين تخفى نفسها . وتجدها في إحدى الشرفات وأكوام الصحف من

حولها . ولا يلتصق إليها في أول الأمر .. تصرخ مستجدة به ، فيقفد إليها

بكموم من الصحف بخواره . وتطارت الخرافات في الطريق . وتعلو همسك

بإحداها تستر بها جسدها . فتدفعها الرج أمامها .. ثم تهوى إلى جسر

عميق .. لتصرخ مستيقظة وهي تضم جابر إلى أحضانها ..

واستيقظت في الصباح

تسمات صباح أكتوبر بهيب رطبة تدية من النافذة ..

وسحب الحريف تلاحق على صفحة السماء الرقاه

وإحساس بالأمان والسكينة بملا نفس سيدة .

واستيقظ ابها ليفتح عييه ويسأل في خوف وحذر :

— بابا خرح ؟

وقالت له سيدة وهي تطلق تهيدة لرياح :

— مخرج ولن يعود .

وتنفض جابر بجدعه الأعلى وهو يتلفت حوله متصائلا :

— لن يصيرك بعد ذلك . ولن يحطم الزجاج والكرسي ؟

— لا يا جابر .. انتبهما من كل ذلك .

— ولن يأخذنا إلى بيته بعد ذلك ؟

— أبدا .

— وإذا حضر العسكري ؟

— لن يصير العسكري أبدا . سفي هنا على طول . هدا بيتا . أم

وانت .

— أكن تذهب إلى كوتر والست فاطمة ؟

— طبعاً سذهب لزيارتهما .

— وهل ستحضر إليا أم سيد ؟

— سمرسل عم إبراهيم ليحضرها .

— ومتبقى منا ؟

— إذا أرادت

— إلى أحمها .

— وهي أيضا تحبك

— وأكره أي عباس

وأطلقت سيدة زهرة أنسى . ثم قالت للنسي :
 — مه الله .. قس بالله يساعده .. ولا تكرهه .. لا تكره أحدا يا جابر فإنه كميل
 بأوثقك الذين يستحقون ما الكراهية .
 وفي هذا الصباح بدأت الأفكار تترحم في رأس سيدة .
 يس استقر تركها هو حاتمة اللطاف يا سيدة
 ولا هو نهاية فتاعب ..
 إنه يدايه متاعب من نوع جديد .. متاعب الكفاح من أجل الحياة الجديدة ..
 حياة يحدد معالمها .. هذا الصغر الجالس أمامك ..
 حياة مستقيمة .. يس لث فيها حيار
 وأول ما عليك هو أن تسددي المائة جنيه التي أخذتها من الست فاطمة .
 وليس هذا بالأمر العسير .
 يحتاج إلى مشوار سريع إلى روض الفرج . تأخذين المصاع كتبي ما يلزمك
 لسداد مصروفاتك العاجلة .. سداد دين الست فاطمة وهره من الديون الصغيرة
 ودفع الأجر المتخلف عن الشقة وشراء بعض ما يلزم من ملابس وخزير
 للطعام . وتجهيز ما يلزم لإدخال جابر المدرسة .
 أشياء كثيرة تترمت من أجل الاستعداد لهذه الحياة الجديدة المستقرة
 المستقرة . التي عليك وحدها يقع عبء مسؤوليتها .
 وبعد هذا تبت المشكلة الكبرى
 مشكلة الإيراد الذي يواجه مصروفاتك العاجلة .
 ستعيشين يا سيدة عيشة محصورة على قدرك . ولكنك مع ذلك ستستعدي يوم
 ما .. رحبتك المذخر .. من المصاع ومن غيره . ومهما كان الرصيد الناقص
 مصيره إذا أخذنا منه دون أن نضيف إليه .. إلى روال عمم . وحد من التل
 يتخل . وهي لا تغلظ تلا .. ولا حتى كوما .

ومن أجل هذا يصح أن تصل
 وعملا .. بحلده وجود هذا الصغر . في مجال معين لا تدخل فيه خرب
 الساقية .. ولا تجربتها الأولى
 أهم عنصر يا سيدة لصداق استقرارك في حياتك الجديدة حياة الحرية
 والسيادة . في منطقة العود الجديد التي لا تتعدى امك جابر .
 أهم عنصر يا سيدة .. هو العمل .
 والعمل . الشريف .
 أنت على استعداد له .. بقدر ما تملكين من جهد ومعرفة
 انسى يا سيدة كل ما كان من أمرك
 انسى حياة الشرف التي عشتها يا سيدة . في مرحلة من مراحل حياتك
 الترافقة فقد كان ترافقا وكانت سيدتك نفسها موهومة باطمة
 واسلكي طريقك الجديد .. بهشجاعة .. وحزم .
 ولكن أين هو العمل ؟ ..
 وسألت السؤال لأول من صادفته في صباحها الجديد
 عم إبراهيم بواب العمارة .
 أقبل الرجل يحمل إليها وصلوات الإبحار والنور لتأخذه
 وقالت له سيدة وهي تتناول الوريقات مه :
 — اجلس يا عم إبراهيم . تفضل .
 — كتر حيرك يا ست سيدة
 — تشرب القهوة مصبوح .. والاعلى الرينة ؟
 — ريادة يا ست سيدة
 — من عيشي يا عم إبراهيم
 — تسلم عبيكي يا ست
 وبعد لحظات أحضرت له القهوة .

وحملت السيدة وأخذت تزن المصنوع في ذهبا .
— من يد ما تعلمها يا ست سيدة .

ووضع المصنوع على المنضدة ثم تسليط :

— وكيف الحال يا ست سيدة ؟

— الحمد لله يا عم إبراهيم .. حلصا . ربما تاب علينا من سي عباس ..
— ربما يهديه ..

وارتشف عم إبراهيم رشعة طويلة أخرى وعاد يتسائل :

— وأنت .. ماذا ستفعلين ؟

— أريد أن أعمل يا عم إبراهيم .

ورفع عم إبراهيم حاجبيه في تساؤل يشوبه الانزعاج .

— أي يا ست سيدة ؟

— أي عمل يا عم إبراهيم .. إن شأفت شغالة .

— يا سلام يا ست سيدة .. هي حصلت .

— العمل الشريف ليس عيبا .. ولكني أعيش لا بد أن أعمل

— لماذا لا تتزوجين ؟

وردت عليه في فرح :

— أتزوج . قال الله ولا فالك .. كفأيا يا عم إبراهيم .. ما أريده من دنياي

هو أن أرى جابر .. من أجل هذا .. سأبحث عن عمل .

وصمت عم إبراهيم مفكرا ثم قال :

— اسمعي يا ست سيدة . الدكتور عبد الرحيم .. يحتاج إلى أحد معاوني

جودة . فقد خرجت سلبية التورمجة من عنده . وارتداد العمل على جودة .

— وماذا أستطيع أن أعمل عندهم ؟

— تساعدني في استقبال المرضى . وفي التنظيف والمسيل .. ومع الوقت

يمكنك أن تتعلمي إعطاء الحقن . وغيره من أعمال الممرض .

وحملت سيدة وأخذت تزن المصنوع في ذهبا .

هذا عمل ممتاز لو تسر لها الالتحاق به .

إنه لا يستغرق كل الوقت . وهو في نفس البيت .. وتستطيع بسهولة أن

ترعى جابر .. وأن تقضى معه جزءا من اليوم وثبت معه ..

لو أمكنها الحصول عليه .. ولو كان أجره معقولا .

وتسألت سيدة في صوت متخفض :

— أأندك فكرة يا عم إبراهيم عن الأجر الذي كانوا يدفعونه لسعدية ؟

— أعتقد أنه أجر عجز .. والدكتور عبد الرحيم ربح طيب وأمر . وربما

فتحها عليه .

— هل تستطيع أن تحس بعضهم .. عما إذا كان هناك احتمال . أن ألتحق بهذا

العمل عندهم ؟

— طبعا يا ست سيدة .. بمجرد أن يأتي جودة سأخبره .

ولم تبت سيدة ليثنا التالية إلا وقد تأكدت نفسها من الاستقرار في حياتها

الجديدة ..

قبل الدكتور عبد الرحيم التحاقها بالعمل في عيادته ..

واستطاعت أن تباع بعض مصاعها .. لتسد به ما عليها من ديون ..

ولتقدم جابر في المدرسة الكاتبة بالقرب من معرووف .

وبدأت خطواتها الأولى في طريقها للجديدة . ومنه بعثها الشعور بالسكينة

والأمان .

زيارة مفاجئة

ووصلت سيدة حياتها الجديدة السعيدة المستقبلة تقضى في شقتها ذات المحررتين فوق سطح العمارة . وتعمل تومر حية في عيادة الدكتور عبد الرحيم طبيب الأطفال .

كانت تستيقظ في ساعة مبكرة لتعد ابنا للمدرسة . وتطبخ ثم تصحبه حتى باب المدرسة وتعود إلى بيتها لتطبخ وإعداد الطعام إذا كانت تنوي الطبخ ثم تبيت بعد ذلك إلى العيادة تطبخها . وتعمل ما يحتاج إلى عسيل حتى يحين موعد العيادة فتشارك جود في استقبال المرضى والمعاونة في بعض ما يحتاجه الدكتور .

ولا يكاد ينتهي موعد عيادة الصباح حتى تسرع الخلق إلى المدرسة لتحصن جابر وتضعده معه إلى الشقة ليشيوا العشاء معا . ثم تقوم بعملية التنظيف من نظيف النظيفة الصغيرة وعسل الأطباق . وإعادة ترتيب الشقة ثم تسرع حتى موعد عيادة مساء وقد يجده جابر معها إلى العيادة أو يصب مع بعض الأولاد في العشاء الخلق للصارة . أو يذهب عند إحدى الجارات .

ولا تكاد العيادة تنتهي حتى تصطحبه سيدة إلى الشقة وتعيه .. وتحدث معه حتى ينام

حياته لا تنواريها كثيرا ساعات الاسترخاء أو طروف المتعة والنهوض . ولكن سيدة .. لم تفتقد فيها شيئا يقتصها .

لم يصبها العهد الجسماني الذي تقوم به .. كانت قادرة عليه .. القدرة بسلطة على أن تقوم بنظام الشقين .. شقتها والعيادة . وعلى أن تقوم بخدمة ابنا وأداء واجبا في العيادة على أم وجهه

كانت محس بإرهاق في آخر يومها .. وعندما كانت تأوى إلى مضجعها . لم يكن يأخذ منها الاستراخ في النوم أكثر من ساعات تروح بعدها في إعياء طويلا لا تستيقظ منها حتى الفجر

ومع العهد الشاق لدى كانت تبدله . ومع عذو حياتها من مظاهر المتعة المألوفة .. كان ثمة شيء يجعل لحاها طعنا .. ولجدها معنى .

ولم يخطر ببالها قط في حياتها الطويلة ماضية . كيف يمكن أن يكون نصهار في حياة الأمهات بهجة ..

كانت تألف بعض الصغار في بعض الأحيان . وكانت تحوهمهم . ولكنها لم تعرف قط ماذا يمكن أن يكون طعم الأمومة .. عند الأمهات .

لم تشعر من قبل كيف يمكن أن تقع لمسة الجبين الساحر على كعب الأم ولا تحسنت من قبل كيف يمكن أن توجع آفة الصغر قلبها .

لم تحاول أن تعطي اهتماما لبعض بهم الطريق حتى بما جابر وأصبح قادر على أن يهر الطريق وأصبحت ترى في كل طفل يهره ابنا جابر وتكد

نصرح .. وهي ترى عربة نقل محرو وطم ناد تعلق شحمه بين در عها لا يعرف معنى الأمومة يا سيدة إلا من يمارسها .

وهي حيلة . رغم كل ما بها من مشقة وجهد .. ابنت يا سيدة أحمل الأطفال . وأعهم دما

يقول الناس إن به اتساع عيبت وحدديه ابتسانك . ويقد أحد عي فيه شيئا ما قد يكون حبه وشعره الجميد . أو أنه يعرض ولكنه قطعاً لم يحد

عه حقه . لا استهتره ولا أرايته . ولا محانتته .. به أقرب إلى جده جابر .

فهو عي صره جمال للسعولة عطوف حوون . أمين بأنى إلا أن يساعدها في كل ما تعمل وهو يخرج يد أصابها سوء وداعطفه أحد

بعض الحوى فلا بد أن يتفاسها معها

وعملت في العيادة باميدة على مشقته . به شيء جميل .. هائياته . ليدان
بلقاء جابر .. تهيئ الدراج بسرعة .. وتستحين الحطى على الرصيف . وفي
هاية الشارع تعبر إلى الناصية الأخرى . وبعد دقائق تجد نفسك أمام باب
المدرسة ..

ويدق الجرس . ويتزاحم الصبية على الباب يتدافعون بالثياب والأهدى
للخروج وتستطلع عيناك الوجوه .. قد يكون فيها وجوه جميلة . وجسود
بيضاء . هاهيون خصر .. أو ررق . ولكنها قطعاً ليست لها جمال الخلق
الذي تبحر عنه .. ولا جاذبية لمن به شيئاً يملأ نفسك بهجة . ويشيع في قلبك
الافتساح .

ويبدو وجه الصبور يتطلع بعينه إلى أعلى . باحثاً عما بين الوجوه المستطرة
وتحس سيدة فرحة .. وتلوح له صاحبة : جابر .. جابر .. ويسرع الصبور
بحوها فيمد لها يده ..

وتسير ولما في الطريق وبمسها إحساس المتعة والتفاخر والكبرياء . الذي
يملؤها لو أنها سارت مع أكبر الرجال قدراً .. وأجلهم شكلاً .

ويتبادر لأن الحديث .. حديث اللذ للذ ..

يعبرها ماذا قال له عبد القادر أفندي . وماذا فعل مع ركني . ومع عمر .
وهي تعرف مدرسه وزملائه بالأسم .

ومجددة في جيب مريته ويخرج لها قطعة شوكولاتة ويعبرها أنه اشترى واحدة
أكل نصفها وأبقى لها النصف . وفي منتصف الطريق . تحس بوحشة له
تترفعه من يديه ثم تضمه وتقبله وتعيده إلى الأرض ثانية وتواصل السير .

ومن متع الحياة أن تراه يأكل بشهية ..

وكانت تنبأ في الأكل حتى يتبقى هو ما يحلو له . ثم تأكل ما تبقى ..

ومن متعها أن تحميه . وتضمه إلى صدرها وتحكي له الأحاديث حتى ينام .
ما طاب بذهنت يا سيده أن يدع إليك مثل هذا الخلق . هذا القدر من

البهجة ..

في كل مرحلة من مراحل حياته له بهجة ..

عندما بدأ يتحدث كان متحمساً .. طريقة منطقته . ومهمه الدكي . وعندما
سار كان حدثاً مبهجاً ..

وفي كل يوم يسمو .. وكأنه يتهرر عنها .. وتزداد اضطراباً وإلهافاً ويشيع في
الدار من حولها بهجة وظلا وأناً ..

كل شيء يفعله مسل .. مبهج .

إلا أن يمرض .

بما سائر يارب .

موجب مرض الأباء .. ولجميع ما فيه أننا لا نستطيع أن نحمل عنهم آلامه ..
سفر إليهم في عجر .. وترسب الآلام في أعماقنا مصاعفة ..

وأشوأما في أمراضهم .. أننا لسنا أطباء .. ولا آفة .. ولا نملك إلا أن ننظر
إليهم في عجز ووجع .. نسلو الشفاء من الأطباء ورجوه من الله ...

ليحل .. أو لا يحل وقتنا يشاء ..

ولم يمرض جابر .. والحمد لله كثيراً .. وعندما كان يمرض الأمراض العادية
للأطفال .. كانت تحمله على كنفها .. وتبسط إلى الدكتور .. ليحصه ويعطيه

الدواء .. وتغيرها بالتعليمات اللازمة .

ومع الوقت تعلمت ماذا تعمل عندما يصيبه عارض من أعراض
المرض ..

تعلمت بذلكها . وبدافع من حرصها على جابر وجودها عليه الكثير من
تعليمات الدكتور .

تعلمت كيف تعطى الحش .. وتربط الصادات . وتصنع الكمادات ..
تعلمت متى تعطى الشرية . ومتى يعطى الأسبريس . والسعا .

والأشروفيغورم .. وتعلمت أي المراهم تصنع على الجلد ..

وصحبت الدكتور عبد الرحيم وهي تصف له ماذا فعلت عندما ارتفعت
حرارة جابر وفحصت زوره وأبصرت هذه التهابا في اللوز .

قال الرجل :

— صرت يا سيدة نصف طيبة .. وبنت منافسة خطيرة في
ثم أردف محمرا :

— ومع ذلك . عندما يسبح جابر مرة أخرى أحضره إلى .

— لم أرد أن أزعجك يا دكتور . وأنا أرى كل هذا الأرحام في العبادة .

— لا تقولي هذا مرة ثانية يا سيدة . إدام أعالج است . فمس أعالج ؟ عيب

أسمع منك هذا مرة أخرى . اللهم إلا إذا صممت على أن تصبني دكتور
ومرت الأيام بسيدة وهي راضية عن حياتها . راضية عما فيها من جهد
ومثاق .

ورازعها أم سيد بعد أن علمت أنها عادت إلى الشقة

ومكنت معها يوما .. تعدت معها . ثم بقيت مع جابر حتى انتهت عبادة

المساء .. وتعمت معها وبامت لبثها وفي الصباح التفت لملاحتها . واستأذنت

في العودة إلى ابنتها في ميت عقبة

وغالت سيدة :

— لماذا لا تبقين معي يا أم سيد ؟

وتهددت أم سيد قائلة :

— لا أريد أن أحملك حملي يا ست سيدة . يكفك ما عندك

— ليس لك هم يا أم سيد .. إلى دائما في حاجة إليك

— كثر حرك . إن ركية بنتي تنظرني .. وروحها لديه حشرات ليلية
وتحتاج إلى من يبقى معها ليؤس وحشتها في الليل سأذهب . وسأعود إليك
بين أونة وأخرى .

— البيت بيتك يا أم سيد .. هناك بيت ابنتك وما أيضا بيت ابنتك .. لا

تعيى عليها

وتكررت زيارات أم سيد من أسوح آخر .

وفي ذات يوم أتت إليها قبل الظهر

وحسب الأثان للمساء والعقل بينهما

وجرى الحديث ببساطة فقالت أم سيد فيما قالته .

— ما أختيار الجماعة ؟ ..

— أي جماعة ؟

— جماعة روض الفرج .

— مصت بصمتة أشهر لم أذهب إليهم . المشاغل كثيرة يا أم سيد . وأحس

دائما عندما أذهب إليهم أني أنفل عيبي . ولكن السؤال واجب .. لا سيما أن

الست الكبيرة كانت متعبة آخر مرة ..

وفي اليوم التالي جلس حودة بقلب الأهرام قبل أن يبدأ ورود الرباتي

للعبادة .

وقلب الصفحات الأولى ونعم في صيق .

— أوقف القتال . بعد أن وصل اليهود إلى العريش .. لو تركنا لؤس مرة

لوصلنا إلى تل أبيب ..

واستمر في قلب الجريمة وهو يقول .

— سيؤلف إبراهيم عبد الهادي الوردية . بعد أن قتل الإخوان القراشي

واستمر بقلب الصفحات وهو يقول :

— لير الوفيات الخاصة .. بعد أن أبصر ما الوفيات العمومية ..

وأخذ حودة بتمتع بصحة أسماء ثم توقف برهة وهو يقول .

— ما هذا ؟ . أليس هذه هي جماعة روض الفرج ؟ .. أحيايتك الذين
نرورهم ؟

وعظمت به سيدة متسائلة في جرع :

— ما لهم ؟

— حرم المرحوم محمد السمانوني . ووالدة الأستاذ حمدي السمانوني رئيس تحرير مجلة الكفاح .

وعادت سيدة تصبح بمودة .

— ما لها .. انطلق .

— البقية في حياتك .. يا ست سيدة .

— توفيت .. الست فاطمة ؟

— توفيت بالأمس .. وشيعت الجنازة .

وأحست بالدموع ثللاً ما فيها . وبصرها يضيق ووجهها يتشجج وانتابتها موبة مفاجئة من البكاء .

ماتت الست فاطمة يا سيدة .

القلب المطوف الذي رعاك في القرب وعلى البعد .

احصى عليكى يا سيدة .

شفتك فسحت وابك وشاككت عن أبر الناس وأعطفهم عليك .

كانت لك الجدار الذي تأوى إليه كلما عصمت بك ربح الحياة .

وأتوك ثانية .. وأنت مذهبة بنى .

كانت تعرف يا سيدة .. وإن بدا أنها لا تعرف .

بدليل راحتها عندما عرفت أنك تزوجت وأنجبت ابناً وقالت لك :

— الزواج سخرة يا سيدة .

كانت لك الجدار الذى تأوى إليه كلما عصمت بك ربح الحياة ..

وسينها عندما أمت واستفرت . وهذأت من حولك الرنج .

احصى عليكى يا سيدة ..

وامتمرت سيدة تشفق بالبكاء

وحاول جودة تهدئتها عشا .

قلم يجد بدا من أن يصعد بها إلى الشقة .

وقالت سيدة والدموع تنهمر من عينيها :

— أعير الدكتور يا جودة ألى استأذنت اليوم . وخد بالك يا جودة من جابر .. عندما يجي وقت المدرسة اذهب وأحضره وأبقه معك حتى أعود في المساء

— عينيها يا ست سيدة .. اطمئنى عليه . كأنه معك .

ودهمت سيدة إلى روص القفرج .

كان اليوم التالى للوفاة .. والنسيدات قد اصططعن في الصلاة يتشجن بالسواد .. وعرفت سيدة معظم الوجوه الجالسة ..

سميحة .. والعمه . وابنتها عديجة . وكوثر . وست عواطف الجارية . ولم محمود

وسلمت سيدة والبكاء يلفظها . لم جئت في ركن معروفة محاولة أن تتنعم دموعها

لم يزل السواد مد أن مات مى محمد بكسو الأرائك والمقاعد

لم يتجج الأمر إلى سواد جديد ..

فقد قصت فاطمة كل سيبا بعد وفاة مى محمد في سراد

فصبتا عناق لم تجف . ودموع لا تنص .

رحمك الله . يا ست فاطمة .

كانت حياتك .. فداء للآخرين

كنت عاقلة . وحارمة .. وطنية .

كنت أعلم وأحكم — على أينك — من الكثر من القارئ والكاتبين ..

ولحت سيدة حمدي يودع بعض المعين على باب حجرة الاستقبال وودت لو

هبت لنصمه إلى صدرها .. وتشاركه حزنه على غير الأمهات

وأبهرت سيدة العمه .. نهر رأسها في أسى .. ثم تتدفق في ثرثرتها كالعادة :

الحمد لله . حققت أميتا قبل أن ترحل .. كانت أميتا أن تزوج كوثر
لحمدي .. كانت تقول لي في كل مرة أنورها . نفسي ألوح بحمدي وكوثر قبل
أن أموت .. وفي كل مرة كنت أجيها .. يا فاطمة .. ربا يديكي العسر
الطويل .. البت موجودة تحت أركم .. دي بتلك ..
وتهدت العمة وهي تواصل حديثها قائلة :

— وفي آخر مرة أصرت على إيه الموضوع وهي تقول يا سمية يا اختي
حمدي كبر . وبمسي أطيش عليه وأحس إن حد حاياخد باله منه بعدى
حليا بسى الموضوع بقى .. وأصرت يومها على كتب الكتاب .. ولم تشرح
حتى زوجها ..

وبعد بضعة أسابيع مالت .. الله يرحمها ويحس إليها

إذن لقد تزوج حمدي بكوثر ..

الحمد لله .. أن أكرمه الله بها ..

فليس هناك خير له منها ..

كانت سيدة تحس كأن كوثر ابتها .

هذه الدنيا عجيبه

أصبحت الصعورة التي طأنا حملتها عن كعبها .. ربة هذا البيت ..

وإب لأهل له ..

وأصبحت سيدة يومها في البيت .. قامت بكل ما تستطيع من مساعدة
وخدمة .

وعادت في المساء إلى بيتها . وقلبها خليط من الحزن والرضا .

ويوم الخميس .. في ساعة مبكرة . ذهبت إلى المدفن تحمل مله الشريك
والعاكهة

لم يحتاج الأمر إلى سولرس .. ولا إلى مشوار بهد الحيل

ذهبت في تاكسي حتى مدخل الشارع الصيق المؤدى إلى المدفن وهناك

وحدث عم إبراهيم قد فتح باب اندس وورش الأرض ورص المقاعد وورش
الخصير حول الشواهد

وكانت الأسرة قد أملت مد دفائق ..

والصفت صبيحة والعمة وباتها حول الشاهد الداخل بشجون بالكاء وكانت
أشدهن تأثرا كوثر ..

وهست العمة لتقوم بمهمتها في توزيع الرحمة على الصبية واليات . وحدثت
سيدة السلة ووقفت تساعدنا في عملية التوزيع .

واستقرت سيدة بعد ذلك بخوار كوثر ترت على ظهرها في حال منشفة .

— كفى يا سنى كوثر كفى يا حبيبتي .

وحاولت كوثر أن تنطق ولكن أصحها البكاء فعادت تسترق فيه وقد
وضعت رأسها بين كتفيها ..

وبطرت سيدة إلى حمدي . في جسسه الصامتة على المقعد وسط رجال
لأمره . كان يتكى بمرضيه على ركبته ويسد رأسه بين كتفيه وقد أغمى
عليه .

وربت عمامة ابن عمته ظهره قائلا .

— شد حيلك يا حمدي ..

وكره حمدي أن يسم إطراره عن وضعه مرفع رأسه وأسد ظهره على المقعد

وبدت عمامة حراويل يترقرق فيهما بقايا دمع . وبدأت شعيرات بيضاء قد دبّت
في فوديه .. وتجاوهد خفيفة تسلك إلى أسفل عييه .

عفا بنا الزمن دون أن ندري يا حمدي .

نحن لا نرى عمرنا إلا في وجوه الآخرين

الصبي الرقيق الطيف الذي رد عنك عائلة الجماعير . وأفندك من برائهم في
شارع البلد .. قد شاب رأسه .. وتسفلت التجاعيد إلى وجهه . الصبي الذي

انطلقت وراءه ذات يوم لتلتقي به عبد سيدى الأربعين . بعد أن ذهب ليستدعي

الطيب لأبيه .. وتحير به في دخول .. أن أباه .. خلاص ..
 الصبي قد أضحي رجلا .. وعاد إلى أرض القبور ليشتع عرير آخر ..
 ويدور بالرمس دوراته الختلفة .. لا يذكرها إلا عندما يبصر صغيرا غما .. أو
 عندما يخلق في وجوه العير لبصر دورة الرمس قد حمرت عليها آثارها .. شيئا أو
 تجاهد أو وهنا ..
 أو عندما يحمل أعراسا على الأكتاف .. ليواربهم في باطن الأرض ..
 ومن يدري يا سيدة .. حول من سيكون اللقاء غدا ؟ ..
 هنا سيلتقي الجميع .. دائما .. في يوم قرب أو بعد ..
 واحد يثوي في الداخل .. والآخر يثوي في الخارج ..
 وبعض اللقاء .. ليعود إلى لقاء آخر .. يجدهد في الداخل .. والآخر .. من
 حوله ..
 ومهما كانت الوجبة يا سيدة ..
 فتحة شعور مريح بداخلك .. عندما تحس أن لقاء ما على أي وجه سيضمك
 ذات يوم مع أحباتك .. هنا ..
 ونقضت سيدة الحاضر عن ذهنها ..
 أطال الله عمرهم ومعهم بالصحة والعافية ..
 وانتهت زيارة الخميس .. وودعت سيدة الأسرة .. وعادت إلى دارها ..
 لتجد الحرير الصغير ينتظرها بعد أن عاد من المدرسة .. وقد جلست معه إلى
 سيد ..
 وهي جابر ليعانقها ويضمها إليه وجلست برهة تستمع إلى ثرثرته ..
 ثم أوت سيدة إلى فراشها لتسترخ ..
 ولم تعرف كم طالت إغفائها .. ولكنها استيقظت على يد تيرها .. وجدت أم
 سيد واقفة أمامها تنهف في جزع :
 — ست سيدة .. اصحي ..

ثم سمعت في الصالة صوت تعرفه جيدا .. جعلها تنب من فرشها صائحة في
 جرع ..
 — عباس .. ماذا أحضره ؟
 واندهشت إلى الصالة لتجد عباس وقد أمسك بحمار يحاول أن يصبه إليه
 والصبي يجاهد لكي يعلت منه ..
 وعباس يقول له مارح ..
 — وبعدين يا جابر .. حذ ينسى أباه ؟
 وأقبلت سيدة متسرة تصيح بعباس
 — ماذا أحضرك يا عباس ؟
 — هكذا يدور تحية .. ولا سلام ؟
 — قل ماذا أحضرك ؟
 ورد عباس ساعرا ..
 — وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
 — قل قل أن أبادي البوليس ..
 — بوليس .. هي حصلت ..؟
 — أجل .. حصلت ..
 — عيب يا سيدة .. أنا م ت لأسرق .. أنا لست لصا ..
 — أنت أكثر من لص ..
 — هي نسلك يا سيدة ..
 وصعدت فيه سيدة في صبر ناهد ..
 — لا تظن الخديث .. بأي حق تدخل هذا البيت ؟
 — بأي حق ؟ لعنتك سبت ..
 — لم بعد لي بك أي صلة ..
 — ولكن في ابن عمتك .. ومن حقك أن تثر ابني ..

— ولكن ليس من حقلك أن تقتحم هذا البيت
ورفع عباس كفيه وهو يقف في استسلام بعض في طياته معنى السحرية :
— أمرك يا سب سيدة .. إذا لم يكن من حقي أن أراه هنا .. سأعرف كيف
أراه
— يا حبيب أنت تقرب منه في الحريق أو في المدرسة .. سأعرف كيف
أردهك .
— ترد عيسى عن رؤية أبي يا سيدة !
— منذ متى كنت تنبأ به .. لو علم برؤيته ؟ .. لا داعي لهذه الألاعيب يا
عباس .. أنا أعرفك جيداً وأعرف وحايك ..
— ما هي وحايك التي تعرفها ؟
— أعرف ماذا يهبط حقيقة .
— ما هو يا سيدة ؟
— المهم عندك هو أن تلطش قرش
— وماذا في ذلك ؟ .. إذا كان حصوري يرعيت هذا الشكل .. فاشترى
بعدي
— لست أنا يا عباس . لن تحصل عسى عن مبيع واحد . وأخرج هورا بالتي
هي أحسن .
— تمنيتني من رؤية أبي يا سيدة !
— أجل . وأمنحك من العودة إلى هذا البيت ثانية . وإلا
— وإلا ماذا ؟
— سأعرف كيف أريك قنبرك .
— بل أنا الذي سأريك قنبرك .. الظاهر .. أنك لا تأثني بالندوق ..
وبعض من مكانه واتجه إلى الباب وهو يردد قائلا
— جنس واطي .. لا يتبع فيه المعروف .. ولكني سأعرف كيف أرى

أبي .. الصبر طيب يا سيدة يا بنت جابر . يا ردا الوعدة
ولحقت به سيدة وهي تدعوه في عصف خارج الباب :
— احرس . قطع لسانك .. يا تصاب . يا بلطجي
— أما ؟ . الصبر طيب .. مطهش .
وخرج عباس . وباتت سيدة ليتها يوما مقطعا تردهم فيه الكوايس
عباس يتخط جابر ويعطو به في الطريق . والاس يطارخونه غائلين :
حرامي . حرامي . وعندما يمشون بالإسلاك به يقذف به إلى هوة سحيقة ليس
ها قرار .
ومرة أخرى الناس تتسلل من حولها . وهي تبحث عن جابر صائحة .
جابر .. جابر .. ومن وراءه يمشو عباس وهو يتفقهه ..
وأشياء أخرى كثيرة مزعجة
واستقطت ذلك اليوم .. وقد عقدت البية على ألا تذهب بابها إلى المدرسة
خوفاً من أن يلقطه عباس ..
ومرت بضعة أيام وجابر بالازمها في البيت وفي العيادة . حتى أخذت محارمها
تبدأ .. وفي الصباح ذهبت به إلى المدرسة وأعطت البواب خمسة قروش قائلة له :
— أليس يا عم عثمان . عندك بالك من جابر . لأخذ بأحده من هنا غيري ..
— اسلمتني يا ست أم جابر .. اينك في عيسى .
— أخصني أن يحضر أبوه لأخذه ..
— مخلوق لن يجسر على أن يمسه وأنا على هذا الباب .
— كثر خيرك يا عم عثمان .
وعندما انتهى موعد العيادة . انطلقت إلى المدرسة والقلق يملأ نفسها .. وم
تبدأ حتى طلع عديا وجهه بين حشد التلاميذ المتداعين من باب المدرسة
ومرت الأيام .. وكل شيء هادئ .. ولا أثر لعباس .
حتى فوجئت سيدة ذات يوم بشرطى يطرُق بابها ثم يسلمها ورقة بأن تذهب

إلى قسم قصر النيل .

وخرجت سيدة وسألت العسكري

— لماذا يا شاوليش ؟

— لا أذكر . ولكن يبدو أن هناك حكم محكمة .. مطلوب تبعيد

وذهبت سيدة في ارتياح .

— حكم بماذا ؟

— ليست أدري يا ست .. احضري إلى هناك .. وسيحرونك بكل شيء .

المهم . امصىها

وأصغت سيدة الورقة .

وبعد برهة كانت تعبر باب القسم وتقف أمام الصابط التي تسمى متسائلة .

— أنا سيدة جابر يا شاوليش .

— ماذا تريد ؟

— أطلبوني أيوه لأحضر إلى القسم .

— ادخلي إلى الأمانى عبد الموجود واسأله .

ودخلت سيدة إلى عسكري يجلس أمام مكتب . وسأله قائلة .

— حضرتك عابري يا شاوليش ؟

— من أنت ؟

— أنا سيدة جابر .

وقلب الأمانى أوراقا أمامه ثم قال :

— مطلوب منك أن يحضر ابنك جابر إلى القسم ..

وصبرت سيدة على صدرها متسائلة

— جابر يحضر إلى القسم .. لماذا ؟ .. ماذا فعل ؟ .

— يحضر . وخلص .

— ذا جابر .. ولد عمره ما حصلش ست سنين .

— مفهوم ..

— لماذا إذن يحضر إلى القسم ؟

— يحضر لكي يراه أيوه .. عنده حكم بالرؤية .

— حكم بالرؤية ؟

— أليست مطلقة ؟

— أجل .

— أريد أيوه حكما عليك لأنك تمنعني عن رؤية ابني .. بأن يراه مرة كل

أسبوع في القسم . وعليه أن يحضر كل يوم اثنين الساعة ١٢ ها . لكي يراه

أيوه

وشهقت سيدة وعادت تضرب على صدرها :

— جابر يحضر إلى القسم لكي يراه أيوه ؟

— أجل ..

— يا ماس . يا هو . هو ده كلام ؟ . يدخل الولد قسم البوليس لكي يراه

أيوه !

ولمحت الأمانى في كتابة شيء على ورقة أمامه .. ثم قال في عجلة .

— امصى بالعلم .. أجل ها . والساعة ١٢ عدا .. يكون الولد ها .

عامرة ؟ .

وانصرفت سيدة وهي تضرب كفا بكف !

أهنا ما قفرت عليه يا عباس ؟ .

تري ابنك بالبوليس .. وبحكم المحكمة أهذا معقول ؟ ..

(٤٤)

حكمت المحكمة ..

تعودت سيدة أن تذهب جابر فظهر كل حين إلى نفسه عصر الليل جاءه أموه
وكانت عملية عجيبة تلك التي تمر في القسم
تذهب سيدة بجابر إلى حجرة مصابيح التوتنجي وينتعت الصبي حوله كل مرة
في خوف وهو يرى مرة شرع يدفع أمامه رجلا تسيل لدماء من رأسه . ومرة
أخرى رجلين ممرق الثياب يتبادلان أقذع الشفاهم . وثالثة امرأة تولول صارخة
وهي تمسك بتخاف رجل
ويتشبث الصبي بدراع أمه وهو يتحيل كل لحظة أن شخصا سيصره أو
يقلعه . ويجلس بجوار أمه على دكة خشبية في انتظار وصول الأب .
وبأني عباس . وقد بدت علامات الغرق على وجهه ووردت معصره رائحة
وزادت لديه بهي وقدماء ولم يبق عليه من آثار العرس سوى الطربوش المربت ببل على
حاجبه والشفة يبرها في يده .
وبلقي تحية عامة على من في الحجرة ، من جسود وأصحاب شكواوى
ومدنيين . ولا يهيه أحد .. أو ينتم أحدهم بشعبة مدعومة .
ويقبل عباس على جابر واضعاً يده على رأسه عابثاً بأصابعه في شعره وهو
يقول :

— أزيث يا جابر مبسوط ؟

ويرفع الصبي عييه إليه في جرع ثم يردد التصالقا بأمه

ويظهر عباس إلى الأم ويهر رأسه في سخرية قاتلا .

— انت أزيث يا ست الحسن .. إن شاء الله تكوني مبسطة ..

ثم يغمض صوته قليلا وهو يقول .

— ألم تحمل لقاء القسم ؟

ولانرد عليه سيدة بل تشيح بوجهها في الاتجاه الآخر . ويعود هو إلى الحديث
مع جابر قاتلا

— أحارك إيه يا ولده . أمارلت تذهب إلى المدرسة ؟ إن شاء الله تفلح .
كأنك .

ثم يوجه القوم بصوت خفيض إلى سيدة .

— يا ولية اغفلي وحطلي عفتك في راسك . أم يمكن أفضل تنسلي في
البيت . وأنى لأشرب عندك عصا فهوة وأرى الولد .. وأحد ما فيه
القسمه . أليس لي عليك حق الصيعة ؟ ..

ولا تخيب سيدة . ويستمر عباس يقبل حواراً بينها وبين جابر حتى يندو عليه
البأس ويقول متبرما :

— يا لالا . يكفى هذا اليوم . إن شاء الله مشوفك يوم الاثنين القادم . إياك
أن تأخرى

واستمرت الزيارة الأسبوعية العجيبة للقسم .

وفي بعض الأحيان كان عباس لا يحضر . تروح عليه بومة . أو يكسل
وبعد أن يطول الانتظار سيدة تهبط إلى الشاويش الخامس على مكتب قائلة
— أقوم بقي يا شاويش ؟

— لم ؟

— انتظرت طويلا .. والرجل لم يأت .

— وراه شغل .

— ولكني متطرة منذ ساعة

— وعيا إيه . وراكي إيه ؟

وتجلس سيدة . وبعد أن يدرس فيها الشاويش حقه في الأمر والنهي . يأددها

بالأصراف .

وطال اللقاء الأسبوعي في القسم حتى بدأ عباس يحس بهمل ..
وكانت مرة .. بعد أن تغيب بضعة أسابيع .. حضر وقد بدأ على ملامحه
التعب .. ونظر إلى سيدة والضي في غيظ قائلاً :
— برصك يا سيدة مش حانتقل ؟

وردت عليه سيدة في حقد :

— لعقل انت يا عباس .. وحل عا بقى .. سيبا في حالتنا .. ممكن ربنا
يرصى عليك !

— أنا أحس عليك يا سيدة ؟ . معلش . بكرة أوريكي بحوم الظهر . بكرة
أستحق الولد . إن شاء الله عيذك مش حانتقع عليه ولا بالبوليس .. اصبري عليه
حتى لا تستجسري في العلوس يا سيدة يا بنت جابر ..

وانصرف الرجل .. دون أن يلقى على الصبي نظرة واحدة ..

وعندما هادت سيدة لم تنم ليلتها ..

هل يمكن أن يأخذ جابر الصبي ؟ ..

كيف ؟

بالقوة ؟! لا يستطيع .

لا يمكن أن يقتحم بيتنا لأنه ليس به عليها حق . ولا يمكن أن يخطمه من
المدرسة . لأنها قد أوصت عم عثمان البواب . وهي حريصة على ألا تتركه
وحده أبداً في الشارع .

ولكنه يقول غداً إنه سيستحق الولد ..

إنها تعرف أنه بعد سوات سبع يصبح الولد من حق أبيه

ولكن هل يمكن أن تحكم له المحكمة بالصبي ؟

هل هو أهل لتربيته . وهو يقصى وقته بين بار مانولى وبيت وجدان .
وعيره من بيوت القمار والدعارة ؟

ولكنه هو أيضا يقول إنها غير أهل لتربيته .

وأنه إذا كان هو ينتقل بين بيوت الدعارة . فقد كانت هي تقصى وقتها كله
فيها .

هل يمكن أن يمش ماصبها أمام المحكمة ليندع بأنها غير أهل لتربية الطفل إذا
أثارت هي عدم أهليته .

مصيبة يا سيدة ..

هذا الرجل لا يستعمل عليه شيء ..

ولقد وقتت المصيبة فعلاً ..

حلت السر التي يستحق فيها عباس ابنه جابر ..

فالأهم لا تتوقف يا سيدة ..

لا يستطيع أن تلصص سرها لحاجاتها . بوقتها عندما يرهق وتبجلها عندما
تناسب العجولة .

كف عباس عن الذهاب إلى زيارات القسم .

وانعطى مدة لا ترى له وجهها .

حتى وصلها ذات يوم إعلان على يد محضر للذهاب إلى المحكمة .

ودعت إلى عباسها .. فأخبرها أنه سيدع لطلب التأجيل للاطلاع .

واستمرت القضية .

طلب عباس ضم جابر إليه .

ودفع عباس سيدة بأنه غير أهل لتربيته لأنه بلا عمل . ولأنه سكير ومقامر
ومشرد .. الخ . وأن هالك شهودا على كل هذا .

ورد عباس المدع .. يسرد تاريخ أمه . وقال يسانطه إنها كانت تعمل في وجه
البركة برخصة .. وأن المحكمة تستطيع أن تطلع على سجل الرخص وهل كشف
الصحة .

وخلال القضية حاولت سيدة أن تراضى مع عباس . وأن تعطيه ما يريد من
(نحن لا مروع الشوك — ج ٢)

دال لكى يترك لها الولد .

وأبلغه حماميا .. وقال إنه مستعد للتوسط .

وفى ذلك اليوم رآها عباس فى البيت .

عرق الباب ففتحت له . ودخل عباس مصرا خديه وهو يطوح المشى فى

يده .. ثم نظر إلى سيدة وقال فى سخرية متسائلا :

— أجنس يا سيدة ؟

وحاولت سيدة أن تلم كل مشاعر الحق والصيق والاحتقار فى باطنها وقالت

له فى هدوء :

— تفضل يا عباس .

وجلس عباس واضعا ساقا على ساق وهو يمز ساقه .

— سمعت أنك تريدنى التفاهم .

— أجل .

— كنت ترفضين أن أزور الولد فى بيتك .. ولكنى سأكون أكرم منك

وأسمح لك بزيارته فى بيتى .. أنترفين رفاقى الرعى ؟

وزفرت سيدة رهرة حيرة ثم قالت فى سكرية :

— ماذا يفعل الولد فى بيتك يا عباس ؟ .. إنك لا تستقر فيه لحظة . من

يطعمه .. ومن يرعى أمه ؟

— تحضره مربية . يا سيدة .

— من أين ؟

— دعنى . ما دمت تخشين عليه إلى هذا الحد .

— أدفع أجر مربية يا عباس .. أنا أجل هذا ؟

— إذن التركيه .. يرى نفسه فى زقاق البرعى كما فعل أبوه ..

— 'حرام عليك يا عباس .. أنت تعرف أننى لا أستطيع العيش من غيره

وهو عباس رأسه وأطلق صرخة ساعرة من أنفه وقس ..

— يبقى .. حل كيمك .. وادعنى

وتهدت سيدة ثم قالت فى صوتها اللليل :

— ماذا تريد يا عباس ؟

— قلنى .. ماذا يساوى جابر ؟ ..

— قل يا عباس ماذا تريد ؟ .. ولا تعذبى .

وحصت عباس برهة ثم أضيق عليه .. كما يطلق الرصاصه قائلا فى حرم

والقتصاب :

— محسماتة جيه .

ودخلت سيدة

إلى كل ما تبقى لديها من مصاع لا يساوى نصف هذا المبلغ .

وتهدت فى بأس وردت على عباس قائلة :

— قل شيئا معقولا يا عباس

وفى عداد عباس :

— ولا ملين ناقص .. هذه المرة لن تحذعنى كما فعلت فى الحلاقى . محسماتة

جيه سأعدها على دابر ملين . إذا كنت حريصة على استقاء الولد معك

— أقسم لك أن لا أمتكها .

— كذابة .. أنا أعرف أنك تملكين أصغرها .. وسأعرف كيف آخذها منك

يا سيدة .

وفشلت محاولة التفاهم .

وبعد أيام حكمت المحكمة بضم جابر إلى عباس .

وحضر شرطى ليسلم العصى ليذهب به إلى بيت أبيه ..

وكان صيحة أحد أيام الشتاء وريح قليلة جبه. لتسمع الأطراف .

وحصت سيدة إليها إليها بشدة وهى تقول فى إصرار :

— لن تأخذوا الولد ..

— هذا حكم المحكمة .

— هذا إجرام .. أبوه لا يعبه أمر الولد ..

ولم تستطع سيدة أن تحفظ مجار .

توسلت وبكت .. صرخت وتشتجت .. شتمت عباس والمحكمة والبوليس .. كفرت بالله .. وبكل شيء .

وم بعدها كل ما فعلت . فقد أسر الشرطي هل أعيد العصى .

ولم تتصور سيدة أبداً أن جابر يمكن أن يأخذ الشرطي ليعصه في العربة اليوكس كما فعل معها .. ويذهب به إلى أبيه .

نظرت إلى الشرطي متوسلة :

— اذن اذهب معه .. أنا في عرضك .

وأردمت تتوسل والدموع تنهمر من عينيها .

— أنا لم أفارق عنه أبداً .. منذ أن هبط إلى هذه الدنيا .. الله لا يحرملك من

ضناك .

ورق قلب الشرطي وقال لها :

— تستطيعين أن تأتي معاً في اليوكس .

واندفعت سيدة إلى الداخل وهي تقول :

— دقيقة واحدة .. حتى أأخذ له ما يلزمه من خيارات .

وبسرعة جمعت سيدة بعض ملابس العصى .. ثم هبطت مع الشرطي إلى

العربة اليوكس والجيران يشعروا بمظرات الأسى وتعليقات السخط .

— عير محقون .. أن يأخذ الولد منها . بعد تزييه سبع سنوات .

— صرخت عليه دم قلبها حتى جعلت منه صبياً مفرحاً .

— علمت عايتها في العيادة .. لكي توفر له كل حاجاته

— حرمت نفسها لتهيئ له حياة كريمة

— ظلم .. والله ظلم ..

وانتهت تعليقات الجيران وهبط حردة يوصلها حتى العربة قائلاً :

— حتى سترجمين يا سيدة ؟

وردت سيدة والدموع تنهمر من عينيها :

— لا أعرف يا حردة .. لا أعرف ماذا يوى أبوه أن يفعل . احكي للدكتور عن الظروف التي أنا فيها .

وعرك اليوكس . متحداً طريقه . إلى السيد الذي يحمل إلى عباس . أمه حابر الذي قصت المحكمة بقصته إليه .. وفي أعقابه أمه .. تمسك عليه

بواجدها .. كما يمسك الحيوان على صغاره عندما يتهددها خطر

واستمرت سيدة تظم جابر إليها وهو يتسائل في فزع .

— هل سذهب إلى أبي ثانية ؟

وعجز أمه رأسها بالكية .

ويعود إلى التساؤل :

— هل سيصبرك .. ويعظم الواعد ؟

وهزت سيدة رأسها وصوتها يهتق بالكاء وقالت :

— لا يا حبيبى . لا تخف .

ومرة أخرى تسأل العصى :

— لماذا كان العسكري يريد أن يأخذني وحدي ؟

ولم تعرف سيدة لماذا نجيب وردت وهي معرقة في بكائها :

— لا أعرف يا جابر

— أنا خائف .

— لا تخف يا حبيبى ..

وتوقعت العربة أمام الرقائى وهبط العسكري ووراءه جابر وسيدة

ومد العسكري يده محاولاً أن يمسك بجابر ولكن جابر توقف ملتصق بأمه

وصاح العسكري :

— يا لله يا ابي الله جهديت احامش فاصير لك .

وقالت سيدة وهي تسعل محاولة التخلص من حشرة البكاء :

— سأتى معكم يا شايوش .

— انت وكبعت . يا لله يا ابي .

وسارت سيدة ويدها جابر ووراءها العسكرية حتى وصلت إلى باب البيت . وكان عبده يقف أمام باب المطبعة فاقبل يساعلى في دهشة :

— أهلا ست سيدة .. ما الحكاية ؟

وتساعلى العسكرية

— أين عباس احدى الرضى ؟

وأشار عبده بيده إلى أعلى قائلا .

— فوق .

وردت سيدة بهيبة على استئصال عبده وهي تزدد ريقها :

— عباس أحد حكم بضم جابر .

وهتف عبده في دهشة :

— وهو ذا معقول .. الرجال الجيش أين سيضعه .. إنه لا يستتر في

البيت سوى سواد الليل .

وصفق العسكرية بكلمة صائعا :

— عباس احدى الرضى ؟

وأطل عباس من الشاهدة وقد عطى رأسه بطاقيّة صوف حتى أدمه ولم يكذ

برى سيدة حتى صاح :

— الحرمة دى جاية له يا شايوش ؟

— أرادت أن تجيء مع العصى

— الحكم بضم العصى وحده يا شايوش الحرمة لا تفر ما .

ونظر العسكرية إلى سيدة في غيظ ثم قال :

— فسا كده قالو اطلعوا م البلد . الحكم صادر بضم العصى يا حرمة

تفصل امت .

وصاح عباس بالمسكرى :

— سأزول حالا لأعد العصى .

وكانت سيدة ما زالت تمسك بيد جابر فعنده الشايوش من يده بعض قائلا .

— خلصينا بقى .. دى مصيبة إيه دى .. احنا فاضين لك ..

وحاولت سيدة أن تثبت بالطفل ، وهت بالانقصاص على العسكرية

ولكن عبده جندها من يدها قائلا

— لا يا ست سيدة . اهدى .. تعالى ..

وردت سيدة صارخة وهي تمسك بجابر :

— لن أترك ابي .

وجده العسكرية مرة أخرى حذبة أعف ودفعها من كتفها حتى نفض منها

العصى .

وكان الحيران قد بدؤوا يهدون من الشواهد يستطعمون الحبر .

وقال عبده في لهجة حارة :

— اتركي الولد يا سيدة . ولا تغشى شيئا .. من يستطيع أحد أن يمسه وعي

هنا .. تعالى .. ولا تدهى الخلق بضر جون علينا .

وجننها عبده نحو المطبعة ليدها من باب البيت .

وكان عباس قد هبط وهو يرمدى حليابه الكستور المخطط وحقايقته التي تعطى

أذنيه . وحذب حمار من يده وهو يحاول التخلص من يد الشرطى محاولا الاندفاع

إلى أمه وقال له ياهرا :

— ادخل يا ولد .. بلاش مياصة ..

واستمر الولد في المقاومة صارخا وصاح به الشرطى .

— نادا لا مرهد أن تذهب إلى أبيك ؟

ورد عباس في غضب :

— أصله تربية مره ..

وحمل الصبي وهو يرفس بساقيه ويهرس بيديه . وعباس يصيح به

— اغفل يا واد احسن لك .. لاحسن انا عاقباش خلق لك ..

ووقفت سيدة مع عبده في مدخل المطبعة ..

وصاح جابر يتعالى من داخل البيت ..

وقدم عبده مقعدا لسيدة .. وأقبل بعض العمال من المدخل يتسائلون عن

الحكاية فصاح بهم :

— ادخل يا جدد عنك له .. بلاش له .

وقال لسيدة : اتفضل يا ست سيدة اهدى ..

وردت عليه سيدة والدموع تساقط من عينيها :

— كيف أعلنا يا عم عبده .. وصناني يا عبده متى هذا الوحش . لا بد أن

أصعد إليه

وقال عبده في نرو :

— اغفل يا ست سيدة .. إنه رجل أحق . وليس لك صعود عبده . ولا

دعني للبلدة ..

— إذن أترك له ابني يا عم عبده . هل تصور هذا ؟

— ومادا تطير سيفعل به .. كل ما يريد هو يعاقبتك . ولكي أؤكد لك أنه

إذا احتمله يوم فلي يحتمله الآخر .

— لا أستطيع أن أتركه معه وحده يا عم عبده . حرام عليكم

— إذن سأحصر أمة روجتي .. للبقاء معه . وسأبيت أنا في المطبعة . ولن

يجسر عباس على أن يفتح عيه عيب . أو يسخر بسوء وهي موجودة . ثم إنه

أبوه يا ست سيدة .. وغير معقون أن يسه بسوء . أنت تعرفين عباس مجرد

هيبه على الناس .. وأؤكد لك لو تركته يومين لعاد يروحك أن تأخذه .. إنه

يتحجر لأنه يلمس صعدك ويعرف تحلقك بالنصي . لو أدت أنيت إليه وقلت له

عند جابر لأنه لم يعد له بقاء معي . ولأنني لا أملك ما أريه به .. غروب منك ..

ولكنك عيطه يا ست سيدة .. طول عمرك حسنة الهبة . الله يرحم والدك

ويحسر إليه . احلسي يا ست سيدة وروقي . وسأذهب حالا لأحضر أمة

حتى تطمئن على جابر قبل أن تنهي ..

ودهب عبده لإحضار أمة وكان صوت جابر قد بدأ يحس . ربما كان قد

نام .. أو تلهي في أي شيء ..

.. وبعد فترة أتى عبده ومعه أمة ..

وكانت سيدة تعرفها منذ أن كانت صبية في الحارة . وأقبلت الصغور الطيبة

تسلم على سيدة قائلة :

— بخير يا بنتي .. بخير ؟

ومن حديد اندفعت سيدة في البكاء وهي تقول بصوت منقطع :

— أدخلوا ابنتي يا بخاتي أمة .. أدخلوا ضاني ..

— اطمئي يا حبيتي . اطمئي . من أتركه لحظة . سأصعه في عيني .

أنا أعرف من عباس جيدا . كم حلت . وهو صغور .. وسأعرف كيف أجعله

يضع عقله في رأسه ..

وصمتت سيدة برهة ثم أطلقت رعدة حارة وقالت في مسكنة :

— إذن أراه قبل أن أذهب .

— طيبا تريته .. وسترته في كل وقت ..

ولم يمضي يومان حتى يهرق من عباس . ويهدل عن عياده ..

ومدّت أمة يدها صعدت سيدة من ذراعها قائلة :

— تعالي يا بنتي .. تعالي .

وانتهجت أمة إلى باب البيت وصعدت السلم ووراءها سيدة وعبده حتى

بعت باب الشقة ..

وكان عباس يجلس على الأريكة . وأمامه حابر وهو يشق شققات متتالية من البكاء وعباس يقول له منذراً :

— عياط .. مش عايز .. إياك أن يطلع صوتك .

ولم يكد الصبي يرى أمه حتى انشعب إليها .

وقفر عباس من مجلسه وهتف بسيدة صارعده :

— ماذا أحضرك ؟

وصاحت به آمنة :

— إيه ده يا سى عباس . لا إله إلا الله . الولية جاية تشوف أسبا وتطعن عمية .

وصرخ عباس :

— ليس لها دخول في هذا البيت .

وردت عليه آمنة في شجة ناعرة :

— عيب يا سى عباس .. عيب .. دا صاها برصه . هو انت حاتعرف تشوف حاجات الولد ؟

— ليس لأحد دخل به .. ابني وأنا مسكول عنه .

— إذن سأبلى أنا لأحد بالي منه

— أفدى كاتريدين .. ولكن هي لأ .

ومطرت آمنة إلى سيدة قائلة :

— اطمئني يا حبيبي أنا مسئولة عن الولد .. لا تحمل همه أبداً وتعالى

لتطمئني عليه في أي وقت

وصاح عباس :

— لن ترى له وجهه . سأعرف كيف أخضع منها القديم والحديد

وجذب عباس جابر في صف صالحا بسيدة

— يا الله . اتصلي ورسي عرص كعك

وجذبها أمه من ذراعها قائلة .

— تعالى يا حبيبي تعالى .. عدا سيبدأ وكل شيء سيكون على ما يرام

ومطرت سيدة إلى جابر وقد أمسكت به أنفه وهو يبكي وقالت له مهددة :

— لا تخف يا جابر . لا تخف يا حبيبي سأعود بيت وأحضر لك كل

ما تريد . ستبقى معك حاتلك آمنة .. مع السلامة يا حبيبي .. مع السلامة .

عجبة هذه الدنيا يا سيدة ..

كم من مرة دخلت هذا البيت وحررت منه .

كم من آلام أصابك فيه ..

صربك ثم عباس . وأدلتك .

وقاسيت فيه آلام الحاجة والحرامان . ومرارة الدل والاستبعاد

ولكنك ما دقت ثدياً من هذا الألم وأنت تعاديه وقد انقطعوا منك أعز ما

عندك ..

ليس مجرد جزء منك ..

ولكنه شيء أعز . من كل ما عندك

تعبين مابه ومودك .. لو ارجعت على بلاطه الذي يرى غسله ركنيتك .

وهبطت سيدة الفرح وبكاء حابر يعلو في مسامعها على كل ما عده

ومسارت في الطريق وطبقة من الدمع قد تجمدت في مآقيها لا تكدر تبصر من

خلافها سوى صورة الصغير التي خلفته ورائها

(٤٥)

هروب

معنى اليوم سيدة وهي في عيادة الدكتور . نعم الدموع على عيها . علا
تكد ترى من خلالها سوى صورة الصغير الباكي .
وأحدثت تروح وتعدو بين الأمهات وأطفالهن مرضى . عالية الدهر لتحيل
جابر في كل صبي يلتصق بأمه .
وطبت من عم إبراهيم البواب أن يتع شا كل ما به جابر من الأطعمة
والماكهة . وأن بعده في سنة لتحملها إليه في الظهيرة وتسلمها إلى أمته .
وكأنها تزور سجنها في سجنه أو تعود مرضا في مصحته .
غير معقول أن يبيت جابر معها عتيا .
غير معقول أن تقضى ليلتها وحيدة دون أن تصمه في أحضانها .
من يخطيه ليلًا إذا قدف المعاء من عل جسمه كما تعود أن يفعل ؟ .
من يعد له الفطار ومن يذهب به إلى المدرسة ؟
ولكن عباس قال إنه لن يذهب به إلى المدرسة . وأنه يكفيه أن يشب
كأبيه .

كيف تركت الولد يا سيدة ؟

ولكن ماذا كنت تفعلين أمام أمر المحكمة وقسوة البوليس ؟

كنت تستطعين التفاهم مع عباس .

كيف ؟! لقد طلب محسنة جيه ؟

ولماذا لا تدعينا . أي أغل من أن تفتدي بها جابر ؟

ولكن لا تملكها يا سيدة . إن كل ما تملكه من مصاع لا يتعدى ثمة
المائتي جنيه .

لماذا لا تقتصرين ؟

من أين ؟ وكيف تسدينها ؟

ثم هذه العقود لم تمتد ملكا لك .. إنها ملك لجابر .. تدبرين بها أمره وتؤمسين
بها مستقبله

ولكن قبل أن تؤمسي مستقبله . يجب أن تؤمسي حاضره .. يجب أن تؤمسي
حياته .

كيف تتركينه هذا الأباي الأحمق ؟ .. الذي لا يذكر غير نفسه

اذهي اليوم وسلمي له بما يريد .

يبي مصاعك .. وأعطيه ثمة . ثم دبري له البقية . اقتصرى من كل من

حولك . اقتصرى من الدكتور ومن جودة .. ومن عم إبراهيم ومن أم سيد

اذهي إلى حمدي وسأله أن يقرضك ما يستطيع .

وأحسنت سيدة بعض الراحة .. وهي تصل إلى هذه النتيجة

ستذهب الآن لتستعيد الصبي . وسيبت الليلة بين أحضانها وتستعصي

عباس كل ما يريد .. حتى لو أراد روحها

إنها على استعداد لأن تعمل أي شيء في سبيل استعادة الصبي حتى ولو أدى

الأمر بها إلى هودها إلى ماضيا .

ستعمل عند دلال أو توحيدة .. أو حتى على قارعة الطريق .. إذا استدعى

الأمر ..

فحيرها أن تنقد الصبي . من أن تصيحه وتحفظ بشرتها .

عدا يستعمره . وإن لم يعمر . مستقبل لعته

يكفيها أن يبنى هو شيئا . ولا يهم أن تكون هي أي شيء ..

وأطلقت سيدة ارتياح . وأحسنت لأول مرة منذ بداية يومها الأخير بأن

أعصابها تسترحي وأن الحمل الذي أثقل ظهرها قد حفر

وأطلق بصرها من حلال الشرفة إلى الطريق ترقب العرباب تحرق وإدارة

يتسكعون وصباة نلت عنها صرخة .. وهتفت :

— جابر .

لقد أنصرت العصي على الرصيف لمقابل
هو بعينه .. ليس وهما .. ولا طليعا .

هو وحده .. يقف متطلعا إلى البيت

لا بد أنه قد هرب من بيت عمي . وسر يسأل عن البيت حتى اعتدى

إليه إنه يعرف الصوت جيدا . يعرف اسم اشراع وعرة البيت وعبادة

الدكتور .. طائفا لفته إليها حتى لا يصل طريقه مد أن عرف كيف يطلق .

عاد جابر إليك يا سيدة .

عاد وحده في هذه السكك المزدحمة ..

سلمه الله من الترام والربات التي تندفع في الطرقات .

وسدعت سيدة إلى سور الشرفة . وصاحت بالعصي حتى يظل في مكانه

حتى يهبط لتأخذه .

هتلت به بكل ما تملك من قدرة على التصياح :

— جابر .

وتطعم إليها العصي .

وقبل أن تحذره أنه من عبور الطريق . صاح بنادى أمه في فرحة ثم اندفع

بعمره .

وعند منتصف الطريق . واندفع بعدد إلى الرصيف الآخر عندما أُنزلت

حدى عرباب الأجرة تعدو مسرعة . ووجدني سائقها بالعصي يترق أمامه

فجأة

وسمع الناس صوت عرصة تعوى

وامتدحت صرخة العصي بصرخة أمه الواضحة في الشرفة نوشك أن يجرى

عسدها من فوق السور واردم الناس وحشمت الأصوات . فلم يعد

حد يعرف من . وأني وماذا حدث ؟

ووصعت سيدة كمها على وجهها وأحدثت تعوى عواء الكلب عندما تنوى

عليه بضربة قاسية ..

وتقبل جودة صائحها ومن وراءه من تبقى من ربات العيادة

— فيه إيه يا سيدة .. ماذا حدث ؟ .

وردت سيدة من خلال عواشها الأكميم :

— جابر .

— ماله ؟

— صرخته عرصة

— وماذا حدث له ؟

وهزت سيدة رأسها في حمية دون أن تطيق ثم قامت وصوتت بقصده حبيب

من العواء والأنيب والبكاء :

— لا أعرف .. لا أعرف ..

وجذبها جودة من يدها وهو يرتجف قائلا :

— تعالى . ابقى هنا .. حتى أرى ما حدث .

ولم تطيق سيدة البقاء .

هبطت وراءه مدعفة .. وبعض السيدات يلاحقها ويحاولن الإمساك بها .

وترايد الرحام .. ولم يعرف جودة كيف يشق طريقه بين الكتل المترصة

أبصر ماذا حدث للعصي وظل برهة يحاول أن يهدد بين الرحام . حتى سمع

رجلا يصيح وهو يصوب كفا بكف

— يا جماعة الواد يفر فر .. حد يلحقه بالإسعاف

وقبل أن يصل إليه كان صوت جرس عربه الإسعاف يرن في الطريق

وتفرق الناس مفسحين الطريق لرحل الإسعاف

ووصل حوده إلى عصي ووحده مغمى بين يدي أحد المارة وسدعا شرف من

منه

واستمرت سيدة تحاول أن تخلص من الأيدي التي تتحاذيها بمحاوله استبقاءها بعيدة عن الصبي .

وأقبل رجل الإسعاف وأمسك بالصبي بين ذراعيه ثم قال بصوت أجوف خلا من الشعور :

ولم تهص سيدة إلا بجسد الصبي عمولا على كتبها وصارت تحمله وسط الناس وهي تصه إليها في تحد وإصرار :

هل حقيقة لم تصعده .. ولما ذهب به إلى المدرسة .. لثحادنا طول
تفريق تخشى .. ويخشى ها .. ؟
هل حقيقة لم تخشى جسده الصغر وتعمله عاريا على كتفها ؟
ألن تدفعه في أحضانها .. وتقص له حتى بنام .. غير معقول .
ماذا تصنع بحياتها .. إن لم تفعل كل ذلك من أجله ؟
لماذا تشقى وتكد .. إن لم يكن من أجل الحبيبات التي تعد لها المأوى
والملبس وغشيء له بها الذهاب إلى المدرسة ..
أى شيء بعد هذا يمكن أن يكون سببا للوجود ؟
وارداد إقبال الناس عليها .
الخيران والمعارف والأصدقاء ..
واردادت كسحت العراء من حولها ..
ونالت أحاديث من الدغى والمقابر . ونشريع الحقة وشهادة الوفاة .
إذن لقد مات جابر ..
لم يكن أول لقاء لك بالموت يا سيدة .
مات كثير من حولك من قبل .
ولكن هذا هو أصغر من ماتوا .
صغير على أن يموت . وأن يوضع وحيد في جوف مقبره قسوة على
الصبي ما بعدها قسوة
وهو يخشى الظلام ويخاف الوحدة
ليس الموت هو ما يروحك يا سيدة .. فما كان قط عريبا عليك
شهدت موت أبيك .. يتحرك أمامك على أكتاف الناس . وأنت مشدودة
حيرى ..
وشهدت موت مكي محمد .. مريرا أبيا .. وموت الست فاطمة عمرنا
موجعا .. ولكن هذا الموت الذى تلقينه اليوم .. شيء آخر .. شيء يبرق

الحشا . ويحرق القلب .

ومع ذلك يطلب الناس من التحل والصر
يصلون من أن تحركى . ونستعنى من أقواله وتردى عذب
وعليك يا سيدة أن تفعل ذلك فليس أمامك سواه
وحرت إجراءات الدفن بسرعة
توسط الدكتور عبد الرحيم لمع البشريع . واستخراج شهادة الوفاة .. وتم
كل شيء على أسرع وجه حتى لا تبيت الحقة في البيت ..
وكان الجسد العزيز . بات مصيبة يتحتم الخلاص منها على أسرع وجه
ويسأل البعض عن المدة .. ولم يستطع أحد منهم أن يعثر على إجابة
معيقة . هل يذهبون به إلى مدافن أهل الأم ؟ .. هل يمدون ؟ .. وأن هو ؟
ألم يذهبون به إلى مدفن الأب وهم لا يعارون له على أثر ؟
وسألوا سيدة فلم تجر جوابا ..
لم تصدق أبها يمكن أن نعت بالصغير وحيدا إلى مدفن ما أبها كان
وانتهارت تعوى كحيوان جريح .
ولم يجد الرجال فائدة في التماهم معها ..
وقال عم إبراهيم البواب :
— أبنا عارف المدفن إلى المدفن فيه عم عريس . وإلى دعا فيه الراس إلى
خبطه الترمای . وما عرفنا نوش أهل . وإلى حاندي فيه كلنا ..
وسأله علوان الطباح :
— قصيدك مدافن الصدفة ؟
— أبهى كلنا مدافن يا عم علوان .. وكلها أرض حاتلونا ..
وصاح الحانوتي يستحثهم
— خلصونا يا جماعة قبل الحرب ما تيجي والدينا تصلم .
واسفر رأيهم على أن يذهبوا بجسد الصبي إلى مدافن الصدفة . هم يكن

أمامهم غيرها

وإن خطأت كل جسد العبي قد أعد لنفسه وساروا به إلى مقابر الصدقة ..

وراءهم .. سيدة تهرون حاحطة العيين فاعره العم . متلاحقة الأنفاس وقد بدت مشوهة . وكأنها قد قدت القفزة على الفهم أو الإحساس وانتبت المهمة في سرعة اليرق .

بصعة أنفاس فتح غم الخارص مقبرة مهجورة على حافة الطريق وسط مئات المقابر . وهبطوا بالحسد الصغير وبعد دقائق صعدوا من عبره وحاولت سيدة عيش أن يعبط معهم أن تبست ليلتها مع الصغير تؤس وحشته .. تقص عليه حادثة .. أو تنسى له أغنية . ولكنهم صعدوا في حزم وقسوة ..

وقالت سيدة في توسل دليل .. والدموع تهر من عيها .

— له يا جودة حرام عليكم . تخطفوه مني له .. أنا ما عشتل بيكم حاجة ..

ولم يستطع جودة أن يكبت دمه الذي سال في صمت على عذبه وقال وهو يزهد ريقه :

— بالله يا سيدة . كفاية ..

وهز عم إبراهيم رأسه في أمي وتحم :

— الله يكون في عوننا .. ذا الضنى غالى يا فاس .

ورفع يده إلى السماء داعيا .

— ربما يجعل يوما قبل يومهم .

وجروا سيدة من يدها جرا .

وعادت سيدة أعير إلى شقتها ..

مقرىء بقرأ القرآن .. والمزبون من حوله .. ينتهدون .

والنار في صدرك يا سيدة .

النار يا حلفت .. لا خلاص لك منها ..

أيتها سرت يا سيدة شيء يمترق في داخلك .. ليوجعك وينفس قلبك .. ويحلق حلقك بالمرارة .

أين للقر من القناب يا سيدة ؟ ..

بت عينة أحزنتك ..

تلك هي عاتمة مطاعتك مع الحرية .

كنت عينة حاجتك .

عينة وحياتك .. في الحياة .

عينة مشاهرك للغير ..

وراح كل هذا ..

وحلفت لك صراعتك في الحياة من أجل الحرية .. استعادا لم يخطر لك بال

استعداد الحزن .. استعداد الوجعة .

وانهارت سيدة على أحد القاعد .. لا تخبر من حولها شيئا . وتعالى صوت المقرىء من حولها .

الذي إذا أصابهم مصيبة

هذه ليست مصيبة يا رب .. إنها شيء أكبر .

عقابك يا رب أنسى من كل ما فعلت من ذنوب

دسي كبير يا رب . إن كنت قد سرفت أو سلكت طريق الخطيئة

وتوجهي لم تتردى إلى أمل عموك وغفرتك ..

ولكن عقابك . أكبر من طاعتى .. وعذابك أنسى من قدرنى

أنا لم أخل عسى . أو أحرق قلبا . طمادا فعلت في هذا ؟ .

ولمذا يا رب ؟ .

وقارب الليل على الانتصاف . وأخذ المرون في الانصراف ، وانقرب

المقرىء من سباه قرائته عندما سمع وقع أقدام تقترب من الباب
وبدا شبح يتدفق في ظلمة المدخل يتطلع بصره إلى الداخل في دهشة .
كان عباس .. يسأل عن ابنه المغارب ..
بعد أن عاد إلى البيت فلم يجد
وحده إلى الداخل ليصل إلى أذنه صوت المقرىء . ويجد بقايا المعزبات
من الجارات يتشخص بالسواد ..
ولم معهم عباس ما حدث ..
وبعضت ألم سيد اللقاء .
وسألها وهو يلوح بيده مهددا في غضب :
— أي جابر ؟
ونظرت إليه العجوز في أسى وقالت تنم بصوت حافت .
— جابر تعيش انت .
ولم يلهم عباس قولها وعاد يردد :
— هرب الولد من البيت .. استمر يركى بعد أن تركه أمه وعينا حاولتا
إسكاته ثم سهى آمنة وخرج .. أي هو ؟ سأعده عصب عن غير أكبر
جسمي .
واقترب منه جوده وهو يحد صوته قدر تمنع وقال له في حرم :
— اسمع يا سى عباس . الولد لم تأخذه . لأنه مات . حاول أن يغير
الطريق بعد أن عاد من عندك مدهنته حربة ومات ..
وغفر عباس غاه وأخذ يردد في ذهول :
— ما .. مات .. جابر .. غير محقولا !
واستند إلى كعب جوده وهو يحس أن ساقه لم تعودا تقويان على حمله .
— تقول إن جابر .. مات .. جابر ابني ؟
وأحسست سيدة برحوده فهتعت بألم سيد في صوت ضعيف :

— أخر جوه . لا أريد أن أرى له وجهها . ربما يحاربها بكل ما عمل .
وسجنته ألم سيد من ذراعه إلى الخارج .
— انفصل يا سى عباس دعها في حالها إن فيها ما يهكها
وجذبه جوده من يده نصف قاتلا .
— تعال يا سى عباس اتفضل
وسار عباس معهم كالطفل وهو يردد مشلوها :
— جابر .. مات .
وهبط عباس الدرج يستند إلى الدرابزين يتلمس طريق قدميه على درجات
السلم .
مات الولد يا عباس ..
قفته بأناتيك .. يا شر من أنجبت حواء ..
الشيء الطيب الوحيد الذي أفلحت في إنتاجه عن هذه الأرض . عن غير
قصد منك .. وبلا إرادة .. قد قضيت عليه ..
في أحد مشاوير أناتيك وعذبتهك .. أنجبت ولدا .. وأصبحت أنا و
مشوار آخر . من الأمانة قفته
كل خطواتك في الحياة يا عباس . توجيها أناتيك . وتطلفت عن العبر
وسرحتك لمهوده . من أجل مسعتك وإرصاد شهوتك .
وفي طريقك للموح .. أنبت بنتا . رمية بعور دام يا عباس . واحصر الت
وأنتج .
كان يمكن أن يكون ذلك أثر طيبا في الأرض . التي لم تحلف فيها غير آثار الشر
والكذب والعش والخذعة . وكان يمكن أن يتملك في يوم من الأيام نحر به
وتعثر بأصابعه إليك
ولكنك . لم تحديه عبر وسينة لكسب . لا تترار الأموال التي عشت عن
اثرها .

ودعسته في طريقك ..

وعدت كما كنت .. وحيدا .. مشردا .. بلا رابطة تربطك بمخلوق . لا أب .. ولا أم .. ولا أخ .. ولا زوجة ، ولا ابن ولا ابنة لا عليك يا عباس .

فأنت لا تستحق من الدنيا غير هذا ..

لقد عشت فيها طمعا .. وحق عليك .. أن تخرج منها وحيدا .. أعزل .. ملعونا من كل من عرفك لو تعامل معك ..

لصت أبوك .. حتى مل من لستك ..

حاول أن تعلمك شيئا .. وأن يجعلك تعمل عملا ماعيا . من أجل أن تعيش كالرجال الشرفاء

ولكنك أبيت إلا أن تظل عائلة على من حولك .

مرة على أمك ..

ثم على تركة أبيك ..

وبعد ذلك على امرأتك ..

وأخيرا حاولت أن تعيش عائلة على ابنك .

فأخذ الله

وعندما وصل عباس إلى آخر الدرج أحس بقدميه لا تقويان على حمله فهبط

على الدرج بفترشه .. وانكفأ يهكي في حرقه .

وأحس هم إبراهيم البراب بصوت النسيم فأقبل يستطلع السبب .

وعندما اقترب منه ليخذه عباس هتف به :

— سي عباس .. مالك تجلس هكذا ؟

— جابر مات يا عم إبراهيم

— البقية في حياتك يا سي عباس ..

— حياتي أنا يا عم إبراهيم أبنة بقية هذه التي ترجوها ..

هل كان لحياي قيمة .. حتى تأمل في بقيتها ؟ ..

— البركة عليك يا سي عباس ..

وهر عباس رأسه وقال في سخرية :

— في أنا ؟

ثم عاود اليكاه وهو يقول :

— صعبت الولد .. وحرق قلب أمه عيه .. مسكبة يا مبددة .. مارأيت مني خيرا .

ثم انقضت إلى هم إبراهيم قائلا

— أريد أن أحدثها يا عم إبراهيم .

— ولماذا لم تحدثها هو ؟

— طردوني يا عم إبراهيم .. لم أجد لي مكانا في معرى أبي .. كان امرؤ من

أن أجلس لأخذ المرأة .. ولكنهم طردوني .

وهر عباس رأسه والدموع تتساقط من عينيه :

— ولم أشتك يا عم إبراهيم . لأن استحق ما لفت .. أجل يا عم إبراهيم .

هل رأيت أبيا لا يستحق شرف المرأة في موت ابنة .. أن هو هذا الأب يا عم

إبراهيم .. ملعون أنا في الدنيا والآخرة ..

وهر عباس رأسه وأردف يقول في مرارة :

— لو أن فقط أستطيع أن أحدثها . فدل لها كلمة .. ولكنها قالت لهم ..

أمر جوه .. لا أريد أن أرى له وجهها .. ودعت الله أن يجازيني بما فعلت ..

ورثت عد إبراهيم ظهره قائلا

— جفعت عنت يا سي عباس . عدا بعض ما بها وتسمع إليّ . ونقول لها ما

شاء

وسمى عباس متفلا وهو يقول :

— يبيبا الله إلى عد

ثم رفع كفه وبسطها قائلاً في مرارة :
 — صمعتك هذه الكف عندما بكى .. لبت يدي شلت قبل أن أصمعه .
 كنت له بئر الأب .
 وشيعة عم إبراهيم حتى الباب قائلاً :
 — ليخبر الله لنا جميعاً يا سى عباس .. إنه غفور كريم .
 والتقى عباس بعد ذلك بسيدة في مقابر الصدقة . أقبل عليها حريماً عظيماً وقد
 لما شعر دفته أشيب مشعلاً .
 وذهب بها والدموع تنحدر من عينيها :
 — سامحني يا سيدة .. أنا على استعداد لأن أعود مجرد خادم لك .. وأبقى
 تحت قدميك .
 وهزت سيدة رأسها إلى أمي وهش :
 — لا فائدة يا عباس . دعني في حالتي وادعني إلى حالتي .. ليساعدك الله .
 وصمت عباس برهة ثم سأفها في مسكنة :
 — هل أستطيع أن أنقل رفات الوند . إلى مقبرتنا . بدل أن يبقى هكذا في
 مقابر الصدقة ؟
 وهزت سيدة رأسها وقالت في برأتها الحزينة :
 — دعه يسترح في مثواه .. مقابر كم .. أو مقابر الصدقة .. كله مرقد .
 لرحمنا الله جميعاً .
 وتوالى لقاءهما بعد ذلك بصبح مرات على مقبرة الصدقة .. يجلسان في صمت
 وبصرقان في صمت حتى جاء يوم .. فإذا بالمقبرة قد أزيلت التنظيم في مشروع
 لتوسيع الشارع .
 وذهب جابر .
 وذهب معه مثواه ..
 وانطوى عباس حزيناً في بيته .. ولأول مرة . بدأ يزل إلى المطبعة .

أحسن براحة .. وهو يجلس على مقعد أبيه ..
 وملائته رعية في أن يعمل شيئاً ..
 ولم يكن هناك في المطبعة سوى حطام آلات .. لم يكن هناك سوى أدوات
 النجيلة . وماكينات قص حردة . وماكينات لصناعة الكروت وإعلانات
 اليد .
 ومع ذلك فقد بدأ العمل .
 أصلح ماكينات القص .
 وأخرج ما تبقى من مخزون الورق .
 وبدأ يشغل ورشة التجليد في عمل الظروف والدفاتر .
 وديت الحياة في المطبعة .. وعاد صوت الطرقات يندق فيها ..
 وبين آونة وأخرى كان يذهب إلى سيدة يحمل إليها شيئاً . أي شيء . مطير
 أو ماكينة .
 ورفضت أن تلتقيه بضح مرات ..
 وفي ذات مرة أقبل عليها في الميادة وانحرب معها أمام جوده قائلاً :
 — أنا لا أريد منك شيئاً يا سيدة لا أريد منك سوى ذكرى طيبة . لقد
 كان يسأني عير . لم أدرك معرفته إلا بعد أن فقدته . فدعني أسأل إليك بين
 آونة وأخرى .. مجرد كلمة طيبة تمنحني عزاء كثيراً ..
 وتهدت سيدة قائلة :
 — حاضر يا سى عباس .. ربنا يديك .. ويساعدك ..
 واستمرت سيدة في عملها في الميادة .. انحصرت كل حياتها بها .
 أصبحت ترى في كل طفل مريض .. ابنها لها .
 وسأفها جوده ذات يوم : ما هي أخبار جماعة روض المرح ألا تروهم ؟
 — كنت عندهم مدة . وقد وصعت كوترو ولنا .. ولم أذهب إليهم بعد

— ألم تخبرهم بما حدث ؟

وهزت سيدة رأسها قائلة :

— وما العائلة — لدى الناس من همومهم ما يحكمهم ولست أريد أن أثقل عليهم شيء .

وفي ذات صباح أقبل الدكتور عبد الرحيم على سيدة لسانها وقد بدا عليه التعب .

— سهرت الليلة عند أحد الريائس . انهم الصغور مريض بالتهربيد . وهم يحتاجون إلى أحد يسهر الليل معهم .. أنتستطيعين السهر يا سيدة ؟

ورد جوده قائلاً :

— إننا لا تكاد نتمتع بعمل اليوم يا دكتور .

.. صحتنا من يوم الحادثة لم تمتد على ما يرام .

وتسألت سيدة وهي لا تريد أن تعرض طلب الدكتور :

— أين يطلعون يا دكتور ؟

— في روض الفرج ..

— روض الفرج .. في أي شارع ؟

— شارع بكتر .. بيت الأستاذ حمدي السمانولى .

ونذت عن سيدة صرخة دهشة .

— حمدي السمانولى ؟

— أجل .. عنده طفل أصيب بالتهربيد .

وتهدت سيدة وأجابته قائلة

— سأذهب يا دكتور . بهم أهي وأولاد معننى

مرة أخرى يا سيدة بأنى نقدر أن نرجع

مرة أخرى يدفع بك إلى مسرح الأحداث . إلى بيت حمدي . نمرضى

به .

بعد أن فقدت أبك ..

(٤٦)

سيدة البيت ..

أقبلت سيدة على بيت روض الفرج حيث الصغور المربى .

كان الوقت قبل الظهر وشمس الصيف تنهب أرض الطريق وشجرة

سباس تحت أمام البيت تمتد أوراقها الرقيقة لتعرض رقعة ظل فوق ريو مياه

الموصوع بمحاور الباب . والأزهار الحمر تكسو قمة الشجرة لتوحى بمريد من

الذهب ..

ووجدت عطا الله بالتح الجاز أمام حربة المنطاس وقد ابيض شعر رأسه وتقوم

ظهره ..

وحيته سيدة وهي تعبر الباب الخارجى قائلة .

— أزيك يا عطا الله .

ورد عليها الرجل دون أن يمر بها سوى معطها الأبيض

— الله يحفظك ..

ورقع كفيه إلى السماء .

— وما يمشى اليه الصغور .

وعندما اقترب منها يحمل المنطاس نصعير الخلى باجاز مير وجهها فهتف

قائلاً

— سيدة ؟

— ألم تعرضي يا عطا الله ؟

وهز سيدة رأسه في دهشة :

— لا والله . ظننتك تومرجية .

ثم تم قائلًا

— أصلي بمساعدة مسطرون واحدة . وعد الدكتور أن يرسلها إليهم

وردت سيدة بمساحة

— أنا هي يا عطا الله

— أنت التومرجية ؟

— أجل .

— سبحان الله

ثم عاد يبرز رأسه في دهشة ويقول في أسف

— الله يخلص أولاد الحرام . لا يتركون أحدا في حاله .. قالوا عليك كلاما

كثيرا

و لم تعرف سيدة كيف تجيب .

وعاد الرجل يقول في عروسة :

— احمد الله أن ربك غير .. تفصل يا سيدة تفصل . من يصدق هذا ؟

ووقفت سيدة أمام الباب الداخل . دقت الجرس دقة ثم تدكرت أنه لا

يعمل .. فطوقت الباب .

وذهبت لها كوثر .

بدا عليها المزال .. تشخب وجهها واحمرت عيناها

وهتفت بها وهي تفتح الباب وتفسح لها الطريق .

— سيدة .. أهلا وسهلا .. ما هذه العيبة الطويلة ؟

وأصاحت سيدة الطريق لعطا الله . وقالت له كوثر

— «ملأ الصبيحة في المطبخ . والنقود معدني .

بفس الكلام الذي كانت تقولته ست فاطمة عندما كان يقبل عليها عطا الله ..

وعادت كوثر تتسائل في برائها الخمرية .

— كيف حالك يا سيدة .. وكيف حال جابر ؟

و لم تعرف سيدة بماذا تجيب .

كرهت أن تنطق بما قد يثير الحزن أو يبعث على التشاؤم في هذا الجو المشيع بالقلق والأسى .

وبسطة كفيها في رضاء واستسلام وتهدت قائلة :

— الحمد لله .. الحمد لله على كل حال .

وكانت الصلاة قد رعت عب السجديد واشترت في اجور رائحة البيرور

وقالت كوثر وهي تشير إلى أحد المقاعد وقد عليها الدموع .

— هل تصدقين يا سيدة أن حمادة قد أصيب بالتهنويد مصى أسود عن

جسده كالمرن . وعن لا يعرف ما به حيا ما به مبدأ الأمر إسمو برانم النهايا

في الثور . وعندما استمرت الخسارة أضر الدكتور بإجراء تحليل . لأنه يشك

في حي في المصارين وأحيرا أصبح أن عبه تهنويد ..

واندفعت كوثر في البكاء وهي تقول :

— ومن يومها وهو لا يكاد يهي رايح راس في راس . وحاولا كل ما

يستطيع لكي تزل أضراره ولا عائلة . بقي معي الدكتور ليلة أس حتى

متصفع الليل إنه رجل طيب كريم .. وقد وعدنا بأن يرسل إل التومرجية تسهر

معى الليل ..

وهرت سيدة رأسها في أسى وهي تعالب دموعها وقالت :

— الليل والبار يا كوثر يا حبيبتي .. أنا التومرجية التي أرسلها الدكتور

ورفعت كوثر رأسها في ذهول .

— أنت ؟

— أجل أنا أعمل عند الدكتور عبد الرحيم مد أن تركت روجي

وبدا على كوثر مظهر عدم الثقة وتسايلت .

— وهل تعرفين كيف تمطى الإنر ؟

— أعرف كل شيء يا كوثر . لا تقلقى

وردت كوثري في أسف :

— على القيص يا سيدة . أنا أطمش إليك كعسى . ربما كرجم أن أرسلك إليها . إن عيني لم تر النوم مذ بصحة أيام . أنا لا أتصور أن أستطيع أن أنام وأترك حمادة لأحد .. ولكن معك أتت .. أشعر أن الأمر شيء آخر ..

وأقبل حمدي من عمله .. وقد بنا مرهقا مكثودا . وابأته كوثري أن التورجية التي أرسلها المذكور هي سيدة . وبدت الدهشة على وجه حمدي وأعقب الدهشة شعور بالارتياح والرضا .

وبدأت سيدة عملها في بيت حمدي ..

لم تترك البيت سوى مرات معدودات مد أن دخت . ولم تعمل عيها عي .
الطفل المريض لحظة واحدة .

كان محمد .. كما سمع باسم جده .. في غيبوبة دائمة ..

ملقى في فراشه الصغير .. معصم العبير . يتقلب في ملل وحسب . وكأنه يحاول أن يفت برأسه من طاقة الثلج المستند إليه .

وبين أوبة وأخرى تمتد يدها لتضع الطاقية في موضعها .

والإبريق الصيني الصغير في يدها .. تحاول أن تلقمه شفيع لتدفع بعض السوائل في حوفه . ويسير معظمه على القوطة الموضوعة تحت دفته . ويرجع ما قد يكون تسال إلى باطنه .

وبأمر الطبيب بخفة جيو كور .. بعد أن يعشروا في وضح أي شيء في معدته ..

وتعلق الأنوبة في الحامل ويمتد الحارطوم إلى ذراع الطفل لتدفع بالإبرة في عرقه الذي لا يكاد يبين .

وبجوارده يطل عليه أبوه في لفقة .. وتمسك أنه كفه الصغيرة في جسر وجوف .

رأيت هذا المنظر من قبل يا سيدة .

منذ ستين طويلا .. كاد الزمن يطويها من ذاكرتك ..

وقد رقد سي محمد في فراشه ببطاقة التمتع على رأسه .. وإبرق الجلو كور في عرقه تمتد بالحارطوم من الأنوبة المعلقة .

وانجد يجلس على مقعده عاجرا . وهو يبر رأسه في أنس وبأس

والأم تبهر دموعها في صمت . ولكن حائر مشدوه .

لمادا يحاول القدر أن يقدم لنا طصات متقاة من سحرهاته ؟

ولمادا يدفع بها بعد طول مطاف ؟ .. إلى بقايا الأسرة لتري مشهدا جديدا من مشاهد الأسى والوجعة ؟

ألم يكتمك ما بك يا سيدة ؟ . حتى يقذف بك القدر لتشاركي العير في حصد الشوك ؟ .. وجنى الماراة ..

وليس هناك من المأساة معر ..

بل إنك تخوضتها برقبك .. في لفقة ..

لو أنك قادرة على أن تفعل شيئا . أو تنقذ أحدا . لاستحق الأمر كل هذا العذاب ..

ولكن أن تخوصبه . وتعودي مريد من الآلام ومريد من الأسى .. فهذا هو الأمر العجيب .

حتى كأنك خلقت . جملة للأسى . مشغوفة بالمواقع .

أهري يا سيدة ..

انجي بجذلك قبل أن تشاهدي مأساة أخرى ..

لم بعد لديك جلد حل مزيد من الصدمات والكوارث .

لم تعد لديك القدرة على وداع مريد من الأحباب .. تنزع منك يد الموت وأنت ذليلة عاجزة .

ملكت لقاء الموت يا سيدة .

كرهته .. وأبغضت وجهه البقيض . ومظاهر الوجعة .

الحي بنفسك يا سيده . فأنت أعجز من أن تصدى الموت وأعجز من أن تواجهيه .. وتستسلمي له ..

ومع ذلك . استمرت سيده تقاوم .

أصرت على أن تواجه الموت في معركة أخيرة ..

كان بداخلها رغبة في العناد .. والمقاومة ..

لم تتم ..

لم تعمل عيناها من وجه الطفل .. تثبت على رأسه الطافية .. وتدفع بين شفتيه بإبريق السوائل .. وتدفع في عروقه وجلده الحقة تلو الحقة .

والأهم تمر بطبقة .

والليالي تسليخ بلبدة متافقة .

وبدايت الباعة وأصوات الطريق .. بات لها في مسامعها وقع آخر .. بغرض مخيف .

كل دقة .. توجهها . وكل طريقة باب تخفيها ..

وأخيرا ..

أعبروا جدا ..

بعد طول عناد ومقاومة .

هبطت الحرارة .

وضح الطفل عنيه ..

وقال الطبيب وهو يبر رأسه في غيطة :

— معجزة .

ثم تهاد فائلا

— حمدا لله على كل حال .

وأحست بمحمدى بهار على المقعد ويدفن رأسه بين كفيه . وأدركت أن

دموعه تحدر من مقلتيه .

كانت دموعا حبيسة أطلق سراحها . انعراج الأرملة .

كانت ترقبه الليالي الطويلة .. وهو ساهر .. يرقب الطفل في شروء . وقد

جددت معالم وجهه .. وكأنه يتجلى من الألم ..

ويتصو قبل الفجر ثم ينهض كيهل ..

وفي الصباح يذهب إلى عمه . ليرجع قبل الظهر في همة .

وأقبلت كوثر تصم الصغير إليها . وكان روحها قد ردد ..

انتصرت يا سيده ..

مرة من بعدك ..

تنتزع عين عزيزا عليك من برائى الموت بعد معركة مريرة معه .

عزيز .. وأنى عزيز .

عزيز عليك كاهلك .

إلى وأنت يا سيده ..

ما كانت معرفة جابر أكثر من معرفة هذا الصغير الذى عشت معه هذه الأيام .

سهرت معه هذه الليالي .. تصمينه إلى صدرك .. وتحسين وجهه بكفك لعل

الحرارة تكون قد هبطت . والعة في طريقها إلى الزوال ..

وكم سأنتك كوثر خلال أيام المرض أن تستريحى .. فكنت تحسنى راحتك إلى

حوار الصغير .. وسأنتك عن جابر في المرات القليلة التى عدت فيها إلى شقتك

لتقومى ببعض ما يمكن من التزامات ..

— كيف حال جابر ؟

فأجبتها في شروء :

— لا تحمل هم . إنه في يد أشد يرايه ورعاية .

وقطع الحوار يسكما دخول بعض الزوار فبهت كوثر لتستغيهم . وانتهى

الحديث .

وعندما رآب العمة . أقبلت عنيا كوثر يداعبها بالكية وهى تنعم .

— لست أدرى كيف أشكرك يا سيدة ..

وأقبل حمدي يحظر إليها نظرات ملؤها الحمد والاعتراف بالجمل ثم قال في هدوء وثقة :

— كنت أعرف دائما أنت مخلوقة حرة . وأل معدتك طيب كريم . ولست أعرف كيف أرد لك الجمل ..

وأحسست من كلماته براحة كبرى . وغلقتها إحساس الشهد الصادي بخلد إلى سح ظليل ..

وتنعم بكلمات مدخية كأنها تحدث نفسها :

— أي جميل . أنا ما أحسست بمنعة في حياتي .. كما أحسست بمنعة تجاه الصغور .. مرة واحدة أحس بالانتصار على الرص . مرة واحدة . أحس بقدرتي على نزع الشوك الذي لم أرعه ..

وربحت كوثر ظهرها في حناد قاتلة :

— أعلن الوقت قد حان لكي تذهبي إلى جابر ؟

ونفست كوثر :

— كم وجدت لو استطعت إحصاءه إلى البيت . ولكني كنت أحتش عليه من العلوى ..

ورفضت سيدة بصرها إليها زغرذ بها الذئب ثم تحسنت قاتلة .

— لم يعد يخشى على جابر من شيء .

ولم تفهم كوثر ما تقصد إليه سيدة .. وعادت سيدة تنعم قاتلة .

— بات بحياة من كل علوى .

وأحس حمدي بما يمكن أن يكون وراء قولها من وجمة ما قبل عليها ووضع يده على كتفها متسائلا .

— ماذا تقصدين يا سيدة ؟

— رحمه الله يا سي حمدي .. أخذه إلى جواره .

وحسب كوثر على صدرها في جرع والدموع تصفر من عيبها

— ما هذا الذي تقولينه يا سيدة *

وحاولت سيدة جهدها أن تتألك وردت في هدوء :

— جابر تعيش انت .

وأقبلت كوثر تصمها إليها باكية وهي تقول :

— لماذا لم تخبريها يا سيدة ؟

— كفي ما أتلفت عليكم به من مشاكلي . ألم يكف حروحي من عدمكم

مالبوليس * وما سته لكم من فصيح حتى تعود لأحملك مصاني

واقرب حمدي سها .

وبمساعدة مدد راعيه عجبها غيرة وصمها إليه ونحس رأسها في حو

— وما دبت أنت يا سيدة في هذا * لقد كنت دائما واحدة من هذا البيت

كما دائما كهللك والأهل يتشاركون في الأرزاء والأفراح . ألم نشرحها

أنت ؟ في كل مناعب المرض التي مرت بها

وبدأت سيدة الاستعداد بمحروح

وقال لها حمدي متسائلا :

— إلى أين ؟

— أعود إلى عمل .. فقد طالت عيشتي عن عبادة الذكور .

وفكر حمدي برهة ثم عاد يتسائل :

— أهاك ضرورة للعودة إلى عبادة الذكور *

وأجابت سيدة :

— رزق يا سي حمدي ليس لي سواء

— ولماذا لا تفين معا *

— وماذا أفعل ؟

— تفين بي . واحدة ما .

وأردت كوتر في حماس :

— إن حمادة قد تعلق بك .. ولم يعد يستغنى عنك .

وردت سيدة في رقة .

— تميت لو أفضى معكم عمري .

وتساءل حمدي :

— ولماذا لا تعملين ؟

— لست أريد أن أقتل عليكم .

— لن تقتل عليا أبدا .

وعلا صوت الصغور من الداعل ينادى :

— سيدة .. سيدة

وردت عليه سيدة قائلة .

— نعم يا حبيبى .

— تعال

وأقبل الثلاثة على الطفل في فراشه .

وقال الصغور :

— اجلسي يا سيدة

وقال له حمدي باهرا .

— لا تقل سيدة خاف

— وماذا أقول ؟

— قل خالتي سيدة

وردد الصغور :

— اجلسي يا خالتي سيدة

وصمته سيدة في حان قائلة

— بل قل سيدة

ثم أردت وهي تعالب دموعها :

— كان جابر يناديني هكذا دائما .

ونظر الصغور إلى سيدة وقد رآها ترتدى ثياب الخروج وتساءل قائلا :

— لماذا ترتدين هذه الثياب ؟

وردت كوتر

— لأنها تريد أن تخرج .

— إلى أين ؟

— إلى بيتنا .

— ولماذا لا تبقى معنا ؟

— قل لها هذا .

والتمت الصغور إلى سيدة قائلا .

— ابقى معنا يا سيدة .. ألا تحبينى ؟

وصمته سيدة قائلة .

— كمسى

— أنا أيضا أحبك .. أود البداى كلها .

واستقرت سيدة في بيت حمدي بعد أن خلعت من شفتها عما فيها وبعد أن

احتضرت للدكتور عبد الرحيم .

استقرت أخيرا .. كواحدة من البيت .

ليست كشهالة .. ولا نومرجية ..

بل هرد منهم ..

حاقة المطاف يا سيدة ..

استقر بك المقام .. مع حمدي .. كلا شيء .. وكل شيء .. إذا فب

وجودك .. بمقاييس الصلات المصطلح عليها . لست أما .. ولا أحتا .. ولا

روجة .. ولا قرية .. ولا حتى عشيقة .. لا شيء أبدا ..

ولكنك مع ذلك .. بت في بيته كل شيء ..

بت أقرب من في البيت إلى كل من فيه ..

بت محورة .. والمسئولة عن كل ما فيه ..

التصق ببت الصغير فلم يعد يترك دبل ثوبت ثيابا ذهبت .. ولا ينام الليل إلا بين ذراعيه

ولم تعد كوثر تسمى عذك لحظة ..

لم تكن خدمة البيت جديدة عليك .. ولا كان التعامل مع الباعة عربيا عندك .. كانت حرفتك .. فأطعمت هوانك ..

تستيقظن مبكرة .. دون أن يهذبك أحد من شعرك ، وتنبني من مظافة نصف حجر البيت ، وتجهز مائدة الإفطار قبل أن يستيقظوا وبعد أن يخرج حمدي .. تعاودين مظافة البيت .. لم تخرجي لشراء احتياجات البيت ، بلا عرف في الطريق .. ولا تسكع عند الباعة

وتعودين إلى البيت تشاركين كوثر في المطبخ بعد أن يتناولوا طعامهم

ونكتهم أقصروا على أن تشار كيم في الخبوس عن المائدة

وهكذا حللت في البيت محل النست فاطمة ، أو النست الكبيرة

أصبحت سيدة البيت يا سيدة .. ببساطة وهنوء ..

كانت تشكو إليك كوثر عندما يصاحبها حمدي في شيء .. ولم يكن حمدي يستكف منك التدخل أو يهمل الصباح .. ومرت الأيام يا سيدة ..

استمرت عجلة الرمن تدور في غير كمال ..

كبر محمد أو حمادة كما كان يدلل .. أو حمدي .. كما كان أصحابه ينادونه في المدرسة ..

وجمعت سيدة عن قيام الثورة وجمع المئذ وعى حرب السويس .. والد العالي ..

ولكنها لم تكن تحس أن دنياها المحدودة تنمو

قدم البيت .. وازداد رحام الشارع ..

ولكن ياتع حمص الشام مازال يقف على شاصبه يتتبع .. كبشة يلممها حمص الشام .. ليذكرها بقول أخيره تعترش الأرض .. والريح غير أطراف القصب هيدو الخقل كموج البحر .. والوف تتدأوراقه تنكسو السور العريض وتنتشر الزهور الصفراء ..

وفي الليل يتصاعد بداء ياتع المحورية .. اللذبة عال الجورية يا عدل انظري ..

وتصرووف بعدها كانت تبتاع لنفسها حبيب المحورية وحمص الشام .. والمحص والملانة وبتاعت له عصمورى ملويز تكاترا وملأ الحجرة رقرقه وتغريدها ..

وكان يخلد إلى صدرها طوال الليل .. تصممه في حب وحنان ..

وازداد الشب في رأس حمدي .. وازدادت التجاعيد .. وامتلائت كبريت بعد أن أنجبت سميرة ..

وتولت سيدة مسئولة سميرة مد أن ولدت .. عرفت أنوبيا سهر الليل ونصير اللقاعات .. وعسل الكراوية .. وسقيا الجريب ووتر عد اللصص ..

واستمرت عجلة الرمن تدور .. وكبرت سميرة ..

وضاقت شقة روض القراج بأهلها ..

وفكر حمدي في الانتقال ..

ولكن أمره استقر ألا يتقل إلا إلى البيت الذي عزم على بناه

واشتري حمدي قطعة أرض في المقطم بالتقسيم على خمسة عشر عاما .. أكد لكوثر أنها لقطة .. وأن الجو هالك ممتاز ..

وبدأت عملية البناء .. وزراعة أشجار الخديفة

وحملهم حمدي يصعب مرات في عربته الصغيرة .. ليروا البيت الجديد يتعالي حدرا .. والأشجار تورق من حوله ..

ومرت الشهور .. والأسرة ترقب البيت الجديد

ومضى عام وأوشك الباء على الانتهاء .

وراح حمدي الصغير يقول لسيدة :

— أعددا لك يا سيدة حجرة متارة . تشرف على الحديقة . والسطح .

سترين الأهرام والنيل يمتد أمامك ..

وصحكت سيدة قائلة :

— أنا آوى في أي حجرة باسمي حمدي .. ماذا سأخذ من الأهرام والنيل ؟

— عيطة إن منظره رائع .. وهواه المكتم جميل .

وبدا الاستعداد للانتقال إلى البيت الجديد .

وفي ذات صباح أحست سيدة بالآلام في بطنها . شيئا كآلام المعص .

واشتكت لكوثر ..

وامتنعت عن الطعام بضعة أيام ..

ولكن الألم استمر يعاودها بين آونة وأخرى .

وفقدت شهيتها للعصم .. باتت تعاف كل ما يقدم إليها .. لم تعد لها القدرة

على ابتلاعه ولا هضمه ..

وأخذت تهزل يوما بعد يوم ..

ضمر جسدها .. الخلة .. ولم يعد بها سوى جلد على عظم .

وزارها الطبيب بصع مرات .

وفي كل مرة يعطيها حبوبا أو أقراصا .

وفي آخر مرة توقف على الباب الخارجي مع حمدي ليقول له

— اسمع يا أستاذ حمدي .. أعتقد أن بطنها تورما عيشة .. ولست أرى فائدة

من أي علاج .. وقلبا ليس سليما ..

وبدا على حمدي الجزع وقال للطبيب في صوت خفيض :

— وما العمل ؟

— ليس هناك شيء يعمل .. رحمة من الله . لو قصى عليها القدر لتجنبها

آلام المرض . قبل أن تستحل

— هل يقوم لها بأية تحاليل .. أو هل هناك فائدة من إجراء عملية ؟ ..

— أبدا . كل ما تستطيع عمله هو أن تلجأ بها إلى المستشفى لتكون تحت

ملاحظتي .. إذا حاجها الألم

وعرف كل من في البيت الحقيقة .

وأدركت سيدة أن معرفتها هي مع الموت قد حانت وأد كل أملها في أن تخرج

من الحركة بلا آلام .

Digitized by Google

Digitized by Google

(٤٧)

الحرية أخيراً

الأهم نمر ..

وسيدة ترداد ضموه وهرا لا

وآلام الأرض لم تستبد بها بعد .

والطبيب ينصح بأن ينقلوها إلى المستشفى .

والرحيل قد أوشك أن يتم إلى البيت الجديد في المقطم

والخبرة تستبد محمدى . هل يذهب سيدة لتقضى مايتها في البيت

الجديد أو يسمع إلى صبح الطبيب ويصعها تحت ملاحظته في المستشفى

وشفاؤها مستعص وبرؤها مغروس مه .. وأقصى أسية ينسأها أحياناً لها أن

ترحل بغير وجهة ولا آلام .. أن يقضى عليها داء القلب ، قبل أن يموت بها

السرطان .

وتسألت كوثر .. وقد غلب عليها الحزن :

— ماذا يمكن أن يفعلوا لها في المستشفى ؟ ..

ورد حمدي وهو مطرق :

— المستشفى أفضل من البيت .. حيث يصفون آلامها لو حدثت .

وقال حمادة في إلحاح :

— أبقها معنا يا أبى .. دعها تذهب معنا إلى المقطم .

وعى فراشها في حجرتها الصغيرة المظلمة على النور كانت تجلس وقد شرد بها

الدهس .

حلت النهاية يا سيدة .. أو كادت .

حلت بغير صحيح .. ولا مفرع .

حلت متسلقة .. كأن الموت بكروه أن يواجهه .. فهو يلف من حولك حتى

بأحلك على حرة

الموت !! ليت يعلم كم هو مزيج ..

لن يكون يبك وبه صراع يا سيدة .. فقد رصعت له الرأية البيضاء ..

منطقية يا مسكينة بغير مقاومة ..

قاومته من قبل .. عندما أقبل على أغرائث .. ولم تجد معه المقاومة ..

خللت معاركك معه .. ظليقت ..

لم يبق لديك حاجة في الحياة لم تقضها ..

لست كل ما اشتيت من ذللك ..

وما عاد بك من حاجة إلى المريد بل قد يكون خلاصت منها . مريد من نصاء

حاجاتك ..

بت قريرة البال يا سيدة .

بعد طول ضرب في طريق الشوك .. لانت لك الحياة .

أصبحت سيدة بيت الأسرة الطيبة .

بت لهم .. أفر ما عندهم :

فدعت من أجلهم كل ما تملكين من جهد . وبذلت ما بقى من ألام من أجل

إسعادهم .

صمكت سقف واحد . مع أمية العمر .. ورعيت ابه .. وبنت له أكثر من

أم . وبنت بنتك الأعصر البائع ورهنت الباصرة المشرقة . ملء أحضانك .

ورعاك هو وروحته صديقتك الصغيرة كوثر . خير من نعمتها وألفتك

واسرحت إليها واستراحت إليك ..

كل ما تمنينه هو أن تبقى معهم حتى النهاية ..

لا ضرورة لقربة المستشفى .. ووحشتها ..

قط .. ليجنبك الله شر الآلام المرض .. لياخذك في صمت وبغير ضجيج ..
ليكرمك الله في نهايتك .. وليجعلها نفل مشقة من حياتك .. ليخرجك منها
بلا عذاب .. فلقد أخذت من العذاب نصيبك .
وقالت حمدي الصغير وهو يقبل عليها متسائلا :
— كيف صحتك .. يا سيدة ؟ تبدين اليوم أفضل .. لقد أحضرت لك
البن الذي طلبته .
— لا حرمنى الله منك .. اجلس يا حبيبى .
— هل تناولت إفطارك ؟
— لم يكن لى نفس .
— لا بد أن تأكل يا سيدة ..
— لا أستطيع يا حبيبى .. متى سترحلون إلى البيت الجديد ؟
— غدا أو بعد غد ..
— قل لأبيك يا حمدي لى لا أريد أن أذهب إلى المستشفى .
— ومن قال إنك ستذهبن ؟
— سمعت الطبيب يقول له إن المستشفى أفضل .
— لا يهيك من الطبيب .. ستذهبن معنا .
وفي اليوم التالي أحست سيدة بأنها أفضل .. واستطاعت أن تنتقل إلى الصالة
فجلست على أحد المقاعد .
وجلست سميرة الصغيرة تحكي لها عن بيت المقطم .
وسمع صوت عربة تقف بالباب .
واندفعت سميرة إلى الخارج لترى القادم .
ثم أقبلت مسرعة وهي تعصب :
— واحدة تقول إنها حرم الأستاذ عبد الحميد .. تريد ألى .
ثم اندفعت إلى حجرة حمدي صالحة :

— بابا .. حرم الأستاذ عبد الحميد تريدك .
وتسأل الأب في دهشة :

— الأستاذ عبد الحميد .. من ؟

— سيدة سمينة .. ومعها رجل ..

وخرج حمدي من حجرته يرتدى القميص والبنطلون .. ونهضت سيدة
متحاملة على نفسها وهي تنبه إلى الباب لتدخل الضيوف .

وسبقها حمدي إلى الباب قائلا :

— استريحى أنت يا سيدة .

وأقبلت الطارئة ووقف حمدي أمامها ولبضع ثوان لم يدرك من هى حتى
هضت به :

— حمدي بك .. ألم تعرف من أنا ؟

وهض حمدي مرحبا بعد أن ميزها :

— أهلا صفاء هانم .. تفضل .

ثم تلف وراءه ليقول لكوثر :

— صفاء هانم .. جارتنا في جنية ناميش .

وأقبلت كوثر ترحب بصفاء ومن وراءها شاب طويل قدمته إلى حمدي قائلة :

— أبني ممدوح .. خرج معهد الصحالة .

— أهلا وسهلا تفضل ..

وانسحبت سيدة من الصالة إلى المطبخ ووقفت ترقب القادمة .. السيدة
السمينة التي وعظ الشيب رأسها .

هذه هى صفاء ..

ترى أيمكن أن يكون فى نفس حمدي .. بقايا لهذا الشعاع الذى طامأ شع من
قلبه نحوها .. عندما كانت تقف فى الشافذة وقت الغروب وقد بدت رقيقة حاملة
بهديل شعرها على كتفيها .

تري أما زالت للوردة التي ختمتها صفحات الكتاب بقايا ؟
تري ألم تزل صفاء .. هي وحدها القادرة على أن تمنحه هذه الوردة ؟
ما أشد أن يسخر بنا الزمن ..
بمشاعرنا .. ومواجعنا ..
بجعلنا نهم .. ونخلق .. ويرهف بنا الخس ويرق الشاعر ونلق قلوبنا على
إنسان .. لا نتوهم في الخليفة غيره .
كل ما في الوجود يشرق له ويسبح به .. لا طعم للحياة بدونه .. لا قيمة
لزهرة تتفتح .. أو نسمة تهب .. أو طير يفر .. إلا إذا ارتبط بوجوده ..
وبسمي مساء .. وبصبح صباح ..
وبقذف به الزمن إلينا من جديد .. فإذا بالأحلام تتبدد .. وإذا به غلوق
كغيره من المخلوقات .. بكل ما في المخلوقات من تفاهات وسخافات ..
وتصمت أجراس القلب .. وتبث إشراقة القواد .
وتقبل عليه فإذا به جسد أجوف .. جرده الزمن من كل ما حملناه عليه من
سحر أو همانا .
وللزمن عطاش .. لا سبيل إلى رفضها أو الخلاص منها .. ترحل .. وشيب
وتجاعيد .. وبطن متفخ .. ومطالب من الحياة .. تبدو أمامها المشاعر الرقيقة
والأحاسيس المزهقة سخريات وعيث ،
وجلس صفاء .. فملأت الكرسي ..
وأخذ حمدي يرمقها .. يبحث فيها عن طيف ظلما أرقه .. وأهاج فيه الحنين
وأيقظ الشوق .
وسرعان ما جرفه الحديث .
قالت صفاء بعد مقدمات عن السلام والوحشة .. وأيام زمان .. وترجمها
على الست الكبيرة .
— محمود تخرج هذا العام من معهد الصحافة وأبواب الحكومة مغلقة إلا من

وظائف التدريس وهو لا يريد أن يذهب إلى المنيا .. أو شمالوط .. ومجال العمل
في الصحافة أوسع ومستقبلها أفضل .
وهو حمدي رأسه وهو يعرف قبض المهرين الذين تخرج بهم المجلة ويعرف أن
المجلة لم بعد أشق ما فيها الكفاح من أجل الوطن ..
بل الكفاح من أجل موازنة الميزانية ودفع مرتبات المهرين والعمال .
وعادت صفاء تردد :
— وقلت لأبيه إن العشرة قديمة بيننا .. وأنا كنا جيرانا .. وأنتك كن تتأخر
عن تلبية أي طلب لنا .. و ..
وقال حمدي مقاطعا :
— طبعاً .. طبعاً ..
ثم نظر إلى الشاب وقال له برقة :
— تمر على غدا في المجلة .. سأكون موجودا من العاشرة حتى الثانية وسأفعل
لك كل ما يلزم .
وأجاب الشاب وقد غلبه الحياء :
— متشكر .. يافندم .
وانصرفت صفاء وابنها ..
طوى الزمن بعجلته التي لا تكف عن الدوران .. كل مشاعر الحنين والوله .
والتقى الاثنان لقاء الغرباء .. واخرقا فرقة الغرباء .. ولولا حاجة سحت ..
لما ذكر أحدهما الآخر .. حمرة .
وفي اليوم التالي بدأ الانتقال للمقطم .
انتقل كل شيء ..
ولم يبق سوى سيدة راقدة على فراشها في حجرتها الصغيرة .. والعصافير
الملونة تتوالب في القفص بجوار الفراش .
وقيل المغرب .

أقبل محمد .. أو حمادة .. أو حمدي الصغير ..

وكان الضيف قد استبد بسيدة ..

وكانت كوثر قد أمضت يومها في نقل الأثاث ومحاولة ترتيبه ..

وقال محمد وهو يمسك بيد سيدة ويساعدها على النهوض ..

— أعددت لك الحجرة .. لا يمكن أن تصوري كم هي جميلة .. لن نشعري

فيها بالحر الذي تحسبه هنا .. لها نافذة تشرف على الحديقة والأخرى تشرف على سفح الجبل ..

وأحسنت سيدة أن قدمها تكادان لا تقويان على حملها وضم العصى جسدها الخليل إليه حتى كاد أن يسهل ووصل بها إلى العربة ثم أجلسها قائلا :

— استرحي يا سيدة .. حتى أحضر لك الغطاء تغطي به ساقيك .. والمخدة تستندين بها رأسك ..

— لا تنصب نفسك يا حبيبي أنا مستريحة هكذا ..

وجلس محمد بجوارها وهو يمسحها إليه ويسند رأسها على كتفه :

— استندي إلى يا سيدة .. استرحي على صدري ..

ورددت سيدة :

— ربنا يحميك يا حبيبي .. ربنا يحب فيك خلقه ..

ووصلت سيدة إلى المقطم واستقرت في حجرتها الصغيرة المظلة على السفح ..

هنا آخر أيامك يا سيدة ..

جميل هذا المكان .. من بعيد يبدو التيل شريطا يلمع في أشعة الشمس

المنحدرة في الأفق .. من بعيد تبدو البيوت كالدمى والأشجار كالأطراف .. كل شيء

يبدو من بعيد يا سيدة وكأنه صورة أحداث أيامك الغائرة .. لا شيء يبدو قريبا

سوى أسقف القابر المتلدة في سفح الجبل .. هي وحدها التي تبدو في وضوح

الحقيقة وهي لا تملؤك بحزن ولا جزع .. بل إن لها في نفسك سكونا المستقر ..

وراحة المأوى .. بعد كل هذا العدو في الطريق آدمى شوكه فديك .. تستقرين

أخيرا .. في مضجع آمن .. هادئ ..

لن يكون المضجع موحشا .. ما دمت متأوينا فيه مع أحباتك الذين

صارعت الموت من أجلهم .. إنهم جميعا يجمعهم في باطن الأرض مرقده واحد

عذا الصغير جابر ..

استكثر الموت لغيره المستقر ..

وضمعه في مقابر الصدقة .. ودهم الأحياء مرقده .. وطوته عرباتهم

وأقدمهم ..

أترى الموت سيحل عليك أنت أيضا براحة المرقده .. وأنس المستقر ؟

وتذكرت جلسة الأسرة في كل مرة حول الشاهد .. والعمة توزع فطير

الرحمة .. والفقهاء يتبادلون القراءة ..

مقر مؤنس يا سيدة ..

لو أنعم عليك الموت به !!

وأرقدك فيه .. مع من قضيت عمرك آمنة في حوارهم ..

وأقبل إليه حمدي .. أو حمدي الكبير ..

وجلس بجوارها على طرف الفراش وسألها في حنان :

— كيف حالك يا سيدة ؟ لقد أحضرت لك الشاش الذي طلبته لكي تعمل

منه متاديل رأس .. هل تريدين شيئا آخر ؟

وصمتت سيدة برهة ثم قالت في صوت خفيض :

— لي رجاء عندك أعشى أن أثقل عليك به ..

— غير ؟

— أن أدفن في مدفنكم .. مع المرحومة الغالية .. وسيدى الكبير ..

— لا داعي لهذا الكلام يا سيدة .. ربنا كريم .. يتفليك ويعطيل عمرك ..

— لم يعد في العمر بقية ترغى .. عدني حتى أستريح فقد أصبح كل ما أتمناه ألا

أثوي بعيدا عنكم ..

وربت حمدي ظاهر يدعا في رفق .. وأجابها بصوت غلبه التأثر وهو يغادر الغرفة :

— ستقين معنا يا سيدة .. أنت واحدة منا ومكانك بيتنا دائما .
وأقبل محمد يحمل في يده كيسا صغيرا وجلس بجوارها قاتلا في حنان :
— أحضرت لك أكل العصافير يا سيدة .. هل تضعينه لها في القفص ؟
ونظرت سيدة إلى العصافير الملونة التي كانت تربسها لتسبل بها محمد منذ كان طفلا وقالت له في ضعف :

— لم يعد لي من جهد لخدمتها يا حبيبي .. افتح القفص وأطلقها ..
ونظر محمد إليها في شيء من الدهشة ولكنه فتح القفص .. فانطلقت العصافير إلى الفضاء الفسيح ..
وملأت السكينة صدر سيدة ..
لو أن لك القدرة على الانطلاق كهذه العصافير يا سيدة .. لكنت أنعم الناس بالا وأفرهم نفسا .

قربت ساعة الخلاص .. لم يعد أمامك سوى أن تسري خطواتك الباقية ..
وتخلص من كل ما لديك من هموم ..

فقط .. لو وقاك الله شر الألم وخلصك من قيده المرتقب .
لم يبق بينك وبين حريتك .. سوى قيد الألم .
تحررت من كل ما استعبدك ..

حتى أحرانك .. لم تعودى عبدة لها ..
راحة الأيمان تملأ جوانحك يا سيدة .. كل شيء جميل حولك ..
النفوس تراكب بألمية ..
والوجوه تهب لك ..
والأمانى الحلوة تحيط بك ..

إن لم يعد لها فيما تبقى من حياتك موضع فمجرد الإحساس بها جميل بملأ

النفس بالآرياح .

وفي ذات صباح .. أحست سيدة بألم يوجع باطنها ..

بدأ صراعك مع الموت يا سيدة ..

لماذا لا يتركك تخرجين في هدوء ..؟

إنك لن تقاومي ..

إنك لا ترين فيه أبدا خصما لك ..

إنك ترحبن به ..

لماذا يصير على أن يواجهك بأسلحته الموحجة ؟

لماذا يأتي إلا لأن يتزعزع أعنانك ؟

ألم يكفه ما أنزل به لك من آلام وأنت تواجهين صراعه مع أعزائك الراحلين ؟

لماذا التجبر .. أمام استسلامك واستكانتك .. لماذا لا يهيك مذلة العذاب ؟

وفجأة .. راح الألم ..

لم تعد سيدة تحس بشيء ..

ملكيت حريتك ، أعورا يا سيدة ..

لم تعودى بعد عبدة حاجاتك ..

ولا مشاعرك ..

ولا أحرانك ..

ولا آلامك ..

انطلقت متحررة من كل متاعب الحياة .. ومواجهها .

وفي سكون حملك الأكف .. في طريق لزوم الموت أشواكه .. ليسجيك في

مرفد آس في صمت من كل ضجيج الحياة ..

وعلى مرفدك ذرف الأحياء دمعة كانت أندى على روحك من كل نعم

العيش .. ووضعوا زهرة تحت لمستها كل ما أدمى قلبك من أشواك الحياة .

« تمت »